روايات الهلال

مدونة أبو عبدو

سرابيوم

محمود عرفات

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

روايات الهلال

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة

القاهرة: ١٦ شارع محمد
عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
Telex ٩٢٧٠٣ hilal u n
فاكس: FAX: ٢٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة

- سوريا ١٢٥ ليرة
- لبنان ٨٠٠٠ ليرة
- السعودية ١٢ ريالا
- البحرين ١,٢ دينار
- قطر ١٢ ريالا
- الإمارات ١٢ درهما
- اليمن ٥٠٠ ريال
- فلسطين ٢ دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات

قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠ جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقي دول العالم ٧٥ دولاراً

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفي لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

باكين

الكتاب : سرابيوم

المؤلف : محمود عرفات

التصنيف : رواية

الناشر: روايات الهلال – دار الهلال

رقم الإيداع: ٢٠٨٧٥/ ٢٠١٥

الترقيم الدولى: 978- 977- 07-1724-05

سرابيـوم

رواية

محمود عرفات

إهـــداء
إلى رئيفة.. الحاضرة فى الغياب

إذا غاب الشرق عن عينى ضاع إحساسى بالأمان. أصحو كل يوم قبل الشروق. أصلى وأهرع إلى المصطبة العالية. أسابق خطواتى حتى أصل إلى القمة. أجلس قرب الحافة لأدندن بتسابيحى الخفية وأغانى الصباح القديمة. تدور عيناى تمسحان المجرى الرائق، وقمم النخيل، والعمامات الخضر فوق أشجار المانجو تمتد كحقل متصل متباين الدرجات، والبيوت الطينية لا تكاد تبين وسط الأخضر الممتد، والصفرة الغالبة ناحية الشرق، وجبال الحديد تسير بتؤدة ووقار رافعة أعلامها، والمعدِّية ما إن تصل إلى الضفة الأخرى حتى ترجع إلى النقطة نفسها على الشط. مرات قليلة غبت فيها عن المكان، فضاع طقس المناجاة الصباحى. أنتبه أنى بعيد فأمتثل، ثم أفتعل النشاط. لكننى بعد لحظات أنهدُّ صامتا، مفتقدا البريق. تصير الأشياء كابية فارغة، بلا معنى، والمدينة بلا ناس، والكلام ينطق بغير صوت. عند رجوعى أرتقى المصطبة وأجلس عند الحافة وأنظر. أبصر تلك المشاهد والصور، أستحضرها داخلى فى خشوع. أرى فى الليل الإشارات الضوئية المبعثرة، والضوء الخافت المنبعث من القرى المتناثرة، وأنوار القوافل القادمة من بعيد؛ فيكتمل المشهد المخبوء فى ذاكرتى.

الشرق يسكرنى؛ منه تبزغ الشمس والأمنيات. تعلقت به فى صغرى. قرص الشمس الدافىء العفىّ كان يطلع علينا فى القرية مُحمَرًّا بطيءَ التوهج.. يعلو كأن حبالًا جبارة تجرُّه نحو صدر السماء.. فيتمسك بها حينًا ثم تفتر همته.. فيثَّاقل نحو الأفق الآخر.. تُرخى الحبال قبضتها عنه فيتداعى. يعاود القرص احمراره.. فيقبض على قلبى حزن شفيف.. فأنتظر البزوغ التالى.

بدأت علاقتى بالقرص الأحمر عندما باع والدى نصيبه فى البيت الكبير، وارتحل إلى القرية القريبة من أرضه. بيوتها متناثرة بالقرب من الترعة

التى تحمل الماء من الهويس إلى آبار السواقى. افتقدت صحبة الحارة ومتعة اللعب مع الأولاد. نبهتنى أمى أنه عندما يأتى المساء تصحو العفاريت وينام الأطفال. اعتدت النوم عندما تنام الطيور، والصحو مع أذان الديكة.. فعرفت قرص الشمس. لاحظ أبى طول تأملى.. فنبهنى برفق أن الله هو خالق الشمس والقمر وخالق الكون. نسيتُ قرص الشمس حينًا عندما دخلت المدرسة. كان علىَّ الذهاب إلى المدينة كل صباح.. فأجعل الشمس ورائى، والمخلة الدمُّور على كتفى. أسير وحيدًا فى طريق مترب يصير موحلاً بعد المطر. فى المدرسة ألعب وأُحسِّن خطى، وأحب الأبلة زاهية، مُدرِّستى التى استولت على عينى. أتابعها حتى تختفى فأشعر بالحزن. لا يعزينى إلاَّ الأمل فى مجىء اليوم التالى. قلتُ لأمى ذات مساء: أنا أحبك يا أمى. ابتسَمت فى عذوبة، أكملتُ: وأحب أبى. قالت: ربنا يخليك ويخليه. تشجعت وقلت مندفعًا: وأحب أبلة زاهية. ضحكَتْ. قلت: وأريد أن أتزوجها. قهقهت وهى تقول: لمَّا تكبر. قلت: أنا كبرت ودخلت المدرسة. قالت: المدارس أيامها طويلة يا ضنايا، وربما تدخل الجامعة.

فى رجوعى من المدرسة تكون الشمس ورائى. أراها عند الغروب عندما أجلس على شط الترعة أصنع حمارًا من طين، أو أطارد الفراشات الذهبية، أو أفرك بكفِّى سنبلات ذيل القط.. فتتطاير ذراته الناعمة فى الهواء.

★★

عينى عليك يا دسوقى! من يومها وأنت مشغول بالشرق والشمس والشوق والشروق والشط والمصطبة. ارحم نفسك يا أخى.. الزمن دوَّار، والنسيان نعمة. الجناين مزهزهة، والخضرة تشرح القلب، والبيوت ارتفعت كأنها مزروعة فى أرض عفية، والخضرة بانت فى الشط الثانى على مدد الشوف. المدقات صارت طرقًا مسفلتة، وبيوت الطين تتناقص، والترعة

الحلوة فاضت. وأنت تزرع أرضك بأقل مجهود وتعطى الآخرين من خبرتك، كريم طول عمرك. تساعد كل من يطلب العون. ومع ذلك تبدو أحيانًا كحجاب مكتوب بلغة غير معروفة.

عندما تنتابك الحالة تسكت ذاهلًا، كأنك مقفول بقفل ضاع مفتاحه. تختصر المسافة بينك وبين الناس فتقطع الطريق إلى المصطبة.. ترتقيها بآلية.. تخطو فوقها عاشقًا سارحًا منومًا. تصل إلى الحافة فتجلس متأملًا الأفق، تنظر إلى قادمين لا يراهم أحد سواك. تنتظرهم فى يقين المتبتل الشغوف. فى البداية كان الأولاد يصعدون ويلعبون. تأملوك كثيرًا.. حاولوا لفت انتباهك.. لكنك لم تحفل بهم. صعدت خلفك ذات يوم.. أردت أن أكلمك فلم تسمعنى. خفت عليك فأعلنت لأهل الجناين أنك صاحب المصطبة وليس لأحد أن يصعدها وأنت فوقها. فسموها مصطبة دسوقى. قبل شهور كنتُ قريبًا من المصطبة.. فرأيتُهم يقتربون بملابسهم المميزة. أسرعتُ نحوهم.. فقد كنتَ مسكونًا بالحالة. رجوتُ القائد أن يترفق بك حتى لا تسقط فتنكسر رقبتك. سمعنى للنهاية وهو مندهش. ظن أنى أبالغ فصعد واقترب وتحقق بنفسه.. فقرر الانتظار حتى عدتَ من خلوتك. ارتعدتَ قليلا لمَّا رأيتَ الرجل وجنوده. لكنك تماسكت، وسرت على المدق الذى يعود بك إلى القرية.

★★★

أموت وأنا راضية عنك يا ابنى. رغم البعد وصعوبة العيش وتربية البنات.. لا أنسى أنك قررت الابتعاد لتهدأ حياتى. مات أبوك وهو يسقى الأرض فى ليلة باردة. وجدوه عند الفجر ملقى على وجهه والجاموسة تدور على مدار الساقية والغِمامة على وجهها. قالوا: سكْتة. لم أبحث عن السبب. أفقتُ على دنيا واسعة وفارغة. كنتَ فى سنة أولى إعدادى، لا تعرف الفلاحة، ولا أقدر عليها. بعد شهور الحداد جاءنى كبير الناحية يطلبنى

للزواج من قريب له فى قرية مجاورة. قال: إن زوجته ماتت وهى تلد. لا أعرف كيف وافقت.. ولا أنسى الدموع التى ملأت عينيك ونحن نترك قريتنا. بعد شهور أحسستُ بأننى ضعت.. بعد أن بعنا البيت والأرض والجاموسة لكبير الناحية.. ولم يبق لى إلاَّ أنت. قلبى يرف فى صدرى خوفا عليك. نظرات زوجى لك تذبحنى. والحيرة التى كنت أراها فى عينيك الحزينتين نغَّصت عيشى.

بعد نجاحك فى الإعدادية.. لم تعطنى الفرصة لنتحدث عن مستقبلك. لا أدرى كيف أخذت قرارك وفردتَ جناحيك وطرتَ بعيدًا؟ عدتَ بعد أسبوعين وأخبرتنى أنك تطوعتَ فى الجيش. ضربت صدرى بيدى وصرخت: لماذا يا حبيبى؟ ظننتُ أنك هربت من نظرات زوجى، وسترجع إلى عقلك وإلى حضنى. لكنك قلت لى إنك تطوعت لتضمن عملًا دائمًا ومرتبًا مضمونًا. كنتَ تحكى وأنا أرتعش. قلتَ لى: لا تخافى يا أمى.. تطوعت لأحل مشاكل كثيرة لن نحتملها. لم أتمالك نفسى فبكيت. قلتَ لى: أنت ست الناس، ست الكل، لا تخافى من البعد لأنك فى روحى وقلبى. مسحتَ دمعتى ولم تتركنى إلاَّ وأنا أبتسم. فكَّرتُ فى كلامك فهدأ سرِّى، وسلّمتُ أمرى لله.

★

لا يرى الجناين أحدٌ كما أراها من فوق المصطبة: خضرة تتخللها صفرة الأزهار وعتمات الفراغ بين الأغصان المتعانقة.. نُضرة البزوغ وتيبس الأفول والجفاف الذى يسبق السقوط.. بشائر النوار.. وفرح يطلق زقزقات العصافير ويدفع أجنحتها للتحليق.. موجات لا يراها أحد تنطلق فى دوائر صغيرة.. تتسع فتنتشر أريجًا غامضًا.. روائح تضمنى فى رقة.. تعصرنى فى قسوة.. وتساقط دموع من منابع شتى: الحنان والألم، الحب الضائع والأحلام المفقودة. لا أشعر بنفسى إلاَّ عند الصعود. لا يحمينى عند الهبوط

إلاَّ انغماسى فى العمل. لا أشعر بالأمان إلاَّ عندما أعطى ظهرى للغرب.. وأصعد إلى المصطبة لأراقب ما سيأتى من الشرق.

علاقتى بالشمس وثيقة منذ صغرى.. لم تكن كذلك بالنسبة للأرض.. أبى، عليه رحمة الله، كان يعمل فى فلاحة الأرض، وكنت أساعده أحيانًا فى العزق، أو سد بعض المراوى وفتح بعضها، أو تعليق الجاموسة فى الساقية. لكننى ضقت بالزراعة.. خاصة بعد أن أحببت مُدرِّستى زاهية، وشطح خيالى فقررت أن أنجح فى المدرسة.

فى أول عهدى بالجهادية تحدث المعلمون عن الأرض، وأنها العِرض، ومهمة الجيش هى الدفاع عنها. ولمَّا أفقنا على كارثة سبعة وستين كان الحديث دائمًا عن تحرير الأرض.. وكانت أحاسيسى تدور فى فكرة الثأر، والتخلص من الشعور بالمهانة والإذلال. الهزيمة حدثت كأنها ضربة مفاجئة على القفا. اختلف الأمر تمامًا بعد تحرير القنطرة. المعارك التى خضتها مع زملائى فى القنطرة أنبتت فى قلبى حُبًّا عجيبًا للأرض لم أعرفه من قبل. لم يعرف متولى سبب تفضيلى للعمل بالزراعة بعد أن تقاعدت. حاولت أن أشرح له فلم أقدر. أدركت حجم هذا الحب بعد وقف إطلاق النار. فى اللحظة التى صدرت فيها التعليمات بالاستعداد للانتقال من رأس كوبرى الفرقة إلى منطقة التجميع الجديدة فى القصَّاصين.. أخذت أرتجف. كيف أترك القنطرة شرق.. الأرض التى حررناها.. وصارت مطمئنة ساكنة تحت جناحنا.. يا الله.. ما أجمل هذا الإحساس الذى أحسست به نحو أرض القنطرة ورمالها ومبانيها المدمرة! كان صعبًا عَلَىَّ وعلى كل زملائى أن نعود إلى الغرب. لكننا نفذنا الأمر كما تعودنا. وتمنيت أن أكون ضمن مجموعة الصاعقة ومفارز الاستطلاع التى كلفت بدخول الجناين جنوب ترعة الإسماعيلية، لأعرف مصير سرابيوم وأهلى هناك. فى هذه اللحظة شعرت

بالخوف للمرة الأولى .. الخوف على أرضى وعِرضى.

★★

يظن أنه الحزين الوحيد. رغم حزنه يزرع الأرض ويجامل أهله والجيران.. ولا يسمح لأحد أن يقتحم خصوصياته. قلت له: يا دسوقى لا تُصَعِّب الأمور على نفسك. يرد فى حزن: غصبًا عنى يا متولى. أهز رأسى متمتمًا: براحتك يا دسوقى. لا يغادر المكان إلاَّ ليزور أمه وأخواته الثلاث. يخرج عقب الشروق بعد أن يؤدى طقسه الصباحى على المصطبة. يعود فى اليوم التالى مباشرة. فى مرات قليلة كان يغيب عدة أيام، ثم يعود ليتحدث عن أمه وأخواته. حكى لى عن أخته البكرية التى اشتكت من زوجها. عاد من الوحدة فرآها باكية. أخذها من يدها وأجلسها على الكنبة وسألها عما يبكيها. قالت له إن زوجها ضربها على وجهها عندما خالفته الرأى. سألها فى غضب: أين هو؟ قالت: فى الغيط. انتفض وخرج دون كلمة. ذهب إلى زوجها فى الحقل، انقض عليه لمَّا رآه ، وضربه علقة ساخنة، واجتهد ألا يترك أثرًا على وجهه أو جسمه.. الضربات المتوالية أذهلت الرجل فلم يدافع عن نفسه.. وبعد أن انتهى من ضربه حذره قائلاً: هذه المرة ضربتك.. فى المرة القادمة سأقتلك. وهما فى طريق العودة قال له: اطمئن.. فلن أبلغ أختى بما حدث لتبقى لك هيبة فى البيت. رجع الزوج ليقول لزوجته فى غموض: حقك علىّ. تعجبتُ من الطريقة العنيفة التى عامل بها زوج أخته. لمح الامتعاض على وجهى، فنظر فى عينى بقوة قبل أن يقول وهو يضغط على الحروف: أنا بعيد عن أمى وأخواتى، وإن لم أجبره ليعمل حسابًا لى ولهن، فلن أستطيع حمايتهن. التمستُ العذر لدسوقى.. خاصة وأن الحرب لم يمض على انتهائها سوى عشر سنوات. ولاحظتُ أنه يزداد غموضًا، وملامحه تزداد قسوة. ولا يتحمل على أمه وأخواته الهواء الطاير. فإذا

استشعر ما يهدد سلامهن تحول إلى حيوان مفترس. أحياناً كنت أسأله عن الزوج المضروب فيكتفى بأن يقول باسماً: مضبوط كالساعة. يسرف فى الكلام إذا تعلق الأمر بأمه وأخواته. أما إذا كان شخصه هو محور الحديث فينكمش ساهماً، زاهداً فى الكلام كأنه نسى كيف تنطق الحروف.

يحكى لى عن رضا أمه عنه.. يراه نعمة من نعم الله. ويرى أنه لم يفعل إلا أقل القليل.. ولما أبدت أمه رغبتها أن تزوج بناتها فى القرية؛ لأنها لا تطيق أن يبتعدن عنها.. قرر أن يزوج أخواته فى القرية. ورفض كل الخُطَّاب الأغراب.

سنوات طويلة مرت، لم يحك ولم يسمح لأحد أن يقترب. عرَّف الكافةَ نقاطَ الاقتراب والمناطق المحظورة. رسم الخطوط بصرامة على خريطة حياته. لم يتخلَّ عن هدوئه ولين جانبه. نظرة الحزن الكامنة فى عينيه كانت تدفع المتطفلين عنه.. وتُميت جسارة الأسئلة على ألسنتهم، وتحولها إلى جمل مألوفة عن الصحة والأحوال.. حتى أنا لم يسمح لى. لو تحدث لاختلفت الأحوال.. لكنه تحوصل وأحاط حكايته بسلك شائك، ومنع المرور إلى داخله.

★

كيف عرفت مكانى يا ابنى؟ ولمَ تأخرت؟ ليتنى عرفت فى وقت مناسب لأزوره ولو كان فى آخر الدنيا. لقد ذهب إلى آخر الدنيا بالفعل ثم قفز فى قطار الآخرة.. الله يرحمه.. غادر الدنيا دون أن أراه أو أودعه!

مازلت أراه كما أراك الآن. استلمته ضمن الجنود المتطوعين الجدد. صغير الحجم.. شاربه خط رفيع يعلو شفتيه الغليظتين.. عيناه مذعورتان وحركته مرتبكة. استقبلتُ المستجدين بطابور تكدير مُعتبر. ظللت أتكلم ساعتين والسرية كلها فى وضع الانتباه.. لا حركة ولا همسة. لم ألتفت

للعرق الذى يسيل على وجوههم. كنت أقدمهم بثلاثة أعوام، يزين ذراعىّ شريطان.. يصنعان مسافة واسعة بينى وبينهم. يجب أن يعرف المستجدون كيف أصبحت عريفًا، وكيف يحترمون الرتب والتسلسل العسكرى والضبط والربط. معاملة المتطوعين الدائمين تختلف عن المجندين المؤقتين. المتطوع بعد وقت قصير يصبح زميلا، لكنه لا يجب أن ينسى نفسه وأقدميته. المر الذى شربناه فى بداية تطوعنا يجب أن نسقيه لكل القادمين الجدد. علمونا أن نكون بلا قلب ونتصرف بلا رحمة. فى أيامنا الأولى كنا نستيقظ مع صوت البروجى يعلن نوبة صحيان.. من يتكاسل فى الفراش بعد انتهاء النوبة يقفز مفزوعًا تحت تأثير ضربات موجعة من حزام القايش ذى الرأس المعدنى الصلب.. لا يهم أين تقع الضربة.. المهم تنفيذ الأمر بدون تكاسل.

بعد مرور ساعتين بدأ الجنود يتساقطون من الإعياء. لم أهتم، لأن هذه الطوابير هى الفرن الذى نحمِّصهم فيه.. لينفذوا الأمر بدون تفكير. واصلت محاضرتى التى أدرك أنها مملة وبغيضة. قلت لهم: أنا مثلكم فى الطابور فلماذا لم أقع؟ لا يستطيع أحدهم أن ينطق: أنت صاحب الفرح.. تستمتع بإذلالنا.. وتلقى محاضرتك وأنت تحرك يديك وقدميك وتروح وتجىء. نظرت إلى الجنود البائسين وأنا مستمتع بضعفهم. خُيِّل لى أن هناك من يهمهم. صحت فيهم: من الذى يتنفس؟ فوجئت بأبيك يصيح فى هياج: حرام عليك. لم أدر ماذا دهانى؟ ناديته ليتقدم الصفوف. وقف أمامى فسحبت حزام القايش من وسطى وأخذت أضربه بعنف. لم أفق إلاَّ عندما سقط على الأرض بلا حراك. صرفت الطابور وأمرت اثنين من زملائه أن يحملاه إلى الخيمة. بعد لحظات عادا والفزع يملأ عيونهما. اضطررت لإبلاغ قائد السرية فأمر بنقله إلى العيادة. بعد ساعة استدعانى قائد المعسكر وهنأنى على صلابتى مع الجنود.. أبلغنى أنه أمر بنقل المصاب إلى المستشفى

العسكرى. لاحظ أننى أعض شفتى بعصبية فقال بهدوء: حتى لو مات.. ولا يهمك.. أنت تؤدى واجبك. فى اليوم التالى قلبى أكلنى.. حاولت معرفة أخباره. احتلتُ حتى زرته بالمستشفى. عرفت أنه فاقد الوعى وقد يموت. عدت للمعسكر مرتبكًا. لم يشعر أحد بما أعانيه. فى نهاية اليوم الطويل أطلق البروجى نوبة نوم.. فتمددت على السرير.. شعرت وكأنى أتقلب على فراش من شوك. وفكرت.. ما ذنب هذا الجندى المستجد؟! لقد كنتُ مستجدا مثله.. لكنى لم أُضرب بهذه القسوة.. ربما لحرصى على تنفيذ الأوامر بدقة.. أو لأنى أخشى الرجوع إلى زوج أمى والتعرض للسع نظراته.. وماذا لو مات.. هل أصبح قاتلاً؟ قائد المعسكر طمأننى.. لكنى لا أطمئن. حمدت الله أنه أفاق وحصل على إجازة مرضية. زرته فى المستشفى قبل أن يغادر.. رآنى فتاهت عيناه وهما مشبعتان بالألم. وضعت يدى على كتفه.. لم أتكلم.. ولم ينظر فى عينى. أخذت عنوانه وزرته فى بلدته أثناء فترة النقاهة. دُهش عندما رآنى، قلت له: أنا قادم لأقدم كفنى لأبيك. قام واحتضننى فى وهن وفرت الدمعة من عينه. من يومها أصبحنا أصدقاء. رجع إلى مركز التدريب فعاملته معاملة خاصة، اكتشفت أن معاملتى للجنود المستجدين اختلفت، سألت نفسى: ألا توجد طريقة أخرى لتدريب الجنود على الضبط والربط؟

بعد عدة أسابيع قامت ٦٧. سحابة الهزيمة السوداء غطت سماء الوطن. وبدا كل شىء على وشك السقوط. لا أنسى وجه جمال عبد الناصر وهو يلقى خطاب التنحى.. مهزومًا بائسًا وحزينًا.

وبدأ كل شىء فى المعسكر يتغير بسرعة.. تماثل السرعة التى حدثت بها الهزيمة. هل كنا حقًا فى حاجة إلى هذه الهزيمة الساحقة لكى نفيق؟ وكيف حدث هذا التغيير فى سلوك القادة والضباط.. الطعام والملابس.. نظام

التدريب والطوابير؟ بدأ تجنيد المؤهلين تأهيلاً عاليًا ومتوسطًا.. استقبلنا فى مركز التدريب محامين ومحاسبين وأساتذة جامعة ومهندسين وفنانين ومدرسين. صار الضرب ممنوعا. قائد المعسكر يلتقى معنا مرة كل أسبوع، يسألنا عن مشاكلنا. وجدنا ضباطاً مخصصين لسماعنا والرد على أسئلتنا. يجتمع المعسكر كل خميس لمشاهدة السينما، وتوزع علينا علب العصير.

سمعنا عن إنشاء الجيش الثانى فطلبنا أن نلتحق بأحد التشكيلات القتالية.. فقد مللنا العمل فى معسكرات التدريب بالقاهرة. أجابوا بعضنا إلى طلبهم.. كنت مع أبيك ممن وافقوا على ضمهم للتشكيلات القتالية. توجهنا إلى الإسماعيلية وسألنا عن موقع اللواء ١١٧ قالوا لنا: فى سرابيوم. منذ أن وصلنا إلى هنا لم نفترق يا ولدى. فى حرب الاستنزاف اشتركنا فى عمليات القوات الخاصة شرق القناة، وفى ثلاثة وسبعين كنا ضمن القوات التى حررت القنطرة شرق. وبعد حدوث الثغرة اشتركنا فى جمع المعلومات عن القوات المعادية، ضمن الوحدات المكلفة بالمقاومة حتى أصيب والدك، وظل تحت العلاج لمدة عامين قبل أن يحال للتقاعد.

المصطبة التى نجلس فوقها الآن شهدت مع والدك مولدها. أتى رجال المهندسين بجرافاتهم وعرباتهم القلاب، أخذوا يصنعونها بهدوء. بعد أيام قليلة تشكلت كجبل صغير مليء بفتحات للمراقبة وملاجىء للجنود ومرابض للدبابات والمدفعية. شاهدنا الطريق الدائرى المخفى عن العيون الذى يصعد بالمعدات والدبابات إلى القمة، والطريق التبادلى النازل من الاتجاه الآخر. تصعد المعدات إلى أعلى دون أن يشعر أحد، وتمتلىء الفجوات والفتحات بالجنود والضباط والخرائط ومخازن الذخيرة. بعد تجهيزها رأيناها ذات صباح تفور كبركان.. تندفع منها القذائف الحارقة لتدمر مواقعهم فى الشرق. عرفنا أن المصاطب انتشرت على طول الجبهة.

عملت فى سرية الاستطلاع، واشتركت فى العمليات الخاصة خلف خطوط العدو. بعد كل عملية ألتقى بأبيك لأحكى له.. فأرى عينيه تلمعان وملامحه تتحفز وهو يقول لى: يا بختك! عندما اشترك لأول مرة فى عبور القناة وعاد سالمًا قال لى: يكفينى عبور القناة والمشاركة فى قتال الغاصبين.. أستطيع أن أموت الآن وأنا مستريح. أبوك يا ابنى كان سَبعًا.

قم يا ابنى نأكل لقمة، ونكمل كلامنا، أشتاق لسماعك. زيارتك أعادتنى للوراء خمسًا وعشرين سنة.

★★

جاوزتَ الخمسين يا دسوقى ولم تتزوج ، ولا تريد. الأيام تمر مر السحاب.. فيكتشف الإنسان أن عمره انقضى دون أن يحقق شيئًا. أنت محارب عنيد. تعلمت وتدربت وتعبت كثيرًا فى المعسكرات المحيطة بالعاصمة. عندما وقعت الكارثة فى سبعة وستين رفضتَّ البقاء فى القاهرة، وطلبتَ الالتحاق بوحدة مقاتلة، مع أن الكثيرين كانوا يبحثون عن أية وسيلة تبقيهم فى القاهرة بعيدًا عن الخطر.

عسكرتْ وحدتك فى الجناين فعرفتَ رئيفة. كنتُ ولدًا صغيرًا.. وكنتَ تدعونى بالجحش.. وتقول إننى أذكرك به حيث لا أكف عن الحركة والعفرتة. الاقتراب من الجنود كان ممنوعًا، لكنى كنت أفتعل الأسباب لأعابثك وأتحدث معك. عرفتُ أنك تحب أختى وتخاف عليها. ذاعت قصتك عندما شكت لك من جندى يقطع عليها الطريق ويعاكسها.. فضربته وكسرت ذراعه. كادوا يحولونك لمحكمة عسكرية، لولا أن والدى استعطف القائدَ فعفا عنك بعد أن اشترط استرضاء صاحب الذراع المكسورة.

عشنا جو الحرب قبل أن تقوم. نصحو فى الصباح فنشعر كأننا فى سلام. يزرع أبى ويقلع.. وأنا ألعب وألهو.. وفجأة نسمع صوت الضرب

وتنهال القذائف. علمتنا الغارات أن نحتمى فى حفر عميقة بطول الفرد، وفعلنا كما يفعل الجنود فى كل مكان يحلون فيه. يحفر كل فرد حفرة لنفسه.. فإذا فاجأتنا الغارة بعيداً عن الحفر احتمينا بالثنيات الأرضية والترع الضحلة.

كنتُ صغيراً لا أعرف إلا اللعب. لا يسعدنى سوى الجرى فى البراح بجوار الترع الصغيرة، وفوق أكوام القش. أجمع الفراشات وأصطاد العصافير بالنبلة.. وأراقب الطائرات وهى تهدر مطلقة قنابلها.. وأتابع الصواريخ وهى تطاردها.. ويصبح حديثنا لأيام عديدة عن لحظة اصطدام الصاروخ بالطائرة، ومنظرها وهى تسقط مثل حمامة مذبوحة. المعايشة أنستنى الخطر. خوف الكبار من الغارات كان يدهشنى.. أدركت بعدها أنهم يخافون لأنهم يعرفون.

استغرقتنى ألعاب الطفولة وشقاوتها حتى باغتتنا الحرب.. مع أنها كانت الحديث اليومى فى البيت والغيط. شهدت ميلاد خالد ابن خالتى، وشاهدت جثة والده ملقاة بجوار الساقية بعد انتهاء إحدى الغارات، وعطلتنا الغارات المتتالية عن دفنه نهاراً.. وعندما دفناه .. لم تعطنا الاشتباكات وقتًا كافيًا للبكاء عليه. خالتى لحقت به عندما فاجأتها الغارة وهى فى الخلاء.. وجدناها بلا حراك وليس فى جسدها أية إصابة. أمى أخذت خالد ابن خالتى فى حضنها.. أرضعته مع أخى الصغير منصور.. وافتعلت الضحك حتى لا يصيبه الغم.

تَتَابُعُ الأحداث أمَاتَ فى قلوبنا الجزع، وخلَّف فيها حزنًا مقيماً، وغضباً ظل يكبر كل يوم.. حتى انطلق فى صرخة تهليل مدوية.. لمَّا رأينا طائراتنا تمرق من فوق رؤوسنا نحو الشرق.. كدنا لا نصدق. نسينا الحذر.. وحاولتُ الوقوف فى أعلى نقطة لأرى ما يجرى. عرفنا أنها الحرب عندما انطلقت

مدافعنا تلقى بالنار على المواقع الحصينة فى الناحية الأخرى للقناة. وامتلأت الطرق بالجنود والعربات والمعدات. حل المساء فرأيت الدبابات تقترب. رأيت أبى يقفز واقفًا وهو يهتف: الله أكبر. النداء يتردد فى كل اتجاه منذ عبرت الطائرات. والدى لم ينطق إلا عندما تجاوزت الدبابات القرية فى اتجاه القناة. لعله كان يتوجس أو يشك أو ينشد التثبت. هذه أول مرة أراه فيها يتخلى عن وقاره ويخلع طاقيته ويلقيها أرضًا ويرقص. أمى كانت تُرضع خالد وهى تتمتم بدعاء خافت.. نظرَت إلى أبى فى دهشة.. ثم جاوبته بطريقتها. أطلقت زغرودة طويلة مجلجلة. نظرتُ إلى رئيفة فرأيت وجهها شاحبًا، وفى عينيها نظرة فرح حائرة ممزوجة بخوف. خوفها على دسوقى يبدو فى عينيها الفزعتين وشفتيها المرتعشتين دائمًا.. منذ أن انتقلت وحدته بعيدًا فى اتجاه بورسعيد. انتهت أمى من زغرودتها فرأيت رئيفة تضع يدها على بطنها المنتفخ ثم تميل إلى الأمام فى إعياء.. لم تجد إلاَّ زير الماء لتستند إليه. قبل أن تنتبه أمى وجدتها تسقط على الأرض. انتفضت أمى فوضعت خالد على الأرض، وأسرعَت إليها. أنهَضتْها وهى تتمتم بإشفاق: يا حبيبتى يا بنتى! أخذتها إلى الفراش وعادت تشعل الوابور لتعد لها مشروبًا ساخنًا. نظر لها أبى متسائلا فردت عليه: البنت حامل ودسوقى بعيد عنها.. اطمئن. جلس أبى يجفف عرقه وهو يلهث.. نظرت إليه فوجدته يبحث عن شىء يقوله.. يبدو أنه لم يجد كلامًا فهتف بأمى:

- حضرى الإفطار يا أم رئيفة.

كان أذان المغرب يرتفع وسط ضجيج أصوات السيارات والدبابات ودوى المدافع.. فانتبهنا إلى أن يومًا من رمضان انقضى دون أن ندرى.

★★★

أنت يا دسوقى عوضى من عند ربنا. مات أبو البنات فلم تخيب رجائى. صرتَ سندى ورجلى. نشعر بك قريبًا منَّا رغم البعد. تغيب عن عينى شهرًا أو أكثر، وأهل القرية يتصرفون على أنك بيننا. الكل يعمل حسابك، وكل شىء ينتظر حضورك. تتأجل الأفراح لتقام فى موعد إجازتك. تأتى فتعزى أهل الميت، وتحضر جلسات الصلح مع الكبار فيستمعون لحكمتك. يصفو الجو من الواجبات فتحدثنا عن زملائك وقادتك، وتضحكنا نوادر الجنود المستجدين. عرفنا أنهم يحبونك فى الوحدة كما نحبك فى القرية. سألتك يومًا: هل أنت الكبير هناك كما أنت الكبير هنا؟ ضحكتَ وأخذتَ تتحدث عن النظام والرتب والأقدمية. لم أفهم كل الكلام.. لكنى عرفت أن مشوارك فى الجهادية طويل، فأكثرت الدعاء لك يا دسوقى يا ابن بطنى. أدعو حتى تدمع عيناى وأنهنه من شوقى إليك وخوفى عليك. ذات مرة جلستُ أمام الفرن أخبز العيش وأخواتك يلعبن حولى. لسان النار فى شاروقة الفرن ذكرنى بكلامك عن الحرب: الحرب نار يا أمى. وجدت نفسى أدعو لك وأبكى. كبرى أخواتك أنهضتنى من أمام الفرن ونادت إحدى الجارات لتكمل الخبيز وهى تحاول مساعدتها.

★

بلدنا قريبة من دسوق. أبى سمَّانى دسوقى لأنه من محبى سيدى إبراهيم الدسوقى. ذات مساء أمرنى أن "أنام بدرى" ليأخذنى معه إلى دسوق لنحضر الليلة الكبيرة للمولد.. فأخذت أتعفرت من الفرحة.

فى السيارة التى تكدسنا فيها لم أتوقف عن الكلام. زهق أبى من الأسئلة فضربنى برفق لأسكت قليلاً. بكيت فاسترضانى: خلاص قرَّبنا وتشوف بعينك. نزلنا من السيارة فأمسك يدى بقوة ولم يفلتها خوفًا من

الزحام. دخل أبى إلى المقام. أجلسنى جوار السور النحاسى للضريح لأكون أمام عينيه، وأمرنى ألاَّ أتحرك، وأخذ يصلى ويدعو. تلفتُّ حولى فأرعبتنى الزحمة. نظرت إلى أعلى فتاهت نظراتى فى القبة العالية المدورة المشغولة والملونة بطريقة عجيبة. سرحت فى جمال القبة وارتفاعها. كانت أجمل شىء رأيته. عادت نظراتى من القبة. نظرت وجوه الخلق، ملامحهم الوادعة، وعيونهم الدامعة، وشفاههم الهامسة أكدت لى أنهم مشغولون بذكر الله، فهدأ خوفى. انشغلت بمراقبتهم وهم يضعون أحذيتهم أمامهم، ويفسحون مكانًا لأداء الصلاة وعيونهم شبه مغمضة، ويحنون رؤوسهم. بعد قليل تمكنت من تمييز ملامحهم وتأملهم.

أفقت على أبى يشدنى من يدى لأنهض. رأيته يتراجع بظهره نحو باب الضريح وهو يضع يديه على رأسه محييًا. توقف قرب الباب ورفع يديه وتمتم بدعاء لم أسمعه.. فوضعت يدى قرب وجهى، وأغمضت عينى، وقرأت الفاتحة. ابتسم لما رآنى أفعل مثله، وأشار إلى الضريح ومال نحوى قائلاً: سميتك على اسمه.. شى لله يا سيدى. لا أنسى تفاصيل هذه الرحلة، النور الباهر وباعة السمك والفسيخ، والمراجيح والألعاب العجيبة، وحلقات الذكر والمنشدين، والحلاوة الشعر التى اشتراها لى. أذكر جيداً تأمله لى وأنا ألتهم الحلاوة فى التذاذ، ثم لقاءه ببعض معارفه مصادفة فى زحام المولد. تأملتهم بجلابيبهم الكاسية، ولاساتهم البيضاء تلتف بإهمال على الطواقى المنصوبة على رؤوسهم. البِشْر يكسو وجوههم. وفى أيديهم عصىّ رفيعة وطويلة.. يلوِّحون بها فى مرح.

مات أبى فى الغيط وهو يسقى الزرع فركبنى الغم. وأصبحت الدنيا فارغة.. لكنى داومت على الجلوس فوق شط الترعة لمراقبة قرص الشمس وهو يسقط محمرًا وحزينًا فتمتلئ عينى بالدموع. توقفت عن الجرى وراء الفراشات وقطف أعواد ذيل القط. وكبرت فجأة على اللعب بالطين.

بعد دخولى الجيش.. اشتقت لزيارة أبى. لم أذهب إلى قبره. فضلت أن أراه حيث أذكره جيداً. ذهبت إلى ساحة المسجد الإبراهيمى فى دسوق. شملتنى الرهبة إذ رأيت المشاهد نفسها.. الزحام والحلاوة الشعر، وجلوسى أمام السور النحاسى للضريح خائفًا من الزحام. ورأيت أبى ورفاقه يتصايحون وهم يهزون عصيهم الطويلة ويمزحون. شممت روائح الطعام المتداخلة. مررت بسرادقات المنشدين وراقبت المتمايلين على إيقاع: الله.. الله. فاضت عيناى بالدموع وشعرت بدوار. أفقت فوجدتنى وحيداً فى الميدان الواسع الخالى.. أجلس على حجارة الطوار القريب. نظرت إلى المئذنة العالية ثم أغمضت عينى لأتابع المشهد المخبوء فى قلبى.

عدت إلى القرية والدموع تتساقط من قلبى. أشعر كأننى أسير فلا ألمس الأرض. رأتنى أمى فأخذتنى من يدى وسألتنى هامسة: كنت فين؟ قلت: رجعت الآن من زيارة أبى. سألت: فى البلد؟ سكتُّ قليلا ثم قلت متردداً: لا.. ولكن عند سيدى إبراهيم الدسوقى. رأيت دموعها تكاد تفر من عينيها، ثم همست كأنها تكلم نفسها: لما شفتك حسّيت إنك فى حالة غريبة.. الله يرحمه.. كان من أحباب الدسوقى.. ربنا يعطيك طول العمر. جلسنا نتعشى. لاحظت أن حركة يديها مرتبكة، وأنها تنظر نحوى نظرات متوالية، وفى عينيها بقايا دموع.

زيارتى لأبى فى مقام إبراهيم الدسوقى خففت عنى كثيراً. كنت أتصور أنه حزين لزواج أمى. اكتشفت أننى الحزين. قلت فى نفسى: ليس لى حق. أمى أنجبت ثلاث بنات فوق رؤوس بعض. ولمَّا قال لها زوجها إن نفسه فى ولد.. قالت له: ربنا يخلى دسوقى ويحفظه لأخواته. هدأ الرجل عندما ذكرته بوجودى.. وكأنه اطمأن على بناته. بعد مدة قصيرة أسلم الروح دون أن يشكو مرضاً. أرسلوا لى برقية فلحقت الجنازة وهم يهمُّون بالدفن.

فى التدريبات الشاقة أسمع الجندى يهتف: يا عَدَوى. وأحيانًا أسمع نداءات مشابهة: يا مرسى، يا بدوى، يا سيدى شبل، يا أم العواجز، يا "أبو الدردار"، يا جابر، يا قناوى، يا معداوى، يا سيدى عز. وسمعت جنديًا يهتف: يا سيدى الطشطوشى. هتاف الجنود بأسماء أولياء الله الصالحين جعلنى أخمن أسماء البلاد التى أتوا منها. بعض الأسماء كانت تثير ضحكات الآخرين المكتومة.. لأن اسم ولى الله الصالح فى بلد قد يكون اسم قاطع طريق فى بلد ثان، وقد يكون اسم مُغنٍ فى بلد آخر. وفى جلسات السمر كان الجنود يتحدثون بإجلال عن أولياء الله الصالحين، ويعددون كراماتهم. تعجبت عندما حكى لى جندى من سوهاج عن كرامة لسيدى إبراهيم الدسوقى. قال: إن الولىّ الصالح كان يتكلم بجميع اللغات ويعرف لغات الوحش والطير. ولما تعجبت من أنه يعرف ما لا أعرفه عن الدسوقى، رغم قربى من منطقة نفوذه، صاح قائلاً: حيلك حيلك.. إن والدى من مريدى الدسوقى، ويحرص على حضور مولده كل عام. فى تلك الليلة عرفت أن مولد الدسوقى يقام فى الخميس التالى لمولد السيد البدوى فى طنطا، وأن عائلات بأكملها يرتحلون من قراهم البعيدة فى الصعيد ليقضوا ليالى المولدين فى الخيام المنصوبة حول المسجدين. اكتشفت أن الصعايدة يحفظون كرامات أولياء الله الصالحين بيقين لا يقبل المناقشة. فقد حكى لى أحد القادمين من الأقصر عن كرامة يتناقلها الكبار والصغار عن سيدى "أبو الحجاج الأقصرى". قال إن الرجل الصالح أراد أن يمر من باب منخفض، فظن المصاحبون له أنه سينحنى ليمر.. لكنهم فوجئوا بالباب يرتفع.. والأقصرى يعبره دون أن يخفض رأسه. وبعد أن مر الرجل عاد الباب إلى ارتفاعه الطبيعى.

★★

متى تقوم بالسلامة يا دسوقى. حزنت على صديقك الذى غادر الدنيا دون أن تراه. لكنك تمالكت أمام ابنه الذى جاء ليزورك ويبلغك بالخبر. حلفتَ عليه أن يبقى معك ثلاثة أيام. بعد أن سافر فرش المرض ملاءته عليك. أتعجب.. كيف تحتمل أن ترقد فى فراشك ولا تطلع المصطبة لتمارس طقسك اليومى؟ تصعد إليها رغم سخرية الأهالى. تظن أنك تتنفس من فوقها هواء أنقى. قلتَ لى إنك لا تحتمل الغياب عنها، فهى النظارة التى ترى الدنيا بها.. رغم أنك لا ترى شيئًا سوى الصحراء الممتدة نحو الشرق. لا أعرف ماذا تتوقع أن تراه؛ فتحرص على انتظاره ومراقبته من فوق قمتها العالية. قل لى: ماذا ستفعل إن قررت الحكومة هدم المصطبة وتسويتها بالأرض؟ لقد ثُرتَ لمَّا ترددت شائعة أنهم سيهدمونها، وقلت: لا يمكن.. هى التى ساعدتنا أن نركب العدو ونكشف حركته ونشاط قواته. حالة الحرب انتهت وحل السلام، ويرى الكثيرون أن المصطبة أصبحت بلا فائدة.

كلما أجىء إلى سرابيوم، أمرُّ عليك بين المغرب والعشاء، نشرب الشاى ونتسامر. أحكى لك عن مشاكل عملى فى أبو سلطان، ومشاغبات الأولاد، وتحكى عن أحوال الجنائن، وذكرياتك فى مراكز التدريب بالقاهرة، أو فى معركة تحرير القنطرة. لكنك لا تقترب من المنطقة المحظورة أبدًا.. ولا تسمح لى بالاقتراب.. مع أننى أقرب الأشخاص إليك. ليتنى أعرف ما تحدثت فيه وأثار مواجعك حتى ألزمك الفراش! من يخدمك الآن فى مرضك؟ ليتك اخترت زوجة ترعاك وتخفف عنك صعوبة الأيام!

اشتغلتُ فى أبو سلطان واشتريت بيتا صغيرا وتزوجت فيه وأنجبت أولادى.. هو بيت صغير يكفينا. أخطف نفسى كل يومين لأزورك فى سرابيوم. نجلس فنتذكر أيامنا معًا. ذكرياتنا الحلوة قليلة.. يبدأ الكلام فيتجه الحديث إلى منحدر الأحزان.. فتتململ العيون بالدموع.

لو أن أمى على قيد الحياة، وفى كامل صحتها لأطعمتك يومياً. تعرف كم كانت تحبك وتقدرك. كيف لا تجهز لك طعاما؟ وهى التى لم تكف عن الخبيز أيام الحرب. بعد أن أفطرنا مساء يوم العبور.. كان الرضيعان: أخى منصور وخالد ابن خالتى على حجر أمى.. اكتفت رئيفة باليانسون.. بينما كانت أمى حائرة بين الطفلين اللذين يتنازعانها وهى تتناول لقيمات قليلة لتتمكن من إرضاعهما. بعد الصلاة أمر والدى بالعجين. تعجبت أمى لأن صندوق العيش ممتلىء. قال لها وهو يهتز فرحا: العجين للعساكر يا أم رئيفة. قامت أمى لتعجن وهى تهز رأسها كأنها تقول لنفسها: كيف نكفى هذه الأفواج المتدفقة من الجنود؟ قرأ أبى أفكارها فقال فى يقين: الجهاد بما نملك.

فى الصباح يحمل كل منا "مشنَّة" مليئة بالخبز ونقف على الطريق نوزعه على الجنود. أهتف بالجنود: شدوا حيلكم يا أبطال. وكان الرد الذى يسبق الكلام ويتبعه: الله أكبر. شعرت أننى كبرت سنوات. خجلت من نفسى فواظبت على الصيام والصلاة. بدأت بتقليد أبى. فى مساء اليوم الأول للحرب أتى رجل الأمن وطلب من أبى الاكتفاء بالصلاة فى المنزل لأن المساجد معرضة للتدمير. امتثل والدى.. لكنه كان يبحث عن أحد الجيران ليصلى معه جماعة. ذات مرة لم يجد أحداً.. فتشجعت وطلبت أن أصلى معه. ابتسم وهو يمسح على رأسى ويقول: أنت رجل الآن يا متولى، توضأ وأذِّن وأقِم الصلاة. شعرت بالفخر وأنا أقف وراء أبى. جاهدت لأبدو ثابتاً، وأغمضت عينى حتى لا تشغلنى الطيور التى تتقافز بالقرب منا. أمَّا أصوات الانفجارات والقنابل وحركة جنازير الدبابات والعربات فتعودت عليها. بعد انتهاء الصلاة سلمت على والدى وقبلت يده.. نظرت إلى شفتيه وهو يتمتم بكلمات لا أسمعها. رد على نظرتى المتسائلة بأن علمنى كيف أختم الصلاة،

وأخذ منى عهداً ألا أترك الصلاة بعد ذلك. نهضت وأنا أمسح وجهى بعد الدعاء كالكبار.. لكنى شعرت بالدموع تملأ عينى فخرجت مسرعاً.

لم تتوقف أمى ورئيفة عن الخبيز. فى اليوم السادس قالت أمى: لم يعد عندنا دقيق. تنهد أبى وابتلع الكلام. خرج صامتًا وجلس تحت شجرة التوت أمام الدار. بعد ساعة اقترب صف من سيارات النقل المحملة بالمعدات والجنود. توقف الطابور قريبًا من البيت. ثم نزل القائد من السيارة وسألنى عن والدى. أشرت لأبى الجالس تحت الشجرة. صاح القائد وهو يقترب منه: يا حاج. وقف والدى مرحبًا. تحدث الرجل مع أبى وسجل بعض الكلمات فى ورقة. ثم رأيتُه يشير لمساعديه الذين اقتربوا منه مسرعين. سمعوا تعليماته فصاح كبيرهم وهو يؤدى التحية: حاضر يا أفندم. وانصرف فى اتجاه السيارات. بعد لحظة وقف أبى مندهشًا وهو يرى الجنود يحملون أجولة الدقيق على أكتافهم ويضعونها بحرص على عتبة الباب دون أن ينظروا إلى الداخل. المشهد سمَّرنى فى مكانى. همَّ القائد بالانصراف.. فمد يده إلى والدى ليوقظه من دهشته. سلم أبى عليه وهو يتمتم بكلمات شكر متناثرة. لم يلتفت إلىَّ القائد. لا أعرف كيف أسرعت نحوه وناديته: حضرة الضابط. التفت نحوى متطلعًا. وقفتُ أمامه انتباه، ورفعت يدى بالتحية: تمام يا أفندم، الله أكبر، شدُّوا حيلكم. ابتسم الضابط ومد يده نحوى بحنو فسلمت عليه وأنا أشد قامتى لأبدو أطول. سمعته يقول: شدُّوا حيلكم أنتم، وخلِّ بالك من نفسك يا دُفعة. استدار فتعلَّقَت عيناى بالنسر المعلق على كتفه.. شعرت به يكاد يطير مع الطائرات المندفعة نحو الشرق.

المساء الذى أقضيه فى سرابيوم، يصبح عتمة إذا لم أقابلك. وعندما نلتقى تسرى أحاديث الذكريات، فتتندى المشاعر بدموع الفرح والألم. متى يلين رأسك وتسمح لى أن أخدمك فى مرضك؟ سألتُك بالأمس: ماذا بك؟

قلتَ: لا شيء.. لكننى لا أستطيع القيام من الفراش. لم ألاحظ ارتفاعًا فى درجة حرارتك، ولا تشكو من مغص أو إسهال، وجهك كما أعرفه. فكرت أن أحضر الطبيب فقلتَ لى: لا تتعب نفسك، ماذا أقول له وأنا لا أشعر بألم؟ أعرف أنك قوى وتقدر أن تتغلب على تعبك. ستدعو لصديقك بالرحمة، وتضم ابنه إلى قائمة الأحباب الذين تمنحهم حبك ورعايتك. أغبطك يا دسوقى على حبك للناس، وأتساءل: هل يمكن أن أجدَ رجلًا مثلك يستطيع أن يضم العالم كله فى صدره؟!

سوف أطلب من زوجتى أن تعد طعامًا فى أبو سلطان لنأكله معًا.. وسأفاجئك بالطعام ساخنًا فى أوعيته.. ولن تستطيع أن تعتذر.. وسوف أحتمل غضبك وثورتك؛ لأننى لا أحتمل أن أراك هكذا. أنا واثق أن رجلاً مثلك لا يمكن أن ينكسر لمجرد سماع خبر كهذا.

★★★

فى سبعة وستين كنتَ فى القاهرة.. وأنا فى البلد أتقلب على فراش من شوك. خوفى عليك يهلكنى. غبتَ عنى شهرين.. ولما جئتَ رفرف الفرحُ فى صدرى، ورأيتُ كل الأشياء مزهزهة. لكن قعادك الطويل وحدك ساكتًا أقلقنى. حاولت الكلام معك.. تكتفى بهز رأسك فى أسى. قبل سفرك بيوم أتيت وجلست بجانبى وتحدثت معى، قلتَ: لا تغضبى منى يا أمى.. قبل الحرب طرنا فى السماء بأمل عريض.. بعد الحرب وجدنا أنفسنا فى الأرض.. أجنحتنا مكسورة، والدماء تغطى الرمل والأرض والزرع. الخونة ضحكوا علينا.. والصهاينة أذلونا وأخرجوا لنا ألسنتهم.. الهزيمة مُرَّة يا أمى.. لا تقلقى إذا تأخرت عليكم.. أيامنا القادمة صعبة. دموعى بللت خدى وأنا أدعو لك بالسلامة والنصر.

مرت شهور طويلة لا نعرف فيها شيئًا عنك. تأتى كل أسبوعين وكل شهرين أحيانًا.. فتنام معظم الوقت.. لم تعد تطلب أكلات معينة. افتقدنا حكاياتك المسلية عن القادة والجنود. وجهك الخمرى المستدير صار أسمر ممصوصًا. أشفقتُ عليك من لفحة الشمس. لم أعرف أنك نُقلت إلى الجبهة إلاَّ بعد استشهاد القائد. جئتَ بعدها فقلتُ لك: لا تنس أن تذهب لعزاء أولاد الشوادفى. تطوح ذراعيك فى حزن: عزينى يا أمى فى عبد المنعم رياض.. استشهد فى موقع قريب منا على حافة القناة.. ساعتها ضربتُ صدرى بيدى وشعرتُ بالخوف يرجُّنى وصرخت: رحت للجبهة يا دسوقى؟ اتسعت عيناكَ دهشةً وندمًا وقلتَ: أنا فى الجبهة منذ ثمانية أشهر... استدركتَ وقلت: كل العسكر فى الجبهة. وكأن النار أمسكت بى لمَّا أخبرتنى بصوت هادئ أنك تشترك فى العمليات الخاصة، وتعبر القناة للشط الثانى استعدادًا للحرب. وجدت رأسى يلفّ وأفقت لأجد أخواتك البنات يحطن بى والفزع يطل من عيونهن.. التفتن إليك لائمات.. فهززت كتفيك وأنت تقول فى قناعة: كلنا معرضون للخطر.

★

متولى يظن أننى مُعقَّد.. ربنا يسامحه. هو أقرب الناس لى.. لا يساويه هنا إلاَّ أخواتى البنات هناك.. يحاول أنْ يجرنى للحديث فى أمور أطويها داخلى لا تخص أحدًا. ألمى الذى أخفيه هو جزء من حياتى، وحلمى الضائع.. لا أخرجه من صدرى فيجف.. أريده أن يستدفئ بحرارة أنفاسى.. ويتندى بفيض الذكريات المتكاثفة على صفحة روحى.

أرتقى المصطبة فأفتح قمقم القلب لأستخرج المخبوء، وأحتفظ بالخيوط بين أصابعى لكى أعيد الخبيئة إلى موضعها محاطة بغلالات التفكر والتذكر والدموع الدافئة. أنا والألم والحزن عجينة واحدة. أخاف على ألمى من

الضياع فأموت. الموت راحة لأنه يجمعنا بالأحباب.. لكنى لا أريده الآن.. قبل أن.. .

المصطبة هى خوفى وفرحى، وحزنى وألمى، وفخرى وسكوتى، وكلامى وصياحى وجنونى. بدونها لا أستطعم شيئًا. معها أشعر بالاطمئنان. منذ أقامها المهندسون وأنا مستدفىء بالأمان. قبلها كنا نتلقى الضربات فلا نعرف من أين تأتى. بعدها أصبحوا تحت بصرنا وفى مرمى أسلحتنا. صار المجهول معلومًا. لماذا يريدون إزالتها؟ هى المنجنيق الذى هدم حصون العدو. وهى خط دفاعنا الأول ضد عدو غادر وباطش ودموى.. يظنونه الآن صديقًا.

قد يفكرون فى إزالتها.. وقد يفعلون.. لكنهم سيعيدون بناءها ثانية وبتكلفة عالية. لا أقدر أن أقول هذا الكلام لأحد غير أمى.. التى أحكى معها بلا حساب.

صديقى الذى جاءنى ابنه بخبر وفاته.. عشت معه سنين طويلة.. أحداثها منقوشة على حجر ذاكرتى.. فى مراكز التدريب بالقاهرة، وفى سرابيوم، وفى السبخة القريبة من القنطرة. راقبته منذ استلمته مع دفعة المتطوعين. كان شاربه خطًا رفيعًا، فى سرابيوم أصبح كثيفًا يمنحه مهابة بين الجنود. صار زميلًا لى فى مركز التدريب، ثم أصبحنا صديقين. المهام التدريبية والقتالية باعدت بيننا أحيانًا. نلتقى فنتبادل الأخبار والحكايات والأحلام. أسأله عن أهله، ويسألنى عن رئيفة. زرته فى قريته بعد حادثة ضربى له فشعرت بحجم جريمتى. أردتُ عمل أى شىء ليعفو عنى. دموعه التى سالت فى صمت أوجعتنى، مثلما أوجعنى فقره. علاقتى به كانت جسرًا بين عهدين. عودته بعد التعافى صاحبت التغيير الشامل فى الجيش. فكرت أن أزوجه واحدة من أخواتى.. لكنه صارحنى أن أباه خطب له ابنة عمه وهو فى السادسة من عمره كعادة أهل قريته.

قبل الحرب بشهور تحركت وحدتنا إلى القنطرة غرب. فى أول سبتمبر اشتركنا فى مشروع تدريبى كبير.. دام ستة أيام كاملة لم نذق النوم فيها إلاَّ قليلاً. مثَّلْنا عبور القناة على ترعة الإسماعيلية بالقرب من أبو صوير.. عبوراً حقيقيًا. قبل ذلك كنا نمثل العبور على ترعة افتراضية وسط الصحراء. قلت لصديقى: دخلنا فى الجد. قال بحسم: دخلنا فى الجد بعد الهزيمة مباشرة. قلت له: أقصد أن الموعد قرب. فقال: الوقت فات.. القلم مبرى والسن مسنون، والانتظار صعب.

العزيمة فى العيون حد سكِّين لامع، أو كنصل سيف مشرع تنعكس عليه أشعة متوهجة. توتر الانتظار دفعنى لتأمل الجنود. عيون القدامى الذين تطعموا بعمليات العبور والاشتباكات الليلية نطقت: نحن لا نعرف الخوف. راقبت المستجدين.. بعضهم زاغت عيناه. لكن طائراتنا التى مرقت فوق رؤوسنا على ارتفاع منخفض أطلقت صيحة علت فوق هديرها.. الله أكبر. تبخرت المخاوف واستردت العيون تصميمها، وجمدت المياه فى القناة تحت وقع أقدامنا. وبدا المشروع التدريبى الذى خضناه قبل شهر أصعب مما نفعله ونحن نعبر القناة.

وقتها كان متولى طفلاً. شاهد الحرب متأثراً بحماسة الكبار وشوقهم للنصر. يصطاد العصافير بنبلة يتخيل أنها مدفع مضاد للطائرات. يرى المدافع وهى تطلق نارها نحو الشرق، ولا يعرف العذاب الذى عاناه الجنود وهم يتدربون آلاف المرات لأداء حركة واحدة فى زمن محدد. الأرقام الزمنية القياسية كانت تتكسر كل يوم تحت وطأة الإصرار على التجويد. والخبراء الروس يتابعون تجاوز المعدلات العالمية فى الأداء، ويتكتمون إعجابهم. كيف أنسى "فرج"، القصير السمين حين يقوم بتركيب وصلات هوائى سرية الإشارة فى زمن قياسى؟ يدهشنا وهو يقوم بتركيب الوصلات بسهولة لا

تناسب وزنه.. يصل لأعلى الصارى فيهتز راقصاً من الفرحة، ويعلو صوته بموال لا نميز كلماته. لا ينزل إلا إذا صفقنا وهتفنا له استحساناً. الله يرحمه.. استشهد وهو يسرع بجهاز لاسلكى احتياطى لقائد اللواء، فاجأته دانة سقطت بالقرب منه. تفريغ الهواء الناتج من الانفجار حطم صدره.. زميله لم ير إلاَّ خيطاً رفيعاً من الدم يسيل من جانب فمه.

متولى لم ير سرايا المدفعية المضادة للطائرات وهى تتعامل مع الطائرات المهاجمة. أفراد السرية يعملون كخلية نحل. تتحرك فوهات المدافع وهى تطلق قذائفها.. فتفر الطائرات ويأتى سرب جديد على ارتفاع أعلى ليدك الموقع بالقنابل. نظن أن الموقع قد ذاب.. تهرب الطائرات وتهدأ الرمال وينقشع الدخان، فنرى السرية تنتفض... تُبعثُ من جديد. يعاود الجنود تنظيف "المواسير" وتعمير المدافع، وينتظرون الإبلاغ عن غارة جديدة.

صباح ثمانية أكتوبر أفقنا على خط مياه حلوة ينتصب قريباً من القناة، أخذتنا الدهشة، كيف؟ ومتى؟ ومن؟ وبالرغم من الغارات المتوالية التى ركزت على كل العلامات الظاهرة لقواتنا شرق القناة، لم يتمكنوا من تدمير خط المياه، وظلت سيارات الفنطاس طول النهار تَرِدُ الخط لتتزود بالمياه.. دون أن تتزاحم فتثير انتباه العدو.

فى هذا الصباح، مرت بالقرب منا سيارة التوجيه المعنوى المجهزة، أذاعت علينا أنباء انتصاراتنا على طول الجبهة، وكررت نداء قائد اللواء بصوته، فاشتعل حماسنا. لم ينس ضابط التوجيه المعنوى أن يشدد على الانتباه للهجمات المضادة المنتظرة، والحذر فى تأمين الوحدات الفرعية.

★★

تفتحت عينى على مصمصة الشفاه على الوجوه الآسفة، وكلمات التحسر المبتورة فى ألسنة الخلق. أرى أبى ساهماً يسوق الجاموسة ويتمتم بكلمات.

أحوم حول البيت باحثًا عن أحد أبناء الجيران لألاعبه وأشاكسه. أصيح وأصفر بفمي، فتنهرني أمي وتقول: لا تصفر يا ولد فتلم علينا الثعابين. لكنني أعاند وأمعن في الصفير. أمي تقول: يا ولد اهمد. فأتعجب: لماذا يريدونني هادئًا؟ وأنا أحب الجري في الغيطان، والتمرغ على الأرض. تقول: يا ولد لا تتمرغ كالحمير فتوسخ هدومك. تستهويني الفكرة فأنهق. تضحك أمي.. تشجعني ضحكتها فأبالغ في النهيق.. تضع يدها على فمها كأنها تعتذر عن الضحكة قائلة: "جاتك إيه يا واد". أسرع فأجلس على رجلها إن كانت قاعدة، أو أتعلق بساقها إن كانت واقفة، وأنا سعيد بضحكتها القصيرة. ذات يوم بالغت في الصفير ومضيت أترقص على حافة الترعة الضحلة، فرأيت ثعبانًا غليظًا يمرق من أمامي. وقفت مذهولاً وأنا أراه يختفي في شق قريب. عملتها على روحي، وتوقفت عن الصفير، وأسرعت إلى أمي باكيًا. ارتميت في حضنها أهذي وأشير إلى الخارج. هدأتني فحكيت لها.. قالت لي: حذرتك من الصفير بفمك.. لكنك لا تسمع الكلام. سكتتْ قليلاً ثم همست تكلم نفسها وهي تحضنني بقوة: الثعابين في كل مكان. تلفتت حولها في ذعر وتفلت في عبها وقالت: "سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم". ثم نظرت بحزن إلى الناحية الأخرى. لم أنتبه لأسألها عن الجانب البعيد الذي ينظر إليه الجميع. توقفت عن الصفير من يومها. أجري أحيانا وراء والدي وهو ذاهب إلى حقلنا المجاور. أراه يخلع جلبابه ويعلقه على غصن الشجرة القريب، ويربط الجاموسة في الشجرة، ويحش لها البرسيم ويلقيه أمامها. ثم يسير بحذر بين أعواد الغلة ينقيها من الحشائش. أسأله: كيف تميز الحشائش من بعضها؟ فيقول: صعب أشرح لك. عندما تكبر ستعرف. يسكت وينظر نحوي بجدية ويرفع إصبعه في وجهي قائلاً: ولكن بشرط. يتوقف لكي أنتبه لما يقول، ثم يهمس: بشرط تحب الأرض.. حب

الأرض تحبك وتعلمك. يسكت وينظر إلى بعيد.. فى ذلك الاتجاه الذى تنظر أمى نحوه ساهمة.. لترجع نظرته حائرة.

ذات صباح أتى شيخ معمم لزيارة أبى. دعاه للدخول ففضل الجلوس تحت التوتة. نادانى الشيخ بإشارة من يده فاقتربت. أجلسنى بجواره وسألنى عن اسمى. قال: ما شاء الله.. كبرت يا متولى. صلبت طولى فى فخر، فسألنى: أسمعنى الفاتحة. فأسمعتُها له فى نَفَس واحد. قال مندهشاً: حيلك حيلك. اقرأها واحدة واحدة. تلخبطت لأننى تعودت أن أقولها فى نَفَس واحد حتى لا أغلط. سألنى إن كنت أحفظ سوراً أخرى من القرآن فقلت بفخر: قل هو الله أحد. فربت كتفى وقال: عال.. عال. أتت رئيفة بالشاى فشكرها ثم سألها إن كانت ما تزال تحفظ جزء "عَمَّ" أم أنها نسيته. قالت: أحفظه صم يا سيدنا الشيخ. فدعا لها. سكت لحظة ثم سألنى إن كنت أحب أن أحفظ جزء "عمَّ" مثل رئيفة. أخذتنى الحمية والرغبة فى المنافسة وقلت: طبعا. وهكذا وقعت فى خيَّة الشيخ الذى واظب على زيارة أبى يومياً فى الصباح. يتربع على الحصيرة تحت التوتة ثم يقرأ الراتب، ويبدأ فى تحفيظى القرآن. قبل تلك الزيارة كنت أراه أحياناً. وعرفت بعد أن زالت رهبته من قلبى أنه يأتى يومياً.. فيأخذ مكانه تحت التوتة ليقرأ الراتب وينصرف دون أن ينتظر أن يقابله أحد. الرغبة فى منافسة رئيفة جعلتنى أصبر على صعوبة الحفظ، وحرمانى من اللعب فى البراح. بعد عدة شهور جاءنى بلوح أسمر وطباشير وقال لى باشاً: تعال يا متولى أعلمك الكتابة.

★★★

لما عرفت أنهم نقلوك للجبهة قربت أموت من الخوف عليك. العجيب أن أحوالك تحسنت وأنت على شط القناة. انتظمت إجازاتك، وبدأت تكلمنا عن المعيشة مع العساكر والضباط. وقلتَ أنكم تعيشون مع بعض أكثر من

عيشكم مع أهلكم. وتعرفون أحوال بعضكم وأسماء الإخوة والأولاد، وأمراض الآباء. ووصل الأمر أن أحد الجنود تزوج من شقيقة الصول فى الوحدة. ثم تكرر الأمر مع جنود آخرين. باختصار أصبحتم أهلاً. وأصبحنا نعرف أسماء أصدقائك فى الوحدة وأسماء قادتك من الضباط. ربنا يحميكم يا ابنى ويحوش عنكم الرَّدى.

أصبح الراديو صاحبى.. أسمع البلاغات العسكرية، وأحصى قتلى العدو، وينط قلبى عند ذكر الشهداء، ولا أهدأ إلا عندما أراك أمامى، فأضمك إلى صدرى المتعب، وأغفو فى طمأنينة.

★

تسللت من القرية ذات صباح لأتطوع فى الجيش.. هربًا من نظرات زوج أمى المسمومة، وانكسار أمى أمامه. تأكدت أن وجودى فى البيت سيفسد حياتهما.. فانسحبت فى هدوء. لم أعد إلى البيت إلاَّ بعد أن لبست البدلة الميرى. سنوات قليلة عشتها فى الجهادية جعلتنى أكبر عشرات السنين. هزيمة سبعة وستين أذلتنى وكسرت نفسى. فى معسكرات القاهرة كنا نتسمع أحاديث العائدين من سيناء.. فنشم رائحة شواء جثث جنودنا الذين راحوا فى غمضة عين تحت وطأة التوهان والعطش فى شمس يونيو الحارقة، ونسمع صوت تهشم عظامهم تحت جنازير الدبابات، ونكاد نرى أشلاءهم تتطاير تحت قصف رشاشات الطائرات التى تمرح فوقهم.

بعد إعادة تشكيل الوحدات طلبت النقل إلى الجبهة.. فقابلوا طلبى بالدهشة. لكنهم نقلونى بعد أيام قليلة إلى الفرقة التى تتمركز فى جنوب الإسماعيلية. سرية الاستطلاع التى ألحقت عليها كانت تعسكر فى الجناين قريبًا من سرابيوم.

التعليمات الصارمة بعدم التعامل مع المدنيين لم تمنعنى من الاهتداء

لقمرى الصغير.. رئيفة. لا أدرى ماذا أصابنى لمَّا رأيتها. تسمرت فى مكانى.. خفضت بصرها حياء فانطبع وجهها فى قلبى، وصرت أرى وجهها القمرى يصاحبنى فى صحوى ومنامى، وفى سيرى وتدريباتى. تبادلنا كلمات قليلة.. لكنها ربطت بيننا برباط حريرى متين. لم نتبادل كلمات الحب.. لكننا تبادلنا نظرات الشوق والوله، وتعاهدنا دون كلمات أن تكون لى، وأن أكون لها.

فى سرابيوم شعرت أن رئيفة تملأ روحى بالقوة والحيوية والحماس. قالت لى ذات مرة: خلِّى بالك من نفسك. فشعرت أننى أطير فى سماء عالية، وأن كل شىء ملك يمينى.

آه... لا أستطيع أن أنسى رئيفة، وما حدث فى سرابيوم.

★★

لا أعرف متى انتبهت للعساكر. ابتعدت يومًا عن البيت فرأيت على مد الشوف عربة صغيرة تسير ببطء.. وتتحرك خلفها ثلاث كُتل غريبة المنظر تزمجر كأنها غاضبة. بعد لحظات توقف الركب وساد الصمت. نزل من السيارة الصغيرة شاب صغير السن، أشار بيده دون صوت فانفتحت الأشياء ونزل منها عدد كبير من الرجال وقفوا أمامه.. كلمهم وهو يشير بيديه، لم أسمع كلامه ولم أجرؤ على الاقتراب.. لأن رئيفة حذرتنى قائلة: لا تبعد عن البيت.. ولو بعدت سأبلغ أباك. أخذتنى الرهبة وعدت إلى البيت. وجدت رئيفة تطعم الكتاكيت فشددتها من يدها وحكيت لها.. فهزت كتفيها بغير اهتمام وقالت: خلِّيك فى حالك. لم أصبر فذهبت إلى أمى وأبلغتها الخبر فلم تتعجب.. هزت رأسها وقالت: ربنا ينصرهم. وسرحت بنظرها بعيدًا.

ثانى يوم تعمدت أن أبتعد قليلاً وأجول ببصرى باحثًا عن هؤلاء الذين

دعت لهم أمى بالنصر. قلت فى نفسى: ما دامت أمى راضية عنهم فهم طيبون. نظرت فى الاتجاه الذى رأيتهم فيه فلم ألحظ شيئًا. حاولت أن أستدرج أمى فى الحديث عنهم فكانت تقول باختصار: سيبهم فى حالهم.. أيامهم صعبة.

عرفت أنهم دخلوا جناين المانجو ونصبوا خيامهم فيها، وأن الكلام معهم ممنوع. حذرنى أبى من دخول الجناين.. لكى لا يمسكوا بى ويضعونى فى السجن. ذات مساء قال أبى إنه ذاهب إلى سيادة العقيد الذى استدعى الرجال ليتحدث معهم. سألته عن سيادة العقيد فقال: إنه قائد جميع العساكر فى المنطقة. لم أفهم.. كيف يمنعنى من الذهاب إلى الجنود، ثم يذهب برجليه إلى كبيرهم؟

عاد أبى من عند سيادة العقيد وعيناه تلمعان.. أخذت أتمسح فيه لأعرف ماذا حدث، وماذا قال الرجل لهم؟ فساقنى إلى المصطبة التى أنام عليها وغطانى بالحِرام.. فرُحت فى النوم وأنا أحاول أن أتخيل شكل سيادة العقيد وملابسه، وماذا يفعل فى الجناين مع عساكره.

صحوت مبكرًا وأنا مشغول بالحكاية. لم أجد أبى. أهملت رئيفة التى كانت تزغط ذكرًا من البط، وأخذت أدور حول أمى. راقبتها وهى تسقى الكتاكيت وتحمل العشب للعنزة، وتتمتم بأدعيتها وهى تحضر الدقيق للعجين، وتكنس وسط الدار. صبرت على كل ذلك وأنا لا أتوقف عن السؤال. أخيرًا جلست منهكة، وجذبتنى من يدى، وحكت لى.. ميزت فى حديثها كلمات جديدة.. كالحرب والسلاح والأعداء والاستعداد. انتهت من حديثها فدق قلبى بشدة.. أخذتنى فى صدرها وضمتنى بقوة.. فشعرت بجسدها يهتز كأنها ترتعش، وسمعتها تدعو لى هامسة: ربنا يحميك ويخلِّيك لى يا ضنايا.

رئيفة.. راعيتى.. تبحث عنى إذا ابتعدت، وتعيدنى وهى تقرصنى فى ذراعى فأبكى.. وتخلصنى من أولاد الجيران إذا تعاركنا. رأيت الجنود فانشغلت بهم.. وتعجبت لأن الجميع لا يهتمون بهم كما أهتم. بعد أيام جلست بجوار رئيفة على عتبة البيت قرب المساء.. رأيتها ساهمة فظننت أنها تفكر فيما أفكر فيه.. سألتها: نفسى أشوف العساكر فى الجناين. فعبست فى وجهى، وشدتنى من يدى وهى تنهض قائلة: تعال أعلمك نط الحبل.

أذهب مع رئيفة إلى حنفية المياه لتملأ البلاصى بالمياه الحلوة.. مرة فى الصباح ومرة أخرى قرب المساء. بعد وصول العساكر اشتد الزحام على الحنفية، وحدثت خناقات. فى إحدى الأمسيات قال أبى: إن سيادة العقيد منع الجنود من الذهاب للحنفية نهائيًا.. وأصدر أمرًا بمحاكمة أى جندى يضبط عند الحنفية.. كما منع الأهالى من الاقتراب من الحنفية بعد أذان المغرب إلى شروق الشمس.. وأنه رأى فناطيس المياه الكبيرة تأتى بالماء يوميًا إلى مطبخ الجنود. أدركتُ أن سيادة العقيد هو الكبير فى الناحية.. أكبر من العمدة.. وأنه يصدر الأمر والكل يسمع وينفذ. ظل أبى قلقًا لعدة أيام، ثم فاجأنا بأن جاء ومعه رجلان يحملان أدوات حفر، ظلا يعملان عدة أيام فى موضع قريب من البيت. يأتيان فى الصباح ويغادران بعد صلاة العصر.. لا يتركهما أبى إلا بعد أن يجلسا معه تحت التوتة لتناول الطعام. فوجئت فى النهاية بطلمبة مطلية باللون الأحمر لها يد طويلة.. نحركها فتأتى بماء نظيف. بدا الارتياح على وجه أبى عندما رأى الماء النظيف ينزل، وتنهَّد قائلا وهو يزيح طاقيته إلى الوراء: بلا حنفية بلا وجع دماغ.

تركيب الطلمبة أراح أبى وأمى. واستراحت رئيفة من المشوار الطويل إلى الحنفية، فرحتُ بالطلمبة لكنى شعرت بالغيظ.. لأنى افتقدت متعة مراقبة العساكر عن قرب أثناء ملء الماء من الحنفية. كنت أتسمع أحاديثهم وألتقط

كلماتهم الغريبة وأقلدهم. عدت مع رئيفة من الحنفية ذات صباح فقلت لأمى: صباح الخير يا وحش. فنظرت نحوى مندهشة. التفتُّ إلى رئيفة وهويت بكفى على ذراعها قائلا: أهلا يا دفعة. فقالت: أنت جحش. قلت لها: سأحاكمك محاكمة عسكرية. وعندما قرصنى الجوع قلت وأنا أشوح بيدى: هاتوا الجراية. وبعد انتهائى من الأكل هززت رأسى متسائلًا عن الترفيه.

اعتدت الذهاب إلى الحنفية لمراقبة العساكر من بعيد، وبعد أن منعهم القائد.. ذهبت وتحدثت بحذر مع الجنود المعينين لحراستها. ثم تجرأت واقتربت من خيامهم. كانوا يروننى ويتجاهلون وجودى. راقبتهم وهم يتدربون ويطلقون الصيحات القوية التى تجعل جسدى يرتعش. تعلمت حركاتهم. أعود فأقلدهم.. أجمع أصحابى وأقودهم فى طابور وأصيح فيهم: هب..هب. وأهددهم بالمحاكمة.. فيتصنعون الجدية قليلا، ويضحكون وأنا أطاردهم ببندقية صنعتها من عود ذرة.. فيتفرقون فى خوف مصنوع.

بهرنى مظهرهم الموحد.. فظننتهم متشابهين.. حتى ميزت الفوارق بينهم. أدمنت التسلل لأراقب طابورهم الصباحى، وتعجبت كيف يصحون مبكرًا بمثل هذا النشاط؟ يدقون الأرض بقوة.. فيطلب القائد منهم أن يدقوا الأرض بقوة أكبر ليطلع الماء من تحت أقدامهم. ثم يشير إليهم فيصطفون متساوين. أفكر.. لو أن قائدَهم بنَّاءٌ محترف لما رصَّهم على هذا النحو. عيونهم أرعشتنى بلمعتها المعجونة بالهمَّة. ذقونهم ناعمة، وشعرهم قصير. ملابسهم ذات اللون البيج مضبوطة على أجسامهم، والأزرار مقفلة، وأحذيتهم ذات الرقبة تبدو لامعة وجاهزة للانطلاق. بعد عدة أسابيع انتشرت مجموعة جديدة من الجنود فى الناحية الأخرى من الجنين، أطوالهم فارعة وأصواتهم عالية، لا يفعلون شيئًا إلاَّ ويتبعونه بصيحة مدوية، يرتدون ملابس خضراء مبرقشة، فإذا دخلوا الجنين لا أستطيع تمييزهم بين الأشجار الخضراء. بعد طول مراقبة تمكنت من تمييزهم.

ذات صباح فوجئت بالدنيا تهتز، الزير والفرن وصينية القلل، ثم سمعت صوت انفجار. رأيت فروع الشجرة التى تقف قرب مدخل البيت تميل بشدة. انكمشت مكانى ونظرت إلى أمى فرأيتها تتمتم فى خوف، هممت بالخروج فنهرتنى ونادت على رئيفة التى كانت تكنس أمام الباب: ادخلى يا بنتى. الخوف جعلنى ألبد فى حضن أمى، ورئيفة جاءت فى صمت وجلست بجوارنا. توالت أصوات الانفجارات.. قريبة وبعيدة.. مكتومة ومدوية. أمى ورئيفة يهمسان فى سرهما بما لا أسمعه. صحوت فوجدت نفسى على المصطبة فعرفت أننى تهت فى النوم، وأن أمى نقلتنى إلى فرشتى. تذكرت الانفجارات فمضيت أسأل أمى ورئيفة وهما لا تلتفتان إلىّ، ولا تردان على أسئلتى. قمت أتمشى فى مدخل البيت.. ترددت فى الخروج.. فسمعت من ينادى أبى.. وقفت على عتبة البيت فرأيت جنديًا يسأل عنه.. ردت عليه رئيفة: الحاج فى الغيط. فقال لها: سيادة العقيد عامل اجتماع بعد العشاء.. قولى له لا يتأخر. انصرف الجندى فانشغلت بمطاردة قطة.. ونسيت الانفجارات.

تعودت على الأصوات العنيفة والاهتزازات. عرفت أنهم يقفون على أرضنا ويضربوننا، وأننا بدأنا نضربهم.. وسوف نطردهم قريبًا. سألت أمى عن سبب الضرب والعراك فسألتنى: ترضى غريبًا يقعد بالعافية فى بيتنا ويطردنا؟ صحت وأنا أشير بيدى: أقطّعه. قالت: عساكرنا يقطعونهم بإذن الله. سكتت قليلا ثم قالت: ربنا على الظالم. وفرت من عينها دمعة فبكيت.

ترقبت زيارة أبى لسيادة العقيد.. جاهدت لأبقى صاحيًا حتى يرجع، لكن النوم غلبنى. كنت أحلم طوال الليل بالضرب وأصوات القنابل. صحوت فوجدت نفسى مبلولا.. أمى نظرت لى نظرة لائمة وقالت مؤنبة: كبرت على البلل يا متولى. تذكرت أننى قلت لها: نفسى أكبر وانضم للعسكر فى

الجناين. فخجلت من نفسى. لكنها مسحت بكفها على رأسى وهمست بحزن: ربنا يحميك يا ابنى.

أفقنا ذات صباح على الطائرات تطير فوقنا وتطلق قنابلها على البيوت والغيطان. ثم ابتعدت بينما أصوات الانفجارات ترعبنا. بعد لحظات سمعنا الصراخ يتصاعد من كل اتجاه.. كانت المرة الأولى التى تضربنا فيها الطائرات. أدركت أن الحكاية جد وليست تهويشًا. ارتعبت أمى على أبى الذى يحش البرسيم للجاموسة فى الغيط، وظلت تتمتم بأدعيتها المهموسة بينما رئيفة تجلس منكمشة بالقرب من باب البيت. فى هذه الغارة ماتت امرأة عمى فعمَّ الحزنُ بيتنا. اكتشفت أن بيوتًا أخرى طالها الموت، وأن كثيرين جرحوا. عاد أبى فى المساء حزينًا يبدو عليه التعب. قال إن الأطباء والجنود المسعفين أسرعوا لنجدة المصابين، فنقلوا الجرحى إلى العيادة الطبية للعلاج، ودفنوا الشهداء دون أن يغسلوهم. فى ذلك اليوم سمعت كلمة الشهيد للمرة الأولى. أبى قال لنا: الشهيد حى.. لا نراه.. لأنه يصعد إلى جوار الله.. ويجب ألا نبكى عليه. يسكت قليلاً.. ثم يتنهد وهو يقول: ربنا يكتبها لنا. أمى تدارى دموعها عن أبى، ولا تكف عن البكاء إذا خرج. أطلب منها ألاَّ تبكى فتقول فى حزن: غصب عنِّى يا ابنى. أحببت الجنود الذين نقلوا الجرحى وعالجوهم ودفنوا الشهداء.. وعرفت أنهم أهلنا الذين يدافعون عنا.

غاب والدى نصف يوم.. ثم عاد يحمل راديو يعمل بحجارة صغيرة. سألته أمى عن المكان الذى اشتراه منه فقال لها: اشتريته من تاجر فى نفيشة. فرحنا بالراديو وأخذنا نستمع إلى البيانات العسكرية وما تذيعه عن الغارات التى يقوم بها رجالنا فى البر الثانى وخسائر العدو. يعود أبى من الغيط فيدنى منه الراديو ويفتحه ليسمع قرآن الثامنة مساء. بعد القرآن

مباشرة تأتى نشرة الأخبار.. فيزيح أبى طاقيته إلى الوراء وينصت باهتمام وهو يقول: لنعرف رأسنا من رجلنا.. ونشوف الدنيا.

فاجأتنا الغارات.. فارتبكت الحياة فى البيت والغيط والقرية كلها. سمعت كلمات جديدة مثل الدانات والقناصة والصاعقة والمدفعية والدفاع الجوى والصواريخ.. وصارت من مفرداتنا اليومية.. مثل مشنَّة العيش والجاموسة والبرسيم والطلمبة. وتكرر استدعاء سيادة العقيد لأبى ورجال القرية. أبى يرجع صامتًا وساهمًا أحيانًا. وفى أحيان أخرى يحكى بفخر عما يفعله جنودنا من بطولات فى الناحية الأخرى من القناة. بعد مدة قصيرة تعودنا على الغارات وأصوات المدافع والطائرات والشظايا، وبدأنا نتقبل مشاهد سقوط الجرحى وبعض الشهداء.

فى أحد الصباحات الدافئة خلع أبى جلبابه وأخذ الفأس والكُرِيْك وخرج. خرجت وراءه فرأيته يقيس الأرض بخطوته. ثم اختار مكانًا قريبًا وتفل فى يده وأمسك بالفأس وأخذ يحفر. أردت مساعدته فقال لى: هات الكريك. أعطانى الفأس وأخذ الكريك وبدأ يُعمِّق الحفرة التى بدأت تظهر، وطلب أن أزيح التراب الخارج من الحفرة بالفأس.. لكنى وجدت الفأس ثقيلة فى يدى فأخذت أبعثر التراب بقدمى فصرخ بى لأتوقف.. فجلست أراقب العرق الذى بدأ يسيل على جبهته. بعد لحظات نادى على رئيفة لتساعده. قبل أذان الظهر انتهى من تجهيز حفره بطول رجل. جلسنا نأكل فشرح لنا أن الحفرة التى صنعها هى التى تحمى الجنود من القنابل، وأن سيادة العقيد أمر أن يصنع كل رجل حُفرًا حول البيت بعدد أفراد أسرته.. حتى إذا حدثت الغارة نزل كل واحد فى حفرته ليحتمى بها إلى أن يزول الخطر. فى اليوم الرابع كان أبى قد انتهى من صناعة أربع حفر وصفها بأنها برميلية. قالت أمى لأبى: لو نزل متولى فى واحدة منها فلن يستطيع

الخروج. فأشار إلى رأسه وقال: عملت حسابى.. حفرة متولى على قده.. ثم قام وأرانى حفرتى وطلب أن أنزل فيها، فاطمأن على مناسبتها لطولى.

★★★

نصيبى من الفرح قليل يا دسوقى يا ابنى. أبوك كان رجلا بحق. لا ينطق بالعيب أبدًا. عاش معى اثنى عشر عامًا فقط.. عاملنى فيها بما يرضى الله.. ثم اختاره الله فى ليلة باردة وهو يسقى الزرع. لم يترك لنا شيئًا سوى قراريط الأرض القليلة التى كان يزرعها ويحافظ عليها مثل عينيه. الرجل الذى تزوجنى بعد والدك كان فلاحًا عمليًا. يعرف كيف ينتزع من الأرض خيرها. كان يحب زوجته الأولى التى ماتت وهى تلد. صرح لى بذلك وهو لا يدرى أنه جرحنى بقسوة.. لكنى تصبرت. قلت لنفسى: إن الفاس وقعت فى الراس وليس قدامى إلاَّ التجاهل والصبر. ولدتُ أختك الكبرى فسعد أنى ولود، وانتظر الولد، لكنه لم يأت. ولدت بنتين. السرعة التى أنجبت بها البنات أخذته على سهوة. أفاق فإذا أنا أُمّ البنات وهو أبو البنات. انشغل بى وبالبنات، وسلم أمره لله. تحسنت معاملته لى رغم أنه كان يرغب فى الولد. البنات حنَّنَ قلبه، بعد أن ظننت أنه سيظل مُغلقًا من ناحيتى. أصبح عندنا ثلاث بنات فى ست سنوات. وصرنا سمنًا على عسل، وأصبح لا يرى فى الدنيا غيرى أنا والبنات. لكنه مات فجأة، ودون أن يشكو أو تصدر عنه شهقة، ولم يترك وصية. عاش معى ثمانية أعوام، مرت كأنها ثمانية أيام.

خالك محروس وقف بجوارى بعد وفاة أبو البنات. يوم المأتم جاءنى ورتب كل الأمور على أحسن ما يكون. خفت ألا تتمكن من الحضور. لكنك بيضت وجهى كما عودتنى.. ورأيتك عند المقبرة ساعة الدفن. حمدت الله أنك لحقت الواجب.. فبردت نارى قليلاً. بعد لحظة فكرت أنك ستتركنا لتعود إلى

وحدتك فسحَّت دموعى. بعد أيام المأتم رجعتَ إلى حياة الجندية التى تحبها، وعاد خالك إلى دسوق مع امرأته. فانزويت أبكى مع بناتى. لكن البنت البكرية مسحت دموعها وقامت لتراعى شئون البيت، فقمنا فى سكات نعيد ترتيب ما بعثرته الأحزان.

موت «أبو البنات» أرعبنى. وعرفت أنك سندى الباقى لى فى الدنيا. من قبل كنت أستند عليه وعليك. صرتَ سندى الوحيد. أنت فى قلبى، لكنك بعيد. ننتظر إجازاتك بلهفة العطشان لترويا بحنانك، وتظللنا بحضورك. لا أعرف ما تخفيه لنا الأيام.

★

سيبونى فى حالى. أنتم لا تعرفون. تتعجبون أننى اشتريت القراريط وبيت الذكريات.. وانشغلت بالأرض والزراعة. لم أكن فلاحا فى يوم من الأيام.. لكننى أحببتُ الأرض بعد أن شاركت فى تحرير القنطرة.. حب عجيب.. لا يشبه حبى لرئيفة.. لكننى تمنيت أن يساعدنى على احتمال مصيبتى.

العيال طلعوا المصطبة ومعهم طياراتهم الورقية. كنت جالسًا على الحافة أتطلع إلى الشرق البعيد. الدموع تملأ عينى.. وتبلل قلبىَ المحزون. تجاهلتهم فتشجعوا على الجرى واللعب، وأخذوا يضبطون الخيط الذى يربطهم بالطائرة وهم يتصايحون. كتمت غيظى من شقاوتهم، وقلت فى نفسى: إنهم أطفال على أية حال، وفكرت أن أجمعهم وأحدثهم عن الطائرات الحقيقية، وما فعلَتْه فى الحرب. أجلستهم بجانبى، وبقى صاحب الطيارة واقفًا ممسكًا بالخيط.. قالوا لى: حرب إيه يا عم دسوقى! الدنيا ماشية، والجناين آخر جمال، والقناة سالكة، والمراكب شغَّالة.. حرب إيه وطيارات إيه؟ صدوا نفسى عن الكلام.. فامتزج حزنى بغضب.. لكننى تصبرت.

أشفقوا علىَّ لمَّا رأوا فى عينى خيبة الأمل. تسحَّبوا وجلسوا على الحافة المنخفضة للمصطبة وتابعوا طياراتهم فى صمت. سموها مصطبة دسوقى وهم لا يعرفون شيئا عنى. ربما يعتبروننى خفيف العقل.. وقد يظنون أن الحرب لسعت دماغى.. مثلما ظن بعض زملائى حين سعيت إلى التقاعد.

لم أحتمل البقاء فى الخدمة بعد الخمول الذى هدَّنى. لم أتعود على النوم والصحيان لأفعل أشياء بلا هدف. لا أنكر أن المعسكرات مشدودة دائمًا، وعجلة العمل الطاحنة تطارد الجميع وتجبرهم على الانتباه والإجادة.. لكننى فقدتُ شيئًا غاليًا.. لا أعرف ما هو؟ ربما الاستنفار المستمر الذى كان يعطينى رغبة فى العمل بقوة ثور.

لم أفهم إسراع السادات لعقد المعاهدة. الحرب أثبتت أننا أقوياء، ونستطيع أن نواجه ونهاجم وننتصر. لم يعد النصر مستحيلاً كما ادَّعوا. لا يمكن أن يصيروا أصدقاء. ما زلت أرى دم الشهداء فى الحلم.. يسيل على مداخل الدشم الحصينة وممراتها وعلى رمل سيناء. وأجساد الشهداء تتخبط فى دمها. الأرض لا تأكل أجساد الشهداء، ولا الأيام. فى كل بيت شهيد أو مصاب. كيف آخذ حق أهلى وجيرانى وحبايبى.. ورئيفة؟ آه يا رئيفة! آه بطول الأيام التى تمر بدونك آه! أعرف أن الحرب لا تدوم للأبد.. لكنها يجب أن تنتهى كما نحب.. وبعد أن نشفى غليلنا منهم. قائد الفرقة قال لنا فى معسكر عز الدين: إن التاريخ سجَّل كثيرًا من معاهدات السلام بعد حروب فظيعة دامت سنين طويلة، وسجَّل مئات من المعاهدات المنقوضة. السلام له ثمن، يجب أن ندفعه كما دفعنا ثمن الحرب غاليًا. النظام العسكرى يمنعنى أن أناقش قائد الفرقة.. فبكيت وداريت دموعى عن الجالسين بجوارى. فوجئت به يقول: السلام يساعدنا على بناء الدولة، وتوفير الأكل للناس. الكلمة خبطت رأسى.. بطحتها فتورمت. سلام؟ سلام

لمن؟ ومع من؟ ولم؟ وكيف يكون؟ خفت أن أقول له بعلو صوتى: ملعون أبو لقمة العيش المغموسة بالذل. من يومها وضغطى فى النازل. الأطباء قالوا: جسمك سليم.. هى حالة نفسية. ما أراه هو عين العقل.. دماغى سليم وفى مكانه صح. ما لزومنا بعد المعاهدة؟ نؤدى الحركات المعتادة.. استعداداً للدفاع عن الوطن. بعد أن وافقوا على إحالتى للمعاش... بقيت قريبا من المكان الذى أحببته، وذبت فى ناسه وأشجاره وقنواته وملاجئه وترابه، وتعرفت على رئيفة فيه، وتعاهدنا على الوصال والوفاء، وشهد القمر على عهدنا.

أحببت أمى وأبلة زاهية وأخواتى البنات ورئيفة وكل الناس. حبى لأمى دفعنى للتطوع فى الجيش. القسوة التى كابدتها فى أول عهدى بالجهادية أصابتنى بالتوحش.. لكنها هذبتنى وأفاقتنى عندما كدت أقتل الجندى الصعيدى المستجد فى نوبة من نوبات الغشم.

هزيمة يونيو المُذلَّة أصابتنى بالغم، وكسرت نفسى، وأشعلت داخلى الرغبة فى الثأر. نسمع حكايات العائدين من صحراء القتل والعطش، ونرى فى معسكرات التجميع جنوداً زاغت أبصارهم وتهدلت ملامحهم وفقدوا ملابسهم وأحذيتهم وكرامتهم. أخذت الصورة تكتمل يوماً بعد يوم، وشعلة الثأر تكبر وتتوهج. سُدَّت السبل إلا طريق الثأر. هكذا انضبطت خطوتى مع خطوات الآخرين. قبل التطوع لم أعرف معنى الوطن. عالمى كان محدوداً بالبيت والغيط والمدرسة. فى الجيش رددت: الله.. الوطن. فأدركت التلازم بين الإيمان بالله وحب الوطن. وسألت نفسى: كيف أنقل إحساسى هذا لكل من يعيشون فى بلادنا؟

فى سرابيوم عشت الحياة الحقيقية. ننام ونقوم ونتدرب ونتنافس على العبور إلى الشرق لنعود بأسرى العدو، ونضحك على لهجاتنا المختلفة،

ونبكى لإصابة أحدنا أو استشهاده.. حياة كاملة. نعيش فى الوحدة أكثر مما نعيش مع أهلنا الذين ولدنا ونشأنا بينهم. ألفنا معايشة الخطر، واعتدنا سماع أصوات دانات المدفعية وانفجار قنابل الطائرات حولنا. نغنى ونرقص احتفالا بزواج أحدنا. نصنع طعامًا مختلفًا عن طعام الميرى شوقًا إلى دفء الأسرة ومحبة الأهل، ونتناوله بشهية مفتوحة. نتبادل الأخبار ونسأل عن أحوال الأهل والأطفال الذين يكبرون بعيدًا عنا.. ومرض الآباء وصعوبة المعايش!

صممت أن أتزوج رئيفة. ضابط الأمن بالوحدة قال لى: إذا كان التعامل مع المدنيين حولنا ممنوعا.. فكيف يكون الزواج؟ ونصحنى بنسيان الأمر. الوحدة كلها عرفت حبى لها. احتلنا على الأوامر. عقدنا القران فى القُرين حيث يعيش أخوال رئيفة. وأخذتها إلى بلدتنا، وعملنا فرحًا كبيرًا. تأخر الحمل كثيرا. بعد أن تأكد الحمل جاءت التعليمات بالانتقال إلى موقع قريب من القنطرة. انشغلت بالتعرف على المكان الجديد والانغماس فى مشروعات التدريب. شعرت بالفرق الكبير بين الجنين التى كنا نعسكر بداخلها، والسبخة التى أقمنا ملاجئنا فيها قرب القنطرة. افتقدت ألفة المكان التى وحدتنى بسرابيوم وأهلها وزروعها وقنواتها ومواشيها ولياليها المقمرة. أصبحت متلهفًا على الإجازة لأنعم برئيفة، وأطمئن على أمى.

يكذب من يدَّعى أنه عرف موعد الحرب. لكنى كنت أشعر شعورا خفيا بأن الأمر اقترب كثيرًا. قبل الحرب بشهر نفذنا مشروعًا تدريبيًا للعبور على ترعة الإسماعيلية قرب أبو صوير، وعبرنا الترعة بالمركبات البرمائية. وقبلها بعشرة أيام أخذنا قائد السرية، على دفعات، لنصعد إلى أعلى نقطة فى المصطبة القريبة المطلة على شاطئ القناة. أمرنا أن نصعد فى خفة، ولا نتحدث نهائيًا، وأن ننظر فقط إلى القوس الذى يمتد من اليمين إلى الشمال

بطول كيلومتر، ونراقب الهيئات الأرضية والمواقع الحصينة للعدو، وأن نلتقط لها صوراً فى أدمغتنا. بعد تمام المعاينة أمرنا بالاصطفاف ثم قال جملة واحدة: هذه هى الأرض التى سنبدأ منها حرب التحرير.. انصراف. انصرفنا فى صمت. كان صدرى يفور بانفعالات ملتهبة.

كنتُ رقيب السرية.. أحد ضباط الوحدة ترقى إلى رتبة النقيب وتولى قيادة السرية. أثناء التدريب يتحول إلى كتلة من الصرامة والجدية. بعد طابور المساء يصبح ودوداً يشاركنا بعض المرح. يُستدعى أحياناً لحضور اجتماعات مسائية فى قيادة الكتيبة، وقد ينفرد بنفسه فى ملجئه.. فنعرف أنه يحضِّر لمشروع، أو يراجع بعض الخرائط. إذا استدعى إلى قيادة اللواء.. يطلب أن نختار اثنين من الزملاء ليسهل لهم اتصالاً هاتفياً بذويهم.

بعد نجاح المشروع التدريبى الذى نفذناه على ترعة الإسماعيلية، كثرت الاجتماعات الليلية فى الكتيبة وقيادة اللواء، ولاحظنا أن قائد السرية لم يعد يهتم بدعوة أحد منا ليتصل بأهله.

فى أول أكتوبر تم توزيع سترات مقاومة للنابالم على المقاتلين. وفى المساء صدر الأمر بالاستعداد باكراً للتفتيش على المهمات والأسلحة والذخيرة وطعام القتال.. فتحولت السرية إلى خلية تموج بالحركة والزن انتظاراً للتفتيش.

بعد انتهاء التفتيش أمرنا قائد السرية أن نستعد لمشروع تكتيكى خلال يومين فأحسست بالضجر. قلت لنفسى: زهقنا من المشاريع.. حفظناها وملنا منها. نريد شيئًا جديداً. يوم الخميس جمعنا قائد السرية وأمرنا أن نروح عن أنفسنا، وأن نعتبر مساء الخميس ونهار الجمعة شئونًا إدارية ننام فيه على راحتنا. أدهشنى الأمر.. لكننى نظمت على الفور حفلًا ترفيهياً.. أعددنا بطاطس محمرة، وفتحنا علب سلمون، وصنعنا مهلبية وصفها فرج

بأنها تكفى لهزيمة أى جيش فى العالم. أكلنا كأننا فى فرح، وبدأنا الرقص والغناء. استخدمنا الملاعق وأوانى الطعام المعدنية لضبط الإيقاع، وأخرج مغاورى سمسميته المخبأة وغنَّى لحنا شجيا. ورقص جابر الإسكندرانى، وغنينا: "على بلد المحبوب وديني".. ثم أخذنا الحماس فأنشدنا: "يا بيوت السويس". الأسطى سيد المنجِّد أثار شجوننا لمَّا انزوى يبكى بحرقة. أدركنا أن شوقه لأطفاله غلبه فأخذنا نخفف عنه. ولم يهدأ إلا عندما قام جابر وأخذه من يده وغنَّى من وحى اللحظة: "النبى تبسَّم". فأفاق الأسطى سيد وابتسم.

بعد صلاة الجمعة استدعانى قائد السرية وقال إن قيادة اللواء أرسلت سيارة محملة بالقصب ترفيهًا للجنود. دهشت.. لكنى لم أعلق. قائد السرية تمنى أن يعرف العبقرى الذى فكر فى هذا الترفيه العجيب. القصب أثار موجة من الضحك.. أخذنا نجرى وراء بعض بأعواد القصب، واشترك معنا قائد السرية فى المرح.. ثم أخذنى من يدى نحو الشاطىء وجلس يمصُّ وهو يتأمل مياه القناة. الجنود جاءوا ليجلسوا بجوارنا ويتبادلوا الحركات المرحة والضحكات. ولم نسلم من مبالغات فرج الذى أحضر كرتين وأخذ يحثنا على اللعب.. سألناه: كيف نلعب بكرتين فى نفس الوقت فأجابنا بأننا سنقذف إحداهما للجانب الآخر ليلعبوا معنا عبر القناة. بعد دقيقة واحدة فقدنا الكرتين حيث وقعتا فى القناة.

صباح السبت بدا مشرقًا ككل صباح.. غير أن قائد السرية استدعانى وأمرنى بالانتباه لأنه سيذهب إلى اجتماع مفاجئ فى قيادة الكتيبة.

فى الثانية عشرة والربع عاد القائد، وأمر بجمع السرية فورًا. أعطيته التمام.. فنظر إلى وجوهنا.. والتصميم والصرامة يلونان وجهه. قال: اليوم يومكم.. أسمعونى صوتكم.. هل أنتم جاهزون؟ فنطقنا معا: جاهزون يا

أفندم. قال بصوت محمل بآلاف المعانى والأحاسيس: بعد ساعة ونصف ستبدأ العمليات، الطيران سيبدأ، وتليه المدفعية. خذوا مواقعكم، واستعدوا لعبور القناة.

★★

ياه يا دسوقى! لقد عبرتَ وحررت القنطرة مع زملائك، ورفعتم العلم فوقها، وقتلت كثيراً من الأعداء، وعشتَ فرحة النصر وزهو الانتصار. تركتنا فى سرابيوم ونحن نحتاجك.. وكنت متعلقًا بك. أبلغتنا أنك لن تستطيع أن تزورنا إلا فى الإجازة الدورية.. والتى تستحقها كل خمسة وعشرين يومًا. أطل الفزع من عيني رئيفة وكادت تنهار. عشنا الحرب.. ولم نعرف كيف نحارب.. لم يكن معنا سلاح. حاربت مع أصحابى الصغار بالصفافير وأعواد الذرة الجافة والصيحات التى نقلد بها الجنود: ها.. ها.. ها.

وجدت نفسى محبوسًا فى البيت لا أستطيع الخروج، وأبى لا يخرج إلا متسللا ليملأ البلاصى من الطلمبة، أو يحش الحشائش لتأكل الجاموسة والحمار. الغم ركب أبى وأمى؟ ورئيفة تبكى؟ افتقدتُك.. فمشيت وراء أمى فى البيت أسألها عنك، وأطلب أن تأتى لكى أراك، ولتكف رئيفة عن البكاء. تذكرتُ اليوم الذى تشاجرتَ فيه مع الجندى الذى عاكس رئيفة وكسرتَ ذراعه وكاد القائد أن يحاكمك. يومها شعرتُ بالزهو، وأحببتك أكثر، وأصبحتُ مطيعًا لك. لم ترد أمى على توسلاتى، وصاحت بى: اخرس. فتكومت فى ركن لتتساقط الدموع من عينى. أبكى بغير صوت حتى لا أثير أبى أو أغضب أمى. شغلت نفسى بأعواد الحطب والطين وشقف القلل المكسورة. أصنع أشكالاً لجنود ومدافع وطائرات، وأخترع ألعابًا داخل البيت مع الصغيرين منصور وخالد.. كانا يحبوان. لا يعرفان كيف يلعبان معى فأضربهما ثم أصالحهما حتى يضحكا.

توقف تدفق الجنود القادمين، واختفت السيارات التى كانت تروح وتجىء طول النهار والليل. ساد الصمت.. وأصبح الهواء ثقيلا.. فانشغلت بمراقبة القلق على وجه أبى عندما نسمع طلقات الرصاص.

صحونا فى الليل على صوت انفجارات قريبة. قمت فزعًا فوجدت أبى يفتح الباب ليرى ما يحدث. تبعته وأنا أدعك عينى. دسست نفسى تحت جناحه ونظرت فلم أر شيئا. الأصوات قريبة. أصوات مكتومة وأخرى صاخبة. همس أبى: رشاشات.. من يضرب من؟ اقتربت أمى وهى تسأل عما يحدث. ارتفع صوت رئيفة بالبكاء فأغلق أبى الباب جيدًا، وأخذنى من يدى نحو رئيفة التى كان جسمها يهتز. تجمعنا حولها، وأخذتها أمى فى حضنها لتهدئها. بعد لحظات استيقظ الطفلان يصرخان فانشغل بهما أبى الذى رأيته متوترًا.. وأمى مشغولة برئيفة وأدعيتها. يا رب.. هذا ما ميزته من تمتماتها الخافتة.. لكنى تهت فى النوم. فى الصباح لم يذهب والدى إلى الحقل، وظل جالسًا فى وسط الدار واضعًا يده على خده فى صمت. حاولت محادثته فلم يرد. رأيته ساهمًا وحزينًا. لمحتنى أمى وأنا أثقل عليه، فسحبتنى من يدى بعيدًا عنه.. وقالت: سيبه فى حاله. هممت بالخروج فمنعتنى. بكيت فصاح مهددًا بذبحى، فانكمشت خائفًا.

بدأنا نستوعب الحقيقة على جرعات. رأينا الدبابات حولنا. قال أبى: إنها تضرب المواقع التى تركها جنودنا قبل عبورهم القناة. فى المساء سمعنا صوت انفجار، وشاهدنا نارًا تضىء المنطقة. نظر أبى فى اتجاه النار وقال فى حزن: منهم لله ضربوا قاعدة الصواريخ. أخذ يضرب كفًا على كف وهو يهز رأسه أسفًا ويهمس: كيف جاءت إلى هنا؟

فى الصباح التالى سمعنا مكبرات الصوت تطالب الأهالى بالبقاء فى المنازل وعدم الخروج لأى سبب. اصفرَّ وجه أمى، واسودَّ وجه أبى، وأمعنت

رئيفة فى البكاء. قال أبى: ولاد الأبالسة يتكلمون بالعربى بلهجة مصرية، أين أولادنا؟

لم يتوقف أزيز الرصاص. يقترب الصوت ثم يبتعد. مكبرات الصوت لا تتوقف عن تهديد كل من يفكر فى الخروج من بيته. والدى يحاول معرفة ما يجرى فى الخارج. يفتح النوافذ الضيقة بحذر. ينظر من خلالها ثم يغلقها ثانية بغير صوت. اقترب من باب البيت ووارىه قليلاً. نظر فى الفراغ الممتد فلم ير شيئًا. فكرتُ لو أنا كبير مثل أبى لخرجت. كنت خائفًا لأنى صغير. لو كنت كبيرًا لما خفت من شىء. غاظنى أن أرى أبى خائفًا ولونه مخطوف.

فى المساء سمعنا انفجارًا كبيرًا فاشتعلت السماء كأنها فانوس كبير يضىء الدنيا. تسلل الضوء إلى البيت من النوافذ والمنور السماوى فى الحظيرة.. فغمر النور المكان كله. انتعشت وتهيأت للعب.. فداهمتنى أصوات متداخلة أخافتنى. اقتربت الأصوات حتى ظننت أن البيت سيقع على رؤوسنا. جمعنا أبى فى حجرة رئيفة وأخذنا فى حضنه محاولاً أن يهدئنا، ويقنع رئيفة وأمى بالكف عن البكاء. حاولت التماسك، لكنى وقعت فى بحيرة البكاء والبلل. سمعت أصوات انفجار قنابل، ودويًا مكتومًا وصفيرًا ممتدًا وأزيزَ رصاصٍ لا يتوقف، وطالت أذنى أصوات تحذير وتعليمات، وصراخ وآهات وشتائم، وجنازير الدبابات تهرس الأرض حولنا. الخوف جعلنى أنظر إلى والدى، فوجدته يقول بصوت متهدج جاهد ألاَّ يعلو: استرها يارب.

قبل يومين كانت أمى تتحدث عن العيد القادم بعد عشرة أيام. الفرح بالعيد أهاجنى، فأخذت أصيح وأتعفرت حتى نهرنى أبى.. لكن أمى قالت له: الولد من حقه يفرح. سأعمل كعكًا للعيدين.. عيد الفطر وعيد النصر. رد أبى فى وقار: ربنا يتمم بخير. فتماديت فى شقاوتى محتميًا بأمى والعيد.

فى تلك الليلة الثقيلة فكرت أننا قد نموت قبل أن يأتى العيد.. فنمت من الغم والخشية من تأخر العيد.

صحوت فى الصباح أفكر وأنا غاضب: كيف تتركنا وحدنا وتذهب بعيداً. قلت لأبى: لماذا لم يبق معنا دسوقى لكى يحمينا؟ همَّ أبى بالإجابة، لكن باب البيت فُتح فجأة وظهر على عتبته عدد من الجنود يشهرون الأسلحة فى وجوهنا، ويأمروننا ألا نتحرك. كانوا يتكلمون معنا كأنهم منَّا، ويتحدثون فيما بينهم بلغة غير مفهومة. تسمَّرت فى مكانى، ونزلت الدموع من عينى، وأدركنى البلل. أبى حاول القيام فعاجله جندى بضربة على كتفه فانهدَّ جالساً فى مكانه، وغمره بؤس حزين. أمرونا أن نضع أيدينا على رؤوسنا ففعلنا. دخل الجنود ففتشوا البيت. عندما داهموا حجرة رئيفة صاحت أمى: البنت نائمة فصرخ فيها أحد الجنود: اخرسى. فخرست. بعد أن فتشوا البيت جمعوا أنفسهم. قبل أن يخرجوا أوقفوا أبى وأمروه ألا يخرج أحد من البيت، وإلا كان مصيره القتل. فأحنى أبى رأسه فى حزن وامتثال.

★★★

أنت أيضاً يا دسوقى.. نصيبك قليل. مات أبوك وأنت سنك، يا عين أمك، أحد عشر عاماً. أيامك صعبة يا ابنى، نصيبك أن تقضى حياتك كلها فى الجهادية. المجندون أمرهم سهل.. يقضون مدة التجنيد ويرجعون ليراعوا مصالحهم ومصالح أهلهم. لكن.. من يوم النكسة والجيش يلم الشباب. ولا أحد يخرج. المجندون قبل سبعة وستين أيضاً لا يخرجون.. محبوسون فى قمقم. طبيعى أن يبقوا فى الخدمة حتى تتحرر الأرض، لكن إلى متى؟ الشاب لا يستطيع الزواج إذا كان مجنداً، أصبح التجنيد سبباً لرفض العريس.. حجة أهل العروس معقولة.. فالحرب آتية ولا أحد يعرف كيف تنتهى ومن سيبقى ومن سيذهب؟ الانتظار أرحم من ارتباط مهزوز. المشكلة

أن الضرب شغّال والشباب معرض للإصابة أو القتل. كل يوم نسمع عن عمليات عبور لشرق القناة وغارات إسرائيلية على كل المواقع. عندما استشهد خليل ابن خالتى من شهرين ترك زوجة وطفلة رضيعة.. رحت للعزاء.. لما شفت حالة البنت وأمها.. تذكرتك.. فنزلت دموعى كالمطر وأُغمى علىّ.

★

فى كل مرة أرى متولى.. أتذكر اللحظة الأولى التى رأيته فيها وهو يخرج من بين عيدان الهيش. صبى فى نحو التاسعة، ضعيف البنية، تنفلت الشقاوة من عينيه الضاحكتين. يتقافز كجحش صغير. ناديته إكرامًا لأخته.. آه يا رئيفة.. ما الذى أوقعك فى طريقى يومها؟ كنت تتلفتين كالهارب من خطر، أو الباحث عن شىء. هل كنت تهربين من حرج وقوفى بالقرب منك.. وتأمل وجهك الحليب؟ والله العظيم لم أقصد أن أفعل ذلك. لقد فوجئت بوجهك يقطع علىّ الطريق، فتسمَّرت فى مكانى مدهوشًا ومكبلاً بأسر عينيك الواسعتين. لا أعرف.. أكان جمال عينيك هو الذى سبانى، أم الذعر الذى اندلق منهما؟ همستُ بصوت لا أعرفه: أية خدمة ممكن أعملها لك؟ فهمستِ فى خفوت: أخى متولى كان معى، يتخفى ليغيظنى، أخاف يتوه منى، والظلام حل، والجاموسة معى، سيقلقون علينا. ظهر الولد أمامى فجأة. رأيته يتحنجل أمامى مقلداً حركات الجنود.. فأمرته أن يذهب مع أخته فى الحال. مضى يبعثر التراب حوله وهو يفرد يديه كأنهما جناحا طائر. رأته فهدأت، وهددت أن تشكوه لأبيه. واصل الولد معابثتها فابتسمت. ابتسامتها التى بدت على صفحة وجهها الأبيض وعششت فى عينيها هى التى أسرتنى.. بل هى كلها على بعضها.. رغم أننى لم أنتبه لجسدها الذى كان يكسوه ثوب بيتى بأكمام طويلة. شيعتُهما بعينى حتى

اطمأننت عليهما. غادرتنى لكن وجهها ظل طالعًا أمام عينى.. خفتُ أن أغمض عينى فيتوه منى.

أعطيتها ظهرى وتحركت فى اتجاه معسكرنا القريب، فرأيت وجهها تتبدل عليه أحواله التى عاينتها: الحيرة.. الخوف.. الخجل.. الراحة.. الابتسام. وبدون أن أدرى.. اخترت صورة وجهها المبتسم قبل أن تغادرنى.. ووضعتها فى قلبى برفق. أغمضت عينى فرأيتها، وفتحتها فرأيتها. فى طابور التمام خايلنى وجهها. تأكدت أننى وقعت فى هواها. صرفت الطابور بسرعة وأسرعت إلى خيمتى وأنا أهمس لصاحبة الوجه الجميل: أرجوكِ.. لا تعطلينى عن شغلى.. أبوس رجلك. فيك إيه مختلف؟ البنات على قفا من يشيل. ماذا حصل لى لمَّا رأيتُ وجهك. يارب أنا لم أغلط، ولا أرغب فى الغلط. وجهك لخبطنى. عرفت اسمك من متولى وهو يعابثك. همست فى داخلى: رئيفة.. وهى فعلاً رئيفة. اللغط فى قلبى أكبر من احتمالى. كيف تكون الأيام القادمة؟ مرت ثلاثة أيام أو أربعة حتى استطعت أن أتفق مع طيفك الجميل.. قلت له: يا قمر يا منوَّر.. ساعدنى فى عملى.. اختبىء فى عمق قلبى وأنا فى الشغل.. ثم اطلع فى سمائى آخر النهار لأناجيك وأتملى من فيض نورك.

اتفقنا بغير كلام، وتبادلنا فرحة اللقاء ولوعات الحب وصبابته فى صمت. انضبطت مواعيدنا حسب نبض القلب. تلاقينا فى معظم الأحوال ومتولى يتحنجل حولنا.. لا يعى ما نحن فيه من شوق ولهفة. لم أطق أن يراك أو يحادثك أحد غيرى. وعندما شكوتِ لى أن أحد الجنود يقطع عليك الطريق ويحاول أن يلفت نظرك بوقاحة.. شعرت بالدم يصعد إلى رأسى.. وعدت إلى المعسكر لا أرى أمامى. ولحظِّى السيء وجدت الجندى المقصود أمامى. لم أدر ماذا حدث.. حاولت أن ألومه برفق.. فوجدته يعاملنى باستهانة. أفقت

والجندى يصرخ ممسكًا بذراعه التى انكسرت.. وكانت حكاية. وصلت المعلومات للقائد الذى كاد أن يحولنى لمحاكمة عسكرية. لم يقتنع القائد رغم أن ضابط الأمن قال له إننى كنت أدافع عن فتاة حاول الجندى التهجم عليها. لكن والد رئيفة حسم الموضوع عندما قابل القائد ورجاه العفو عنى. استجاب القائد بشرط أن تظل المحاكمة مسلطة على رأسى إلى أن يشفى الجندى المكسور. رعايتى للجندى المضروب قرَّبتنى منه. صالحته واسترضيته وصرنا أصدقاء.

شجعتنى شهامة والد رئيفة على الذهاب إليه لأشكره. رآنى متولى فتمايل فرحا وأبلغ والده الذى استقبلنى بحفاوة. حاولت أن أشكره فقال إن الشكر واجب عليه لأننى دافعت عن رئيفة. قال لى باختصار: أنت رجل شهم. شربت الشاى، وقبل أن أستأذن جاءت أم رئيفة وكلمات الترحيب والشكر تسبقها. وعندما خرجت ظلت دعواتها لى تلاحقنى حتى غبت عن المكان.

★★

لا أنسى الأيام السوداء التى مرت بنا بعد تلك الليلة التى أنارت فيها السماء، وسمعنا أصوات الانفجارات. لم يكن دسوقى معنا. أدركت فيما بعد أنه لو كان معنا ما تغير شىء. عندما عاد كانت الكارثة قد حلت وانتهى كل شىء. ما حدث أفظع من الكوابيس، وأسود من قرن الخروب. كنتُ صغيراً فظننت أننى صرت شيخًا، وأن شعرى شاب.. أصبحت مسئولاً عن أسرة. أين هى تلك الأسرة؟

انقطعت صلتنا بأهل سرابيوم. ولم يعد بوسع أحد أن يأتى بالمياه الحلوة من الحنفية. حمدت الله أن أبى دق طلمبة أمام البيت فكفتنا الابتعاد لإحضار الماء. لم أستطع أن أزور أحدًا من أقاربى، أو أرى أيًا من

أصحابى. أصبح البراح محرمًا علينا جميعًا. تسلل أبى ذات صباح لكى يزور بيت عمى فى الجانب الآخر من القرية.. بعد عدة أمتار طلع عليه جندى شاهرًا بندقيته وأمره بالعودة حتى لا يقتله.. عاد أبى والدموع تملأ عينيه والحزن يكسو وجهه. مصمصت أمى شفتيها وهى لا تقوى على الكلام. بعد لحظة قالت كأنها تحدث نفسها: لو رئيفة جاءها الطلق نعمل إيه؟ حاول أبى أن يرد، لكن الكلمات اختنقت فى حلقه، فأسرع إلى حجرة الفرن.. فأحنت أمى رأسها ورأيتها تمسح عينيها بطرف طرحتها.

الأخبار التى نسمعها فى الراديو تجعلنا نطمئن قليلًا.. وما نراه بأعيننا يفسد ما نسمعه. أبى يسمع أخبار انتصاراتنا فى الناحية الأخرى فينتعش، ويعود إلى ما نحن فيه فيبتئس. يرى الخوف على وجوهنا فيفتعل الجدية قائلًا: كله بالصبر يهون.. تُفرَج يا أولاد.

بعد يوم واحد من اشتعال السماء بالضوء واهتزاز الأرض بضجيج جنازير الدبابات.. تزلزلت الأرض من حولنا بطلقات المدافع والرشاشات. كنا نتهيأ للنوم عندما سمعنا أصوات المتحاربين فى وضوح.. وميزنا أصوات جنودنا الذين اشتبكوا فى معركة ظننت أنها تدور فى الساحة المواجهة للبيت. ورأينا الحرائق تشتعل حولنا. اقتربت الأصوات الصارخة، واختلطت التعليمات والتحذيرات والشتائم بصرخات الألم.

عند الفجر هدأت الحركة، وخفتت الأصوات. ظننت أن المعركة انتهت.. فرُحتُ فى النوم. أفقت على صوت أنين يأتى من وسط الدار.. فتسللت من فراشى. رأيت النهار طلع وشقشق. أبصرت والدى فى ساحة البيت منحنيًا فوق رجل يئن. اقتربت فرأيت جنديًا ممددًا على الأرض تسيل الدماء من فخذه، وأبى يحاول إيقاف النزيف بغير فائدة. سمعت الجندى يقول فى وهن: لا فائدة.. أنا أموت.. خذ أوراقى وقم بدفنى وأبلغ أهلى. انتبهنا على

صوت أقدام ثقيلة تدهم المكان، والباب ينفتح بشدة، وجنودهم يحيطون بنا من كل جانب. ساقونى مع أبى إلى الخارج، وجرُّوا الجندى المصاب عند التوتة. أمرونا أن نضع أيدينا فوق رؤوسنا، ثم أشاروا إلى الجندى الجريح ببنادقهم وأطلقوا عليه دفعات متتابعة من الرصاص.. ثم تركونا ومضوا. سقطتُ على الأرض ورأيت أمى تسرع نحونا وهى تهذى. بعد لحظات نهض أبى فخلع جلبابه وأتى بالفأس وحفر قبراً للشهيد تحت التوتة.. ثم دفنه وهو لا يتوقف عن الدعاء له: إنا لله وإنا إليه راجعون.. بل أحياء عند ربهم يرزقون.. الله يرحمك يا ابنى.

لم تتوقف أمى عن البكاء، وبعد أن انتهى أبى انهدَّ جالساً أمام القبر.. وأخذ يبكى بصوت عال، وأمى تحاول تهدئته وهى تنتحب. راقبته وهو يمسك بالسلسلة التى تحوى بيانات الشهيد.. ويقلبها فى حيرة. بعد أن هدأ التفت نحوى قائلاً: أنت الآن رجل.. ومطلوب منك توصيل الأمانة من بعدى.. ثم أعطاها لأمى لتحفظها.

قبل غروب الشمس رجعوا واقتحموا البيت. أعادوا التفتيش فلم يجدوا شيئًا يلزمهم. أثناء خروجهم لاحظ أحدهم الراديو فوق جوال أرز.. فأخذ الراديو ومزق الجوال.. لنغرق فى بركة عزلة تطفو عليها طبقة من غم.

أيام صعبة وسوداء.. غاب فيها دسوقى، فتوالت الكوارث على رؤوسنا بعد أن ذقنا فرحة النصر. أصبحنا محبوسين فى الوطن.. ومسجونين فى دارنا. أخذوا الراديو فانقطع العصب الذى يربطنا بأهلنا. كنا نتعزى بما نسمعه فى نشرات الأخبار، وما تبثه الإذاعة من أناشيد وأغان وتمثيليات. الحبس أهاجنى فجعلنى ألعب بخشونة مع أخوى الرضيعين. تفرغت أمى للفصل بيننا طول النهار. رئيفة لا تقوى على أعمال البيت بسبب حملها الثقيل. وأمى لا تكف عن التمتمة بالدعاء لنا ولها بالسلامة، وعلى الظَّلَمة

بالهلاك. يقضى أبى معظم الوقت جالسًا فى صمت. أقترب منه وأجلس بجواره فى سكون، أنظر إليه من تحت لتحت، فأراه ساهمًا حزينًا. لا يقوم إلا للصلاة أو للنوم. يعتنى بالجاموسة والحمار حتى لا يضيعا منه.

★★★

رتبنا حياتنا على أن الجندية شغلتك. تأخذ إجازة كل شهر.. فنفرح ونأتنس بك.. وتقضى الساعات فى تلبية مطالبنا ورعاية مصالحنا. نفسى أفرح بك وأشيل عيالك. كل بنات البلد تحت أمرك. لا أسمعك تتحدث عن الزواج كأنك ستبقى أعزب. تريد أن تدافع عنى وعن أخواتك البنات؟ تزوج وهات ولدًا لتدافع عنه وعن أمه، أنا أربيه، ولو ربنا اختارك يبقى لى حتة منك، يصبرنى على البعد حتى نلتقى.

خالك محروس زارنى؛ فلاحظت أنه حزين. سألته: مالك يا محروس. تردد قليلاً ثم قال وهو ينظر إلى الأرض: ابنى مهدى مصمم على الزواج. قلت بعفوية: وماله يا محروس.. ألف مبروك. انتظرت أن يرفع رأسه، لكنه ظل ناظرًا إلى الأرض. ثم رفع رأسه ببطء وهو يقول بأسى: مهدى خرج عن طوعى.. يرغب فى واحدة من بنات المهاجرين.. عرضت عليه بنات من أقربائنا وجيراننا.. لكنه صمم على هذه البنت. فكرت: ما ذنب بنات المهاجرين؟ فاجأته قائلة: على خيرة الله.. لا تكسر قلب الولد ما دام يحب البنت. قال فى أسى: لكنَّا لا نعرف لهم أصلاً ولا عائلة. قلت مهونة الأمر عليه: هم ناس مثلنا تمامًا.. وليس ذنبهم أنهم كانوا يعيشون فى بلاد القنال.. واضطرتهم الحرب للهجرة. نظر خالك نحوى وشعرت كأنه أفاق وهو يقول متنهدًا فى راحة: إذا كان هذا رأيك.. فعلى خيرة الله. وقام مستئذنًا فى الانصراف. قلت فى نفسى إنه معذور فى خوفه من ارتباط ولده

ببنت من المهاجرين. فى النهاية هم أهلنا وناسنا ولحمنا المكشوف.. وعلينا تغطيته.

★

لم يبق لى غير البيت والغيط والمصطبة وأمى وأخواتى البنات. البيت الذى ولدت فيه رئيفة وعاشت. والغيط الذى كانت تمرح فيه مع أبيها وهى صغيرة. والمصطبة التى شهدتُ مولدها أمام عينى، وعرفت أسرارها، واعتليتها لأرى بعينى ساحة مصرع الأوغاد.. قبل أن تنطلق دانات المدفعية من مزاغلها لتحول مواقعهم إلى أعمدة من نار ودخان. لماذا يستكثرون المصطبة علىَّ؟ إنها الباقية أمام عينى من رائحة الحبايب الذين رحلوا رغما عنى. سمعت أنهم يرغبون فى هدمها ليستفيدوا من أرضها فى الزراعة.. فركبنى الجنون.. لا.. كله إلا إزالتها. هى أرضى.. وروحى.. ومسجدى الذى أؤدى فيه صلوات المحبة لوطنى.. وصلاة الخوف عليه. إنهم ينظرون تحت أقدامهم ولا يبصرون. هم لا يرون من الغربال.

يرانى الناس بوجه جامد.. فيظنون أن الحرب والحياة العسكرية قتلت فى نفسى أحاسيس الرقة، ومشاعر المودة والألفة. هم لا يرون إلا القناع الذى ألبسه عندما أخرج إليهم. متولى نفسه لا يفهمنى مع أنه أقرب الناس لى. تأتينى الكوابيس فى نومى فتهد كيانى. أقوم من نومى مرتعشاً يتصبب العرق من جسدى. لم تهاجمنى الكوابيس فى أثناء المعارك. قبل وقف إطلاق النار ترددت أنباء عن تسلل لقوات العدو فى الدفرسوار. لم أفهم كيف حدث ذلك. تحدثت مع قائد السرية فطمأننى. لكن البيانات العسكرية أقلقتنى. عاودت الحديث مع القائد فأحسست أنه بدأ يتوتر. قال إن المعلومات التى وردت إلى قيادة الفرقة تؤكد أن العدو يهاجم قواعد صواريخنا ويجتاح المناطق الإدارية فى غرب القناة. استأذنت من القائد وأنا أترنح كمريض

يتخبط بين السكرة والانتباه.. وفى ذراعه أنبوب متصلة بزجاجة تضخ الحقيقة إلى جسده قطرة بقطرة.

وقف إطلاق النار جعلنى أفكر فى رئيفة وسرابيوم وأهلها. تسربت الحقيقة داخلى بالتنقيط فأصابنى الهلع. نحن فى القنطرة منتصرون، وسرابيوم تحت الحصار، وأهلها يعيشون فى رعب. فكرت فى رئيفة والمولود.. كيف حالهم، وماذا حدث لهم؟ أحسست بسيخ حديد محمى يشق رأسى فصرخت. هممت بالركض فى اتجاه القناة.. لأعبرها سباحة وأجرى لأطمئن على أحبابى هناك. لمحنى قائد السرية وأنا أهم فنادانى. أفاقنى صوته.. فأدركت أننى أهذى وأتخبط فى خطواتى على التباب الرملية. سمعت صوته: إلى أين يا رقيب دسوقى. رددت عليه لاهثًا: لا شىء.. تذكرت أهلى فى سرابيوم. قال مهدئًا: لا تخف عليهم. هذه تمثيلية تنتهى خلال أيام. قلت وأنا ذاهل: زوجتى على وشك الولادة. فقال مطمئنًا: خير... خير بإذن الله. هاجمتنى الكوابيس منذ ذلك اليوم.

أرى وجه رئيفة يطاردنى، ولا أميز باقى جسدها. أراقب وجهها القمرى المستدير يكاد ينطق: ألست أكفيك.. ألم أضىء لك كل الطرق والمداخل والأماكن؟ لماذا تبحث عن الجسد؟ أنا قمرك الذى لا يغيب. أنتفض مذعوراً من غياب الجسد. أرى وجهها مشرعًا أمام عينى للحظات قبل أن يختفى تدريجيًا.. فأشعر ببعض الراحة. تناوشنى الكوابيس فأصحو منهكًا.. يغمرنى العرق ويقطع اللهاث أنفاسى.

كثيراً ما رأيت جابر يحدثنى ثم يصمت فجأة. أنتظر أن يكمل كلامه.. ألتفت إليه.. فأجد رأسه على الأرض وجسده يتداعى بجوارها. كان يقول: إذا استشهدت فأرجوك أن تذهب إلى بيتنا فى بحرى وتقول لأمى... ماذا كنت تريد يا جابر أن أقول لأمك؟ وهل أقدر أن أذهب وأحكى لها ما حدث.

سيكون حديثًا بلا معنى. لماذا لم تنطق برسالتك لأمك قبل أن تحز الشظية المسنونة الملتهبة رقبتك. الشظية التى كادت أن تحز رقبتى معك لو كانت فى اتجاهى. انحنيت أهزك لتكمل كلامك.. فرأيت دمك ينزف بغزارة ليكمل الكلام صمتًا أبديًا. وضعتنى فى معضلة يا جابر. أثق أنك لم تشعر بألم. توقفت عن الكلام لأنك لم تعد معنا. الألم بقى لى. فى هذه الحرب أدركت أن الألم والوجع من نصيب من يبقى على قيد الحياة. أما الراحلون فيسكبون دمهم وأرواحهم فى تسليم ويقين. كنتُ جالسًا على كومة من الرمل عندما انفجرت قذيفة بالقرب منى. تأكدت أننى مقتول لا محالة. انتظرت الألم فلم يأت. نظرت فإذا قطعة حديد تقع على بعد سنتيمترات قليلة من قدمى.. محمرة من شدة التوهج. سقطت على الأرض ففقدت وهجها. رأيتها فى حجم سلاح فأس صغيرة. انتظرت قليلاً ثم مددت يدى لألمسها بحذر. كانت شديدة الحرارة. حمدت الله أنها لم تلمسنى.

الكوابيس تهد حيلى. زملائى الذين أغمضت عيونهم بأصابعى بعد استشهادهم.. أراهم يبتسمون.. تكاد الضحكة تنفلت من شفاههم فأفزع. أعرف أنهم أحياء، فلماذا الفزع؟ هل بسبب الخوف من المصير بعد ضياع فرصة الاستشهاد؟ ألم يعلن السادات أن حرب أكتوبر هى آخر الحروب؟ من أين أتى بهذا اليقين؟ هل لمجرد أن يُسوِّق فكرته لدى الآخرين ليطمئنهم؟ هى ليست آخر الحروب. من المستحيل أن أغفر لهم. لى معهم ثأر، أقسمت بالله أن أقتضيه. الثأر منعنى من الاستمرار فى الخدمة وأجبرنى على التقاعد لأكون فى حل من وعد السادات للعالم. لا أستطيع أن أقول رأيى هذا لأحد.. فقد يسألنى: هل تترك الخدمة لتثأر بمعرفتك؟ هل ستشكل جيشًا أهليًا لتأخذ بثأرك؟ متولى فعلها وسألنى: المصطبة التى سمَّاها الناس باسمك، هل صنعتها أنت؟ المهندسون المصريون شيدوها. هل ستبدأ

منها حربك عليهم؟ لا أرد عليه لأنى لا أستطيع أن أشرح له ما أشعر به. داخلى موقد لا ينطفىء ولا أريده أن يُطفأ. نيرانه تعيننى على مواصلة الحياة.. وتنتهى حياتى إذا خمد.

كوابيس الأشلاء لا تفزعنى.. بل تصيبنى بالغثيان. أقوم من نومى وأنا أهم بالقىء. فى كل مرة أهم ولا أفعل.. فتفسد شهيتى. رأيت إحدى دباباتنا تصاب بقذيفة عطلتها. قفز أربعة جنود من الدبابة وحاولوا الاحتماء بالحفر المنتشرة. سقطت دانة هاون على أحد أفراد الطاقم أثناء انسحابه. أسرعت نحوه بعد توقف القصف. لم أجد سوى بقعة بيضاء من البارود تميز مكانه. أمعنت النظر فإذا أجزاؤه متناثرة بغير نظام. أشلاء لا يمكن تجميعها فى ترتيب منطقى. بحثنا عن سلسلة بياناته وقمنا بدفن الأشلاء فى مواضعها، ثم سلمنا سلسلة بياناته إلى قيادة الوحدة.

رأيت أجساداً مشطورة بوجوه مبتسمة، بعضها غادر الحياة، والبعض يقترب من الغيبوبة. وفى النقطة الطبية رأيت مصابين لا يشعرون بألم. وجوههم مرهقة لكن البسمة تطل من ملامحهم. لم أفهم سر هذه البسمة. أهى بسمة فرح بنفض عباءة الصبر؟ أم أنها تعبير عن بهجة الانعتاق من الهزيمة؟ آه من الهزيمة! رغم انتصارنا العظيم فإحساسى بالهزيمة الشخصية يغرقنى.

★★

التفاصيل محفورة فى رأسى.. أستعيدها كأنها تحدث الآن. سمعنا مكبرات الصوت تأمرنا بالخروج والوقوف أمام البيت.. الذكور فقط.. فامتثلنا. أخذنى أبى من يدى ووقفنا أمام البيت. وقفت أمى وراء الباب الموارب تنظر الأمر. بعد نصف ساعة أتى الجنود فساقونا "كالمعيز". أخذونا إلى ساحة قريبة من دوار العمدة.. فوجدنا جمعا من رجال البلدة يقفون فى

حراسة صفوف من الحرس. نصب الجنود خيمة من الصمت والمهانة ظللتنا جميعا. طال انتظارنا حتى تم تجميع كل الرجال والصبيان. حضر كبيرهم فأمر بعزل الصبيان فى ناحية والرجال فى ناحية أخرى، فنفذ الجنود الأمر. سحَّت الدموع من عينى عندما نزعوا يدى من يد أبى وأخذوه بعيداً عنى.

تحدث القائد فأمر الجنود بإخراج العمدة من داره. خرج العمدة برأس مرفوع متجها إلى القائد الذى مد يده وأخذ طاقيته وألقاها على الأرض فى غيظ، وأمر الجنود بربط يديه معًا وراء ظهره. بعد لحظة صمت أمر بفرز الرجال.. فأسرع الجنود بتقسيم الرجال إلى قسمين. الشيوخ فى جانب، وباقى الرجال ومنهم أبى فى جانب آخر. أمر بضم الشيوخ إلى الصبيان. رأيت محفِّظ القرآن ضمن الشيوخ.. لكنه لم يبصرنى. أحاط بنا الحراس من كل جانب. وقام بعضهم بقيد أيدى الرجال وراء ظهورهم، وساقونا جميعا حتى أصبحنا قريبا من محطة السكة الحديد. الرجال فى المقدمة.. والشيوخ والصبيان خلفهم بمسافة كبيرة.

توقف عقلى عن التفكير، ولم أعرف ماذا ينتظرنا. حرصت على أن يظل والدى فى مجال رؤيتى. أشب على قدمى وأحرك رأسى يميناً ويساراً لكى لا يغيب عن عينى. اقترب الموكب من انحدار جسر السكة الحديد، فأمر القائد بأن ينضم العمدة إلى مجموعة الرجال فدفعه الجنود بقسوة ناحية الرجال المكبلة أيديهم. قريبًا من جسر السكة الحديد.. أبصرت جرافة صفراء كالحة على وشك التحرك تدفع دخاناً خفيفًا من خلفها. أوقفونا بعيداً عن الجسر وأمرونا أن نضع أيدينا فوق رؤوسنا.. ففعلنا فى رهبة. تقدم الجنود بالرجال حتى أوقفوهم صفًا واحداً فى مواجهتنا، وظهورهم إلى منحدر جسر السكة الحديد. تراجع الجنود إلى الوراء.. وصوبوا بنادقهم إليهم. انتظروا قليلاً حتى تحدث القائد.. قال إن هذا سيكون عقاباً لكل من

يتعاون مع جنود الجيش المصرى. ثم أشار بيده فأطلق الجنود الرصاص على أبى وعلى كل الرجال.. فسقطوا على الأرض يطلقون صيحات ألم مخنوقة وأجسادهم تتخبط وتنتفض قبل أن تهمد تماماً. ساد الصمت ثوانىَ قبل أن يعلو الصياح والبكاء والصراخ. أحاط بنا الجنود وأخذوا يضربوننا بقسوة لنصمت. ضربونا بمؤخرات البنادق لنجلس على الأرض، وحجزونا فى حراسة دائرتين من الجنود. لم يتوقف الصراخ والبكاء. أمرونا أن ننظر حيث يرقد أهلنا الغارقون فى دمائهم، وأعادوا التأكيد أن هذا هو مصير كل من يتعاون مع الجيش المصرى. رأيت الجرافة تتقدم ببطء لتدفع أجساد الشهداء المكوَّمة أمامها لتلقيها فى حفرة كبيرة فى جانب الجسر. ثم عادت لتزيح كومة من الرمال وتردم المقبرة الكبيرة.

ساقنا الجنود حتى وصلنا إلى الحنفية العمومية ثم أطلقونا. لم أعرف ماذا أفعل. كيف أعود إلى البيت بدون أبى؟ وماذا أقول لأمى ولرئيفة؟ ومن سيراعى الجاموسة والحمار والطلمبة والغيط؟ وهل حقا مات أبى؟ لقد رأيته يسقط وسط جمع الرجال، وسمعت صرخات الألم المخنوقة تمزقنى، ورأيت الجرافة الكالحة تلقى بهم فى الحفرة التى جهزوها لتكون قبراً لهم، ثم تردمها وتسويها بالأرض. ما زلت أشعر بيد أبى تقبض على يدى، وما زالت حرارتها فى كفى! هل يعنى ما حدث أننى لن أراه بعد الآن؟ ولن أصلى وراءه جماعة ونختم الصلاة معاً؟! وهل سنردم الحفرة البرميلية التى حفرها لتناسب طوله؟ لقد دفنوه بدون غسل أو كفن وبغير أن يصلى عليه واحد من المسلمين. تذكرت أن أبى دفن الجندى الشهيد تحت التوتة دون كفن، وبغير أن يصلى عليه. أبى إذن شهيد. تهت فى البكاء.. ثم فى النوم. أفقت لأجد أمى ترتجف من شدة البكاء، ورئيفة تصرخ فى وهن: آه يا أبا. كانت أمى تهذى وهى تبلل وجهى بالماء وتقول بأسى: عملوا فيك إيه يا ضنايا؟ ربنا

على المفترى والظالم وابن الحرام.. يا خرابى يا ناس يا هوه.. انجدونى.. الولد راح يضيع منى.

★

كبرت يا متولى. تقترب من الأربعين، وأصبح لك عيال يمائلونك طولاً، ينظرون إليك باحترام وتقدير، وينادوننى بزوج عمتهم. اخترتَ السكن فى أبو سلطان بعد أن حصلت على وظيفة فى الإدارة الصحية.. ولم تنقطع عن زيارة سرابيوم. أعرف ما يربطك بها. هى مسقط الرأس وملاعب الطفولة والصبا، ومجمع ذكرياتك. ذكريات البيت الهادىء، وصيد الفراشات، ومطاردة القطط والكلاب، ومحاكاة حركات الجنود الذين ينتشرون فى الجوار، وتقليد أصوات الطائرات وأزيز طلقات الرصاص وانفجار دانات المدافع. ذكريات الوالد الذى كان يوقن بانتصارنا مهما طال الزمن، والأم التى تحيط حوائط البيت وساكنيه بالحنان والمحبة ودموع الصبر وصلابة التحمل. وذكريات المحنة التى حلَّت بعد عشرة أيام من بداية الحرب. تخلو إلى ذكرياتك إذا ما هاجت وأنت معى.. فتمسك بعود من الحطب وتنكش به الأرض التى نجلس عليها وتحكى.

تبدأ بيوم العبور وفرحة أبيك المجنونة التى جعلته يلقى طاقيته على الأرض وهو يرقص هاتفًا: الله أكبر. وتتعجب من الهاتف الذى جعله يأمر أم رئيفة بأن تخبز يوميًا لتطعم الجنود.. حتى نفد مخزون الدقيق. وتندهش أكثر.. لمَّا جلس أبوك تحت التوتة واضعًا يده على صدغه متحيراً ومتفكراً فى كيفية حل هذه المشكلة.. وكأنه المسئول عن إطعام الجنود العابرين. وتكتمل دهشتك بالضابط الذى أتى بصحبة طابور من الجنود ليملأوا البيت بالدقيق. يختنق صوتك بالدموع حينما تحكى عن دخول الأعداء إلى محيط القرية. يظل صوتك مختنقًا إلى أن تتحدث عن رجال الصاعقة الذين نقروا

عليكم الباب وأبلغوكم ألا تخافوا بعد اليوم، وأنهم سيؤدبون الظلمة. يصفو صوتك من الاختناق، وتلمع عيناك بالزهو وأنت تحكى ما فعله جنود الصاعقة بدبابات العدو ومصفحاته. تتذكر أباك وشقيقك منصور، وخالد ابن خالتك، وأمك وشقيقتك رئيفة. تبكى بحرقة عندما تتذكر مشهد إعدام أبيك وسط رجال القرية أمام جسر السكة الحديد. تقفز الدموع من عينى رغماً عنى.. مع أنى كففت عن البكاء منذ اعتليت المصطبة العالية المطلة على الشرق الغائم. تستعيد ما حدث بتفاصيله كأنه يحدث الآن. أراك تبكى فى لوعة. تسَّاقط دموعك بغير صوت. كأنك اختزنت المشهد فى داخلك حيًا.. تستدعيه وتبكى كلما شاهدته.

بقيت مع أمك ترعاها بصبر فى بيت سرابيوم الذى رممه رجال الأشغال العسكرية. حاولت أن تزرع القراريط التى تركها والدك.. فلم تقدر. لم يكن لديكم جاموسة تحلب اللبن وتساعدكم على العيش.. ولا حمار تنقل عليه الحشائش والكيماوى والتقاوى. اكتفيتَ بزراعة بعض الخضراوات واعتمدت على التموين الحكومى الشهرى. لم يستمر الأمر طويلاً. ماتت أمك بغير صوت فى صبح يوم غائم.. فأصابك المكان الخالى بالحزن وركبك الغم. بكيتَ أمك كثيراً.. فى جنازتها بكيتَ كل الأحباء الراحلين.. موتها فتح خزانة الأحزان.. لتنزح منها فلا تنضب. لم أستطع أن أبكى.. فقد خاصمنى البكاء منذ زمن بعيد. لقد بكيتَ رئيفة ضمن من بكيت. لكنى لم أبك رئيفة لأنها لم تمت. لم أسمح لك أن تقنعنى بأنها ماتت أو أن السفاحين قتلوها. تستطيع أن تعيش بدونها.. لكننى لا أستطيع.. ربما ترى أن قناعتى بأنها على قيد الحياة حيلة من حيل المحافظة على النفس من الهلاك. الحق أن ليس لى عيش بعدها. فإذا أيقنت بموتها فكأننى قررت الانتحار.

تأتى سيرة رئيفة.. فتجتهد لتحول اتجاه الحديث إلى شأن آخر. تعرف

أنها جرحى الدائم الذى لا يطيب. لا أعرف ما الذى تقرأه فى وجهى عندما تذكر اسمها. لكنى أعرف السكاكين الخفية التى تبدأ فى تقطيع أوصالى وتمزيق ضلوعى، ثم تتجه إلى قلبى فيكاد يقفز من صدرى أو يتوقف فى مكانه ألمًا.

آه يا رئيفة. أين أنت يا حبيبتى. أعرف أنك ما زلتِ تعيشين رغم مرور كل هذه السنوات. آه لو أعرف ما الذى حدث بالضبط!! لا أحد يعرف للأسف.. وهذا ما يمنحنى الأمل.

تحثنى على الزواج.. كأنك متأكد من موتها. تستبعد أن تكون على قيد الحياة. أثق أنك لم تموتى يا رئيفة. ربما تهتِ أو ضعتِ أو اختفيتِ. لكنك لم تموتى.. لأنك تحملين الحياة فى بطنك. إبراهيم الذى حلمت به منك.. ليكون بعضًا من نورك وبهائك.. معجونًا بحبى لك. حلمت به مزيجًا من وهج حسنك وولعى بك. إبراهيم الدسوقى سميّ إبراهيم الدسوقى الكبير.. الذى وقع فى هواه ملايين المصريين من الريف والبنادر والعاصمة.. الصعايدة والفلاحين الذين يزحمون ساحة المسجد الإبراهيمى ويسدون الشوارع المؤدية إليه.. يمارسون طقوس الصبر والرضا والشكر والوجد والذكر والحمد والتوق.

أسألك يا متولى.. ربما للمرة الألف.. أن تحكى لى تفاصيل رحلة الرعب إلى نفيشة.. فى حراسة البنادق المشهرة على رؤوسكم. فى كل مرة أرجوك أن تحكى بالتفصيل لأعرف ما حدث..لأستخلص ما يعيننى على الحدس بما حدث لرئيفة. تنظر بأسى إلى الأرض وأنت تهز رأسك أسفًا. فى البداية كنتَ ترتعش من تذكر المشهد. الجنود يحدثونكم باللهجة المصرية فتظنون أنهم مصريون. فإذا تحدثوا فيما بينهم رطنوا بلغة غريبة غير مفهومة. هاجموا البيت ذات صباح ففتشوه.. قلبوا كل شىء.. كسروا الزير وهدموا

الفرن وبعثروا غرفة المعايش.. أخرجوا رئيفة من حجرتها.. شدوها من شعرها.. فخرجت تتعثر فى حملها وألمها وصراخها. حاولت أمك أن تأخذها فى حضنها لتحميها فضربوها بأعقاب البنادق لتنهار باكية مولولة. ثم ساقوكم إلى الخارج. أخذتَ منصور فى يدك وأنت تبكى. وتحاملت أمك على نفسها.. فحملت خالد على كتفها.. وهى تحاول أن تتماسك أمامكم.

فى البداية كنتُ لا أملُّ من سؤالك.. وكنت تجيبنى بكثير من البكاء وقليل من الكلام. كنت فى حدود الحادية عشرة من عمرك.. المحنة جعلتك أكثر صلابة، لكنك كنتَ صبيًا صغيرًا على أية حال.. تهرب من استجواباتى.. وأنا أقسو عليك لتتذكر وتحكى. العجيب أنه بمرور الوقت تذكرتَ تفاصيل أوضحت الصورة التى لم تكتمل. كيف تكتمل وأنا لم أعرف ماذا حدث لرئيفة.

★★

عانينا جميعا يا دسوقى.. رأينا أهوالًا كالتى رأيتَها. أنتم انتزعتم الانتصار العظيم.. وكنتم مشغولين بالقتال وترتيب الصفوف وتنفيذ الهجمات.. أمَّا نحن فكنَّا مسجونين فى قفص الخوف. نرتعش من آلام الجهل بحقيقة ما يجرى، والأسف من العجز. لم يكن لدينا ما نفعله. كنتُ طفلًا أحول كل شىء إلى لعب.. أعواد القش والحطب وبقايا القلل القديمة وأعواد الشجر. أطارد الفئران وأعابث القطط وأحاول إخافة الكلاب دون أن أقترب منها.. أحاذر الشقوق وجوانب القنوات الجافة لأتجنب الثعابين التى أرعبتنى. عاينت استشهاد أبى ورجال القرية.. فشعرت أنى كبرت فجأة. ذهب الخوف من قلبى.. لكنه امتلأ بالحزن وفاض بالغضب. أفقت من التوهة لأجد نفسى مسئولاً عن أمى وأختى والصغيرين. لم يطلب منى أحد شيئًا.. وجدت نفسى أضع الطشت تحت الطلمبة وأشغلها.. امتلأ الطشت بالماء فلم

أستطع رفعه من الأرض. أتت أمى فحملته معى ووضعناه أمام الجاموسة والحمار ليشربا. خرجت حاملاً المحشة وأخذت أحش لهما الحشائش ليأكلا. تجرأت وجلست على باب البيت لكى لا أرى وجه أمى الباكى، وهمهمات أختى التى تتكتم نحيبها المتواصل.

لم أعد أرى القتلة، وتوقفت مكبرات الصوت عن تهديدنا. طال الحزنُ كلَّ شىء.. الشجر والدواب والحصى والحشائش. ارتفع نهيق الحمار. فأشارت أمى لأطلقه قليلاً خارج البيت.. أطلقته فأوقع نفسه على الأرض وأخذ يتمرغ فى حبور كأنه يستحم.. أثار زوبعة من غبار.. فأدخلته الحظيرة وأخرجت الجاموسة.. أوقفتها بجوار الطلمبة وحممتها.. وأنا أستعذب رذاذ الماء الذى ترشه نحوى بهزات رأسها وحركة ذيلها الطويل.

أقبل الليل فأغلقنا الباب. بعد قليل سمعت نقراً خفيفًا. نظرت إلى أمى.. فأشارت برأسها لأفتح. رأيت جنديًا أسمر يرتدى زى الصاعقة المبرقش.. همس: ممكن أدخل؟ أوسعت له فدخل. أغلق الباب وراءه وقال إن جنود الصاعقة سيأتون الليلة لتأديب الكلاب. سكت قليلاً وقال: نعرف ما فعلوه برجال القرية، وسنأخذ بثأركم. ارتفع دعاء أمى له ولكل أولادنا المحاربين، وسقطت دموعها غزيرة. أفاقت فقامت كأنها ستعد شايًا أو طعامًا.. لم يكن عندنا إلا بعض شقق عيش جاف وجبن قديم. حلف الجندى ألاَّ تقوم، وقال إنهم سيأتون بعد قليل ليدفنوا القتلة فى دباباتهم. واصل الجندى حديثه: المعركة ستكون قريبة منكم فلا تخافوا.. وربما يحتاج بعضنا للاختباء.. فإذا نقر أحدنا الباب ثلاث نقرات خفيفة فافتحوا له.. وفى الصباح إذا وجدتم أحدنا شهيداً فادفنوه بعد أن تأخذوا سلسلة بياناته لتبلغونا بها.

سمعنا ثلاث نقرات خفيفة على الباب.. فأشار الجندى لكى أفتح.. وقال: ستكون النقرات مثل تلك. فتحت الباب فرأيت ثلاثة جنود يحملون ثلاث

"جرابنديات" متخمة. سألتهم: سلاح؟ قالوا: لا.. إنه طعام قتال من المتوفر لدينا.. هو لكم. لم أصدق فارتفع بكائى، وأخذت أمى تدعو لهم بالنصر. طلبوا إفراغ "الجرابانديات" ليأخذوها معهم.. وأن نخفى الطعام فى مكان بعيد.. وألا نخبر أحداً بزيارتهم لنا وبما قالوه أو فعلوه. همَّ الجنود بالانصراف فأديت لهم التحية العسكرية، واستعدت ذكرياتى معك فقلت لهم: تمام يا أفندم. ردوا التحية، وقال كبيرهم: لقد أصبحت رجلاً وجندياً بحق، وسوف ترى الليلة ما يرضيك.. لا بكاء بعد اليوم. عندما همَّ بالخروج اقترب من أمى مسلِّمًا.. مدت يدها فأمسك بكفها وانحنى ليقبلها ويقول: ادعِ لنا يا أمى لتحفظنا بركة دعائك. قالت أمى وهى تجاهد لتملك نفسها: ربنا يحميكم ويكتب لكم السلامة يا أولادى. فور أن خرجوا راحت أمى فى بكاء شديد.. لكننى صممت أن أكون جندياً بحق.

جلست انتظر الهجوم.. فغلبنى النوم. صحوت على صوت طلقات رصاص متقطعة.. فقمت متجهًا نحو الباب. منعتنى أمى وذكرتنى بأن الجنود ينفذون الأوامر.. فجلست مقرفصًا أصغى لدبة النملة. لم أسمع صوت أقدام الجنود، ولا صيحاتهم، ولا صرخاتهم الشهيرة: ها.. ها.. ها. لم أفهم كيف يكون الهجوم هكذا. قمت متوترًا.. فوضعت رأسى بجوار الحائط علنى أسمع شيئًا بلا فائدة. بعد لحظة سمعنا صوت انفجار شديد. كدت أقفز مهللاً.. فنظرت لى أمى نظرة مؤنبة فتماسكت. سمعت انفجاراً ثانيًا وثالثًا.. فقالت هامسة: ربنا ينصرهم بحق جاه النبى. ساد الصمت قليلًا.. ثم دوى صوت الرصاص مصحوبًا بانفجار كبير أضاء السماء.. فتسللت خيوط ضوء عبر شقوق النوافذ والمنور السماوى فى الحظيرة فنهق الحمار. تباعدت طلقات الرصاص ثم خفتت. بعد فترة صمت سمعت عدة انفجارات هائلة متوالية ثم ساد السكون.

تنفس الصبح.. فأصبح المكان سوقًا. العربات والدبابات تتحرك فى كل اتجاه، والجنود يصخبون بلغتهم الغريبة. تكومت فى مكانى قرب الباب. مدت أمى ذراعها فاحتضنتنى بقوة. تملصت منها قائلاً: لا تخافى.. فلن أخرج. قالت بخوف: إنهم قادمون. تذكرتُ فهتفتُ: الأكل الميرى. قامت أمى مهرولة وهى تهمهم: استر يا رب..رأيتها تفرغ الزير من الماء فى عصبية ثم تضع الطعام الميرى داخله. أعجبنى ما فعلته أمى.. وخفت أن ينظروا فى الزير إذا أتوا. قالت أمى وهى مرتعبة: يا رب اعميهم عنا.. يكفى ما جرى لنا.

مالت الشمس فانسحبت العربات والدبابات والجنود بعيدًا وهدأنا قليلاً. لم نفتح الباب إلا بعد أن اختفوا. قمت بالحش، ووضعت الحشائش أمام الجاموسة والحمار فأخذا يأكلان بنهم.. ثم سقيت لهما. مدت أمى يدها فى الزير وأخرجت ثلاث علب صفيح وفتحتها.. وجدنا فى الأولى والثانية قطع لحم بالمرق، وبالثالثة أرزًا. أسرعت أمى بتسخين الطعام فى وعاءين. ودخلنا إلى حجرة رئيفة لنأكل معًا. انتهينا من الأكل فرأيت الطفلين منصور وخالد يلهوان بعلب الطعام.. فاختطفت العلب الفارغة منهما وصنعت حفرة فى الحظيرة ودفنتها فيها.. فبكى الطفلان، وأقرتنى أمى على ما فعلت بابتسامة مشجعة.

أوغل الليل قليلاً فسمعتُ ثلاث نقرات خفيفة على باب البيت.. فشعرت بالنشوة تسرى داخلى، وداهمنى خوف.. نظرت إلى أمى التى أومأت لى موافقة.. ففتحت الباب. رأيت الجندى الذى أتى بالأمس.. يرتدى تلك البدلة المبرقشة. دخل بخفة وأغلق الباب وراءه. همس مسلمًا وعينه تلمع بالفرح. قال: جئت فقط لأبلغكم أننا دمرنا لهم بالأمس ثلاث دبابات وقتلنا أطقمها وأفراد الحراسة. وأصيب قائدنا فأخذناه معنا للعلاج. قمت فقبلته فرحًا.

قال بأسى: لا تنزعجوا إذا تأخرنا عليكم.. سوف نهاجمهم من اتجاه آخر.. لحمايتكم من الأذى. قاطعته متسرعًا: وكيف نعرف أخباركم. قال: سنبلغكم بطرق مختلفة.. أنتم الآن تعرفون صوت انفجار الدبابة بعد ضربها.. يمكن أن تعرفوا عدد الدبابات التى ندمرها كل ليلة. هتفت به: ينصر دينك يا دفعة. هم بالانصراف فالتفتَ إلى أمى قائلا: دعواتك يا أمى. ثم قام وقبل يدها.. فأخذت تدعو له ولزملائه. قبل أن يمضى سألها هامسًا: تريدون شيئا.. أية خدمة؟ قالت أمى: خيركم مغرقنا. سارعت بالسلام عليه وأديت له التحية: مع السلامة يا وحش.

★★★

كان حلمى أن تكفى نفسك فكفيتنى همَّ التفكير فى البنات الثلاث. تغيب شهرًا وتأتى لتأخذنى فى حضنك وتبوس يدى ورأسى. تجلس بجوارى وتحكى لى عن أيامك وأصحابك فى البلاد البعيدة. تطلب أكلة المحشى والبط التى تحبها، تضع فى يدى جنيهاتك الغالية لأقضى مطالب البنات، وتنقضى الإجازة القصيرة كأنها أيام عيد.

خالك محروس، الله يستره، زارنى منذ أسبوعين، وأعطانى ألف جنيه، باقى حقى فى تركة أمى الله يرحمها. لم أناقشه ولم أسأل عن أصل الموضوع.. قلت له باختصار: ربنا على الظالم. قام قبل أن يشرب الشاى بحجة أنه يريد العودة قبل أن يحل الظلام. سأحتفظ بالمبلغ لوقت عوز.. البنات تكبر بسرعة.. وأنت قد تحتاج له إذا فكرت فى الزواج. أنا وأختك نعمل فى القيراطين بكل همة. الرجال فى الجيرة لا يتأخرون عن مساعدتنا، ويذكرونك بالخير دائمًا.. ونحس أنك موجود بيننا..تدفع عنا الأذى وتحمينا من رذالة الفارغين. لا تخف علينا يا نور عينى.. نحن أقوياء بك فى البعد والقرب.

★

وصلنا إلى وحدتنا الجديدة فى القنطرة.. فرأينا رجالًا يشبهوننا.. يحلمون بالتحرير فى صحوهم ومنامهم. غادرنا سرابيوم وفى عيوننا دموع. فى القنطرة أدركت أننا والزملاء الجدد مخبوزون فى فرن واحد بدرجة حرارة واحدة.. فاندمجنا معًا بعد أيام قليلة.. نتجه نحو الهدف.. مشحونين بغضب مكتوم وغيظ لا حدود له. وللجميع ثارات شخصية مع المحتمين بالنقط المحصنة. التدريبات التى خضتها، والاختبارات التى اجتزتها جعلتنى أكثر ثقة بنفسى وبقادتى وبالمستقبل. وفى اللحظة التى اندفعنا فيها لنؤمن رأس كوبرى الفرقة فى مواجهة القنطرة.. عرفت أهمية فرقة الصاعقة التى ذقت فيها المر.

فور وصولنا إلى القنطرة انهمكنا فى التعرف على مهام القتال الجديدة. هى ذاتها المهام التى تدربنا عليها مئات.. بل آلاف المرات فى سرابيوم. الفروق طفيفة. الوحدة عسكرت في منطقة سبخة ليس بها زراعة ولا خضرة إلا قليلاً. نبهنى الزملاء إلى الاهتمام بالسير على المدقات حتى لا تغرز العربات فى الأرض السبخة. افتقدت الخضرة وجناين المانجو والبرتقال وحقول البرسيم ووجه رئيفة!

ـ التقى بنا قائد الكتيبة وألقى علينا محاضرة أضاءت لنا الموقع الجديد. طمأننا بقوله: إنه يعرف الفرق بين جناين المانجو والسبخة القاحلة التى تقع فيها وحدتنا الجديدة. صمت قليلاً قبل أن يواصل: إن الوقت لن يطول، والتعرف على المهام والأرض سيبتلع كل الوقت، ولن يجد أحد منا وقتًا ليصاب بالبرد. ثم شرح لنا طبوغرافية الأرض المقابلة لنا فى شرق القناة. وفى اليوم الثانى شرح لنا على تختة الرمل خريطة مدينة القنطرة شرق، ومواقع النقاط الحصينة للعدو.

فى اليوم الثالث أوضح لنا أهمية القنطرة شرق. قال: سنحررها بإذن الله.. ستحررون مدينتين.. القنطرة شرق من قبضة العدو الغاصب، والقنطرة غرب من أسر مدفعيته الثقيلة التى لم تتوقف عن ضرب المدينة. ثم أمر قائد السرية أن يأخذنا فى جولة استطلاعية للتعرف على القنطرة غرب، لنتأكد أنها المدينة الوحيدة فى العالم التى تضررت كل مبانيها ومنازلها وأشجارها وهيئاتها من القصف المتواصل فى حرب الاستنزاف.. حتى إنهم دمروا الفرن الوحيد الذى يمد السكان المدنيين بالخبز. ثم رجانا ألاَّ ننسى أن مسجد القنطرة شرق حوله الجيش الإسرائيلى إلى مخزن للخمور. وسألنا إن كان هذا يرضينا، فأجبنا بالصمت، وشعرت بأنى أعض شفتى غيظًا. قبل أن يغادر قائد الكتيبة المكان طلب منا أن نسأل عن يسرى الشعراوى زميلنا فى ورشة الكتيبة ونعرف قصته. أسرعنا بعد المحاضرة نبحث عن يسرى متلهفين فحكى لنا حكايته. قال إنه من القنطرة شرق.. وقامت ٦٧ وهو يدرس فى كلية الهندسة بجامعة الإسكندرية. انتهت الحرب باحتلال سيناء فلم يتمكن من العودة لمدينته، وانقطعت السبل بينه وبين أسرته. ظل والده فى الشرق حتى توفى.. فلم يُصلِّ عليه الجنازة، ولا شهد دفنه، ولا تمكن من زيارته. إنه يحلم بأن يحرر القنطرة ليزور قبر والده ويقرأ له الفاتحة، ويعرف مصير باقى أهله هناك.

★★

سألتنى مئات المرات يا دسوقى.. عما حدث فى غيابك. كأنك تستزيد من الوجع الذى يضخه حديثى فى شرايينك. أحكى ثم تستوقفنى لأشرح تفصيلة أو واقعة بذاتها. كيف حدثت؟ ومن شهدها؟ قلت لك إننا كنا نعيش على أطراف البلدة ولا يوجد جيران قريبون منا. وبعد أن حلت الكارثة أصبح الانتقال ممنوعًا. كان أبى يخرج متسللاً ليحش الحشائش للجاموسة

والحمار، ويمنعنى من الخروج فأبكى. تحايلنى أمى ورئيفة لكى أهدأ: هو خائف عليك يا حبيبى. يصالحنى فيسمح لى بأن أخرج معه إلى الطلمبة لنملأ الزير، وأساعده فى نقل الطشت لنسقى البهائم. الطلمبة أمام الباب مباشرة.. لكنه يظل قلقًا ونحن خارج البيت. ندخل فيغلق الباب بإحكام.. ولا يتوقف عن متابعة المشهد من خلال شروخ النافذة. لا أطول النافذة فأضع بعض الأشياء المهملة فوق بعضها لأصعد عليها وأنظر من خلال الشروخ التى ينظر منها أبى فلا أرى شيئًا.

شاهدتُ إعدام أبى ضمن رجال القرية الذين أُعدموا.. فاشتعلت نار الحمى فى جسدى.. أفقت لأسمع صراخ أمى على فقد أبى.. ثم أفقتْ ثانية وهى تتحسسنى وتصرخ بأعلى صوت خوفًا علىّ. كنت أغفو وأفيق لأهذى. قالت لى فيما بعد إننى حكيت لها ما حدث بالتفصيل منذ اللحظة التى جمعونا فيها وساقونا إلى جسر السكة الحديد.. وحتى اللحظة التى رأينا فيها الجرافة تزيح الجثث لتلقيها فى المقبرة الكبيرة ، قبل أن تردمها بالرمال.

وكأن ما حدث لنا لا يكفى.. فأجبرونا على الرحيل. ساقونا إلى خارج البلدة. رأينا الأهالى يتجمعون على الطريق الترابى فى صمت حزين.. أحاطنا الجنود من كل الجهات.. عدا الجهة التى أمرونا بالسير نحوها. هددونا بالقتل إذا لم نمتثل للأوامر. وأمرونا بالمشى فى اتجاه نفيشة. ارتفعت همهمات الاحتجاج رغم الأنظار المتجهة إلى الأرض فى انكسار.. فأطلق الجنود الرصاص فوق رؤوسنا. صوت الرصاص أجبر الجميع على التحرك ببطء. لم أكن أعرف ما هى نفيشة، ولا أين تقع! كنت أسمع أبى يتحدث عن نفيشة فأظنها قريبة.

لم أنظر خلفى من شدة الخوف.. لكنى تعجبت كيف نترك الجاموسة

والحمار. قبل أن يسوقونا إلى خارج البلدة صرخت أمي: الجاموسة والحمار. فسبَّها الجنود المسلحون، وتضاحكوا وهم يرطنون بلغتهم الغريبة. والبيت.. لماذا فعلوا به ذلك؟ ما ننبنا لتأتى دبابة وتدهسه فتتساقط حيطانه على بعضها. انهمرت دموع أمي وهي تهمس لنفسها وتنظر حولها في خوف: العوض على الله في الرجل والبيت وكل حاجة.. الصبر من عندك يا رب.. يا قوى على كل ظالم. انتبه الجندى القريب منها فصوب نحوها بندقيته مهدداً.. فبلعت لسانها ومسحت دموعها.

★

عرفت اليتم مبكراً. مات والدي.. فغطست في بئر يفيض بحزن عميق. عانيت أكثر لمَّا تزوجت أمي بعد شهور الحداد. رأيت رجلاً ينظر نحوى بدهشة وريبة. نظراته تخزنى كأنها أشواك صبار.. فأشعر بألم حاد في جسمي. أنظر إلى أطرافي المتألمة متوقعاً أن أرى الدم ينبثق منها. انشغل عني قليلاً ببناته الثلاث اللاتى أنجبتهن أمي فوق رؤوس بعض. فإذا انتبه إلىَّ عادت أشواكه المدببة تشكني. لم أشعر أنه عاملني برفق إلاَّ ذات مساء وهو يشرب الشاي بعد العشاء. تنهد وهو يصرح لأمي بأنه اشتاق للولد. ردت عليه أمي بسرعة: ربنا يبارك في دسوقي.. هو أخو البنات ورجلهم.. يحطهم في نن عينه. واستدركت قائلة: ربنا يبارك في عمرك. رأيت الرجل ينظر نحوى كأنه يراني للمرة الأولى. عيناه تلمعان ببريق جديد لم أعهده. فاضت نظرته بالود. ثم مد يده وضغط كتفي بحنو وقال: خلٍّ بالك يا دسوقي من أخواتك. أصابتني لمسته ونظرته برعشة لم أشعر بها من قبل. نظرت نحوه دهشاً والدموع مناقير عصافير تنقر عيني بخفة.. تمالكت نفسي قائلا: ربنا يخليك حتى تزوجهنّ. فنظر إلى بعيد وأطلق تنهيدة طويلة أدهشتني، وقام لينام. انتهت إجازتي وعدت إلى الوحدة. بعد أسبوع واحد

أرسلوا لى برقية ليبلغونى بوفاة الرجل. لم أذكر له سوى نظرته الودود لى ولمسته الحانية لكتفى.. ففاضت عينى بالدموع، وأسرعت لألحق بالجنازة.. فوصلت إلى المقابر ساعة الدفن.

أصبحت مسئولاً عن أمى وأخواتى الثلاث. فى أول إجازة بعد وفاة أبى الثانى أعطيت أمى معظم راتبى فجاوبتنى بدموع غزيرة ودعاء شعرت أنه دق أبواب السماء. دعت الله القادر الكريم بأن يهدىء سرى، ويوفق خطواتى للخير، ويرزقنى ببنت الحلال.

لم يغادرنى الإحساس باليتم. حادثة ضربى للجندى المتطوع نبهتنى إلى ضرورة التحرى عن الجنود المتطوعين الجدد. ظننت أن كثيرين منهم يعانون مما عانيت. وربما يتعرضون لظروف أصعب بكثير مما تعرضت له. صادقت كثيراً منهم.. وعاملتهم بمزيج من الصرامة والحنو. الصرامة فى طوابير التدريب واختراق الضاحية وضرب النار واللياقة.. والحنو عليهم بعد انتهاء يوم العمل.. أتعشى معهم، وأتقصى أخبار الأهل وأحوال الأولاد، وأشاركهم الغناء والاحتفال بمناسبات الزواج والولادة والطهور، وأحرص على مواساة الحزانى، وأفض اشتباكات سوء الفهم واختلاف الطباع، وأعقد جلسة عرب إذا كان المتخاصمون من الصعايدة أو من عرب البحيرة أو الشرقية.

ذلك الإحساس تحول إلى حاسة تجعلنى أشعر به عن بعد. عانيت منه لما رجعت من القنطرة بعد وقف إطلاق النار.. حيث اكتشفت حجم المأساة التى حدثت فى سرابيوم.

يتوارى هذا الشعور وراء مشاغل الحياة. لكنه يصحو ليطل برأسه.. أحيانا بمناسبة.. وأحيانا بغير مناسبة. حين وقع السادات معاهدة السلام مع المفترين هاجمنى هذا الشعور الأليم. أعرف أنه صاحب قرار الحرب.. وأنه استند إلى بطولته وانتصارنا لينجز السلام.. لكن أى سلام؟! يقولون

إن الناس فى بلادنا تحملوا تضحيات كبيرة، وحان الوقت ليستريحوا من بشاعة الحروب وآثارها الفظيعة. هذا الكلام على عينى وعلى رأسى.. لكننى أظن أننا كنا نستطيع.. ببعض الصبر والصمود.. أن نحصل على شروط أفضل. ثم كيف تنتهى الحرب ولى معهم ثأرٌ كبير؟!

★★

كنتَ فى القنطرة.. عبرتَ وقاتلتَ وتوغلتَ فى أرض سيناء. وكنا فى سرابيوم نقاسى كل المرارات.. مرارة اليتم والقهر والذهول والخوف الدائم. نعانى انقساماً بين هزيمة نراها بأعيننا.. ونصرٍ جعلك مزهواً بتحرير القنطرة، وأسر الجنود المهزومين. لم يكن معنا سلاح.. ولو كان معنا.. لما عرفنا كيف نستخدمه. لم يخفف عنا إلا العمليات التأديبية التى كان ينفذها رجال الصاعقة كل ليلة. نبتهج إذ نسمع صوت انفجار دبابة، أو صرخات الجرحى بلغتهم الغريبة. جنودنا جعلوا إقامتهم فى الجنائن تشبه العيش فى الجحيم. لم يجدوا منّا فائدة بعد أن قتلوا الرجال.. فطردونا من سرابيوم، وأجبرونا على أن نترك الجاموسة والحمار والأرض التى نزرعها، وهدموا البيت.

صرختُ وأنا أعانى من الخوف: لماذا يا رب؟! شعورى بالعجز يبكينى، لكن بكاء أمى الغزير، وإعياء رئيفة، والصياح المستمر لمنصور وخالد، جعلنى أجفف دموعى وأتصرف كالرجال. أنهر الصغيرين ليصمتا، وأتوسل إلى أمى لتجفف دموع خوفها على رئيفة التى اقتربت ولادتها. تأملت طابور العجائز والبنات الصغيرات والصبية والأطفال.. فتمنيت لو كنتُ كبيراً لأحارب الكلاب التى تنبح علينا، وتهددنا بالقتل، وتضربنا بأعقاب البنادق، وتسبنا بشتائم أخجل أن أنطق بها.

أحسست بالتعب والجوع. نظرت إلى أمى مستنجداً.. فبصّت نحوى فى

حزن.. كأنها تقول: اصبر يا حبيبى. تأملت ملامحها المتعبة فرأيت فى عينيها دموعًا طازجة تترقب أية حجة لتهطل. تذكرت أنى رجل العائلة فتصبرت. رأيت رئيفة تشحب وخطوتها تبطىء. لمحت زمزمية فى يد امرأة مسنة.. فمددت يدى استسمحها لنسقى رئيفة والطفلين. فأعطتها لى، لكن نظرتها أرعشتنى.. كأنها تقول: خذ واشرب.. لكننا لن نصل إلى نفيشة أبدًا. شرب الطفلان وشربت رئيفة وخجلت أن أشرب، وأعدتها فى صمت.. لكن المرأة ردتها فى رقة وهى تهمس: اشرب يا حبيبى. رشفت رشفة صغيرة وأنا أغالب دموعى.. وأعطيتها الزمزمية شاكرًا. عضَّنى الجوع ككلب مسعور.. فهاجمتنى رائحة الخبيز التى تفوح من فرن بيتنا. فكَّرتُ: أنصل نفيشة قبل حلول الظلام؟ أم سنضيع فى الطريق؟ وما مصير رئيفة التى تجر قدميها بصعوبة؟ لو تركونا نخرج بالحمار لاستطعنا أن نحمل رئيفة عليه. حطَّ الهمُّ على صدرى فأخذت أتلفت فى ذعر.. باحثًا عن أية ركوبة لنحملها عليها.. فلم أر حمارًا واحدًا.. ولاحظت أن غالبية السائرين يمشون حفاة.. وملابسهم مهلهلة. تذكرت أنهم فاجأونا ولم يسمحوا لنا بأى وقت ليغير الواحد منا ملابسه، أو يدس قدميه فى مداس.

أقدام السائرين فى اتجاه نفيشة تثير سحابة من تراب ناعم تكتم الأنفاس. لمحت العجوز التى أعارتنى الزمزمية تسقط على الأرض. اقتربنا منها لنساعدها على النهوض.. فاكتشفنا أنها فقدت الوعى. وقفنا متحيرين.. لكن الجنود الذين يحرسون الطابور انقضوا علينا، وأجبرونا على تركها ومواصلة السير. همَّ أقرباؤها بالاحتجاج فانقض الظلمة عليهم ضربًا وركلاً وسبًا، ثم أطلقوا الرصاص فى الهواء.. فواصل الطابور سيره بدونها. تأملت المركبتين اللتين ترافقان الموكب. فى مقدمة كل واحدة ماسورة مدفع غليظة جهمة تبدو جاهزة للإطلاق، وعلى جانبيها يقف جنود غلاظ

يحملون بنادقهم القصيرة فى وضع الاستعداد للضرب.

أمسكتُ بيد أخى منصور، وأخذت أمى بيد رئيفة، بينما تحمل ابن خالتى خالد على كتفها. مضى الطابور ببطء، والجنود المحيطون بنا يزعقون لكى نسرع. كنت مشغولا بمنصور الذى يبكى فى صمت.. فاخترقت أذنى صرخة أمى الملتاعة: رئيفة. نظرت فأبصرت رئيفة ممددة على الأرض. انكفأت على الأرض لأحثها على النهوض بلا فائدة. كانت تتنفس بصعوبة وتحاول أن تتكلم. لكن الكلمات لا تخرج من فمها. رأيت أمى وقد ركبها الجنون والكلام يندفع من فمها ناقصاً وبغير ترتيب: شدى حيلك يا حبيبتى، خلاص يا رئيفة قربّنا، قومى يا بنتى، اجمدى يا ضنايا، كلها دقائق ونصل لنفيشة. ورئيفة لا ترد.. عيناها زائغتان، والعرق ينز من وجهها الشاحب. رأيت فى عينيها نظرة ألم وأسف. مددت يدى لأساعدها على القيام، فخرق سمعى صوت طلقات الرصاص مصحوبة بشتائم الجنود. تراجعت فى خوف. ثم تقدمت مرة ثانية عندما رأيت أمى تتشبث برئيفة، وتصمم أن ترفعها من الأرض لتسير معنا. بعض النساء حاولن مساعدة أمى ورئيفة، فساد الهرج. صاح قائد الجند صيحة هائلة أعادت النظام على الفور. هدد القائد بالضرب فى المليان. لم تأبه أمى بصيحته وواصلت الصراخ. لم يهدئها إلا أن الرجل قال فى هدوء: اتركوها لنعتنى بها. نظرت أمى إلى الرجل فى ذهول.. فأكد أنه سيعتنى بها. ثم أعلن أنه سيقتل الجميع إذا لم يصلوا إلى نفيشة قبل المغرب. هذه هى التعليمات التى أخذها من قادته.

لا أعرف كيف انتظم الطابور ثانية؟ ألأن الرجل طمأننا على رئيفة؟ أم لأنه هددنا جميعا بالقتل؟ ولماذا صدقناه بسهولة؟ هل صدقناه تحت ضغط طلقات الرصاص التى كانت تخترق الصمت؟ وماذا كنا نفعل إذا لم نصدقه؟ أمى تولول وتصرخ وتلطم وجهها وتواصل المحاولة لتقوم رئيفة..

والنسوة يجبرنها على القيام والانتظام فى السير. أحطن بها حتى لا تسقط على الأرض من فرط الانهيار.. كأنهن تواطأن مع القائد لإقناعها بترك رئيفة فى رعايتهم حتى لا يتعرضن للقتل؟ تغاضى الحراس عن صراخ أمى مقابل أن يستمر الجمع فى السير. كانت تبكى بشكل هستيرى، والنسوة يسقن إليها تعهدات القائد الذى أكد أنه سيعتنى بها.

أتعجب.. كيف تركنا رئيفة فى رعاية الأعداء؟ ولا كيف وصلنا إلى نفيشة؟ أعرف فقط البكاء الذى هزمنى فلم أشعر بالطريق. أفقت على منصور وخالد محمولين على كتفى صبيتين مذعورتين. وأمى تصلب عودها بصعوبة، ولا تكف عن البكاء. قبل نفيشة بقليل أشار الجنود إلى الطريق الذى سنسلكه. تركونا نبتعد قليلًا ثم أشاروا فتوقفنا. حددوا لنا النقطة التى نقف عندها. قالوا إنها الحد النهائى لنا، وأن من يتخطاها سيقتل على الفور.

★★★

لا أنسى يوم جلست بجوارى وأنت تتنحنح.. عرفت أنك تريد الحديث فى موضوع يشغلك.. طبطبتُ على كتفك وشجعتك على الكلام.. فقلتَ:

– تذكرين أبلة زاهية يا أمى؟

عرفت أنك تحب فدخلتُ فى الموضوع وقلت فى حيرة:

– الحب أحلى شىء فى الدنيا يا ضنايا.

ظننتُ أنك تفكر فى ابنة جارنا التى تتعمد زيارتنا كثيراً أثناء إجازاتك فأكملت:

– يدى على كتفك.. لو تحب أخطبها لك حالاً.

أحنيتَ رأسك ولم تنطق.. أقلقنى سكوتك.. قلتُ فى رجاء:

– ما الحكاية يا حبيبى؟

رفعتَ رأسك ونظرت فى وجهى بقوة، وقلت فى حنان:

– بنت من سرابيوم.

ضربت صدرى وأنا أشهق:

– يا مصيبتى.

– ظننت أن تفرحى لى.

نظرت إلى وجهك فرأيت الدموع تسيل على خديك.. دموعك أربكتنى.. لم أعرف ماذا أفعل.. أدركت أننى تسرعت.. فقلت:

– دموعك نار تحرق قلبى.. أنا خائفة عليك يا حبيبى.. تبعد عنى وعن أخواتك.

سكتنا ، أخذت أردد المثل:

– "قالوا فين بلدك يا جحا ، قال اللى فيها مراتى".

وجدتُك تنحنى على يدى تبوسها وتبللها بدموعك.. كنتَ تبكى بغير صوت.. أخذتك فى حضنى حتى هدأت.. خفت عليك.. فقلتُ وأنا متحيرة:

– احكِ لى يا نور عينى.

وحكيت..

★

هل كنتُ على حق عندما طلبت إحالتى للمعاش؟ لماذا صممت على التقاعد.. خاصة وأنا لا أشعر بالانسجام إلا مع النظام العسكرى؟ أجابونى إلى طلبى بعد إلحاح. قادتى حاولوا إقناعى بالصبر عدة سنوات حتى أصل لسن المعاش.. لكننى رفضت. كنت مشتتًا بين عشقى للنظام العسكرى ورفضى لخطوات السلام. قلت لهم: إن السلام لن يتحقق مع هؤلاء إلا بعد حروب رهيبة. قالوا: إن التاريخ يسجل كثيراً من المعاهدات المنقوضة والتحالفات المفضوضة. صلاح الدين الأيوبى لم يحقق النصر على الصليبيين إلا بعد عديد من الحملات التى خاضها ضد الإمارات الصليبية. وفى خلال هذه الحروب وبعدها أبرم معاهدات لها العجب.

قابلت إعلان الرئيس باستعداده للذهاب إلى القدس بابتسامة كبيرة. اعتبرت أنه نوع من الدعاية أو التهويش. ولمَّا رأيتهم يستقبلونه فى المطار أصابتنى صدمة أذهلتنى. تابعت الخطابات والتصريحات وشاهدت الصور والأفلام فلم أفهم شيئا. اكتملت الصدمة بعد وصولهم إلى بلادنا. لا أعرف ماذا حدث بالضبط عندما عرفت أن بيجين ودايان ووايزمان نزلوا من الطائرة التى هبطت فى مطار أبو صوير، وأنهم توجهوا لمقابلة الرئيس فى استراحته بالإسماعيلية. كان هذا أكثر من طاقتى على الاحتمال. صعبت علىّ نفسى فبكيت. أفقت وأنا أرتعش. زملائى حاولوا تهدئتى. ثم أبلغوا قائد السرية.

لا أذكر التفاصيل. لكنى عرفت أنهم نقلونى لمستشفى القصاصين، وأننى كنت أتخبط بين الحرارة المرتفعة والهذيان. بعد أن أفقت سألنى أحد المرضين هامسًا: من هى رئيفة التى كنت تصرخ باسمها؟ أجابته دموعى.. فأمسك بيدى وتمتم معتذرًا. وجلس بجانبى يواسينى وهو فى شدة الندم. الحرج الذى أصابه دفعنى للكلام.. قلت له: كيف يأتون وينزلون فى مطار أبو صوير الذى خرجت منه طائراتنا لتدمر حشودهم ومراكز قيادتهم.. كيف يوسخون أرض أبو صوير.. حيث كان يتمركز تحسين شنن بلوائه المدرع الذى أذاقهم الويل؟ وكيف تأخذهم السيارات ليقابلوا السادات فى الإسماعيلية.. المدينة التى حاولوا اقتحامها فاستعصت عليهم.. وأهينوا على مشارفها.. أشعر بما حدث ساخنًا فى قلبى ودمى.. ولا أستطيع أن أفهم ما يجرى!

كنا نحيط الثغرة بإحكام. وقد وصلت توا من القصاصين ضمن مجموعة استطلاع مقاتلة تحت قيادة رائد من أكفأ رجال الصاعقة فى الجيش. كنا نتأهب لنأخذ مواقعنا على الحد الأمامى لقواتنا بعد نقطة الكيلو ٨٦ بقليل

على طريق القاهرة الإسماعيلية. عيد الأضحى يقترب.. ونرغب فى ذبحهم. سرى النشاط بين رجال المهندسين. رأيتهم يقتربون من الحد الأمامى، ويجهزون معداتهم ويختبرونها فى صمت. ظننت أنهم يستعدون لفتح ثغرات فى حقول الألغام التى أحطنا بها القوات الإسرائيلية.. سرت الفرحة داخلى، وخشيت أن تقفز من صدرى وتفضحنى.. فالكلام ممنوع. فرحة ما تمَّت. قبل الفجر بقليل شاهدت رجال المهندسين يجمعون معداتهم وينسحبون فى بطء. الوجوم الذى بدا على وجوههم أدهشنى. همست لأحدهم: إيه؟ فهز رأسه أسفًا وهمس: كما كنت! شعرت بدوار.. وخطر فى بالى أننى أتوهم أشياء غير حقيقية بسبب ألم الترقب والانتظار. كنت أنتظر هذه اللحظة كأنها ليلة القدر.. لنذيقهم علقة ساخنة كعلقة السادس من أكتوبر. منذ شهرين والقيادة ترتب لهذه اللحظة.. فكيف نتخلى عنها بهذه السهولة؟ ظننت أنه مجرد تأجيل.. لكن الأيام التالية أشارت أن هناك اتصالات تجرى.. وربما يعقدون اتفاقًا قد ينهى حالة الحرب.

فى اللحظة التى وافقوا فيها على إحالتى للتقاعد.. أحسست بدماغى فارغاً، وأننى معلق فى الهواء. لم أخطط لما بعد الخروج من الخدمة. عاودنى الشعور باليتم وواجهنى السؤال: ماذا تصنع بحياتك يا دسوقى بعد أن أجابوك إلى طلبك؟ ظن القريبون منى أننى سأشد الرحال إلى قريتى لأتزوج، وأسعد بصحبة أمى وأخواتى، وأتفرغ لرعايتهن. لكنى قررت، بغير تردد، أن أبقى فى سرابيوم. قضيت الليلة الأولى فى حجرة رئيفة.

صحوت مع أذان الفجر كما تعودت.. صليت وأعددت شايًا شربته تحت التوتة. ثم قمت.. مشيت نحو المصطبة.. طلعتها بآلية من اعتاد ذلك.. وصلت إلى حافة القمة وجلست أتأمل الشرق البعيد.

لم أعرف أية قوة قاهرة تدفعنى لذلك! ظللت أتأمل الأفق الشرقى، وأتابع

ستارة الليل العملاقة وهى تنحسر مرغمة؛ ليستيقظ النهار متدرجًا فى ألوانه البهية.. فيبدو كنائم يتقلب على سريره الكونى.. ومع تقلبه تتدرج الألوان من العتمة.. فتتفتح وتزهو. وهو يمعن فى تقلبه إلى أن تطلع الشمس من خزانتها الليلية العميقة فى تؤدة وترفق وأناقة.. قبل أن تفرض وجودها، وتجبر البشر على أن يتواروا من شدة حرها. فى ذلك اليوم.. تجلت الشمس واستوت فى قلب الأفق، فتذكرت قريتى، وجلوسى لمراقبة القرص الأحمر، وتحذير أبى فدمعت عيناى. فى صباح اليوم التالى كررت ما فعلته فى اليوم الأول بنفس الترتيب. صارت قدماى تعرفان الطريق إلى المصطبة بآلية وبغير تردد. أمضى وقتى على المصطبة أتسمَّعُ صرير الحكايات تحت ضلوعى، وأسترجع ويلات الحرب.

★★

وصلنا نفيشة بعد المغرب بقليل.. منهكين من الخوف والجوع والعطش والبكاء. لم نعرف أين نذهب؟ وكيف نأكل؟ وفى أى مأوى نبيت؟ رأينا القرية الصغيرة تزدحم بالنساء والأطفال والعجائز والرجال المحطمين.. المطرودين من قراهم مثلنا. كانوا يفترشون الأرض ويهيئون دِرْوَة بالصاج الخردة وبقايا الأخشاب ليختبئوا فيها بعيدا عن الأعين. النساء اللائى كن يحطن بأمى خجلن أن يتركنها فقاموا بضمنّا جميعًا إليهن. اخترن جدارًا متهدمًا وتوارين خلفه. بعد لحظات جاءت امرأة ومعها قلة فسقتنا. شربنا بنهم فهدأنا قليلاً. عادت المرأة بعد قليل ومعها عدد من كيزان الذرة المشوية، فأكلناها بشراهة.

قمت من نومى مفزوعًا على صوت بكاء أمى. أفقت على الحقيقة التى أخفاها القهر.. رئيفة. بكاء أمى أوجع قلبى. شعرت بخواء مخيف. قفز السؤال الأليم إلى رأسى: ماذا حدث لرئيفة. آه يا رئيفة. أمى تبكى والنسوة

يُصبِّرنها بإخلاص. لا أصدق أن تعود لنا رئيفة. وظننت أننى لن أراها ثانية. كيف أصدق القائد الذى أكد أنه سيعتنى بها.. وهو الذى قاد الطابور فى وحشية، وسمح لجنوده أن يضربونا ويسبونا بأفظع الشتائم، ورفض أن نأخذ الجاموسة والحمار، وهو الذى أمر الدبابة بأن تهدم المنزل، ولم يسمح لأحد أن يساعد المرأة العجوز التى وقعت من شدة الإعياء. ماذا يجبره على العناية بها؟ إلا إذا كان ينوى... هكذا تحول بكائى إلى عويل مؤلم. أفقت لأجد أمى تكفكف دموعى، وتحاول تهدئتى بإقناعى أن رئيفة ستعود لنا قريبا.

★

لا يعرف بشاعة الحرب إلا من خاضها. عشتُ فظاعتها وأهوالها. وشاهدت كثيرا من الجنود وبعضًا من قادتى يسقطون أمامى جرحى وشهداء. لم أشعر بخوف. من يصنع الخطر ويفاجئ به الآخرين لا يخاف.. الخوف لمن ينتظر حدوث الخطر. وهذا ما حدث فى القنطرة. كنت ضمن الموجة الأولى التى عبرت القناة. لا يصدق البعض أننا استولينا على أول نقطة حصينة فى خط بارليف بعد عشر دقائق فقط من عبورنا للقناة. وقبل مرور الساعة الأولى أسقط زملاؤنا خمس نقاط أخرى. سقوط النقط الحصينة أشعل حماسنا. صدرت التعليمات لمفرزتنا بالاندفاع للأمام لاستطلاع التلال الحاكمة والتحضير لتقدم رجال المشاة. نفذنا عدة وثبات. نتوقف بعد كل وثبة لنبلغ عن موقعنا وأوضاع العدو، ونلتقط أنفاسنا وننتظر التعليمات. عندما خيم المساء، كان رجال المشاة يحتلون حدود رأس الكوبرى الذى التأم بعمق خمسة كيلومترات، وأصبح جاهزًا لصد هجمات العدو. ورصدنا دبابات العدو التى تستعد لتنفيذ الهجوم المضاد، وأبلغنا القيادة عن أعدادها وتسليحها.

لم أصدق أن الحرب بدأت إلا بعد أن اقتحمنا النقطة القوية فى جنوب القنطرة، وفجرنا أبوابها الفولاذية، ومشطناها وطهرناها، وعاينت جثث القتلى. بدا الأمر يسيراً للغاية.. وكأننا نخوض مشروعا كالذى نفذناه على ترعة الإسماعيلية قبل الحرب بشهر. المفاجأة.. لا.. ليست المفاجأة ما حدث.. ما جرى أبعد بكثير من معنى المفاجأة.. لم يخطر ببالهم أن نملك الجرأة لنهجم عليهم. عرفت قيمة التدريب المستمر للجندى، وفوائد وضعه تحت الضغوط المتنوعة، وتعريضه للظروف المناخية المختلفة.

المعلمون فى مراكز التدريب تعمدوا محو رغباتنا الشخصية فى مواجهة النظام العسكرى. نصحو وننام ونقوم ونتحرك ونتدرب حسب الأوامر: لا ترفع رأسك أثناء الزحف تحت الأسلاك الشائكة حتى لا يجرحك السلك. لو رفعت رأسك فى الحرب فستصيبك رصاصة فى رأسك. حياتك هى الثمن. ندخل صالة الطعام فيعطينا القائد خمس دقائق فقط للانتهاء من تناوله. بعد ثلاث دقائق يهتف: ثابت. فيثبت كل جندى على وضعه. فلا يستطيع أن يتناول لقمة أخرى. يصدر الأمر بالانصراف فنعجب. قال لنا رقيب السرية: العدو لن يتركك تهنأ بأكلتك، ويجب أن تتدرب على ذلك. يُعاقب الطابور كله إذا أخطأ جندى واحد فيه. نتعجب فيقول لنا القائد إن الفصيلة فى الحرب معرضة للفناء إذا أخطأ أحد أفرادها.. ولذلك فإن المجموعة تُحاسَب على غلطة الفرد حتى لا تضيع بأكملها أثناء العمليات.

فى فرقة الصاعقة صحونا فجراً. صدرت التعليمات بطابور عدْوٍ لعشرة كيلومترات. رجعنا إلى الخيام نشتهى إفطاراً جيداً. صدرت التعليمات بالخروج من الخيام فخرجنا. وزعوا الإفطار علينا فى القروانات. صدر الأمر قبل أن نبدأ الأكل: ثابت. فثبتنا. ثم: ألقوا الطعام على الأرض. فرمينا الطعام على الرمال. صدر الأمر الأخير: اجلسوا وتناولوا الطعام. نفذنا

الأمر.. فخلصنا الطعام من الرمال وأكلناه بشهية. قال القائد: ستواجهون هذا الموقف فى الحرب.. طعام بالرمال.. بل بالقاذورات.. ويجب أن تأكلوه حتى لا تموتوا جوعًا. ذات صباح اصطففنا والبشر يتردد فى صدورنا دون أن يظهر على وجوهنا. القائد يعرف مقدار الفرحة. اصطففنا ببدلة الفسحة لنتسلم تصاريح الإجازة. كل واحد فينا يحلم بأن يقضى إجازته كما خطط لها. قرر القائد أن يفتش الطابور. اكتشف مخالفتين فى مظهر اثنين من الجنود... فاكتفى بأن أعطانا طابور توبيخ لمدة ساعة، ثم أمرنا أن نزحف مسافة ببدلة الفسحة. وعندما اصطففنا ثانية قال إن مظهرنا صار لا يسر عدوًا ولا حبيبًا، وأمر بتأجيل تسليم التصاريح إلى موعد لاحق لم يحدده. ثم صرف الطابور.. فانصرفنا فى صمت. وانتظمنا فى العمل. بعد عدة ساعات أمر أن نجهز بدلة الفسحة فى ساعة واحدة لنتسلم تصاريح الإجازة فى طابور التمام.

فى طوابير ضرب النار يجب أن نصيب منتصف الهدف.. فى السوادة بالضبط. غير مسموح بالخطأ فى إصابة الهدف. يتعرض الواحد منا للعقوبات المختلفة حتى يحقق أعلى النتائج. فى الحرب يجب أن تكون الطلقة برأس جندى من العدو. وإلا فإن رأسك هو الثمن.

فى مدارس الجيش تعلمنا أن نسأل ونكرر السؤال لنفهم. والمعلمون لا يملون من التكرار. يقولون: إن مهمتنا أن نشرح حتى تحفظوا الدرس. ثم نطبق الدرس بشكل عملى على الجهاز أو المعدة أو السلاح. ينتهى الدرس بإقرارنا بتمام الفهم. حينئذ يبدأ المعلم فى سؤالنا.. وويل لمن لا يجيب. فى مدرسة الاستطلاع حاضرنا ضابط كبير عن تكتيك جمع المعلومات وتقديمها مرتبة حسب أهميتها. قرب نهاية المحاضرة رفع أحدنا يده سائلاً عن الفرق بين التكتيك والاستراتيجية. سأله الضابط عن سبب السؤال، فرد السائل

بأنه يسمع الكلمتين متلازمتين ولا يفهم مدلولهما. قرر الضابط أن يعطينا محاضرة خاصة عن هذا الموضوع. بعد انتهاء المحاضرة أحسست أن فهمى للأشياء صار أفضل، واستطعت أن أجد إجابات لأسئلة كثيرة كانت محشورة داخل رأسى. فيما بعد سئلتُ هذا السؤال فأجبت الجندى المستجد وكان من المؤهلات العليا. قلتُ له: لو هدفك الاستراتيجى نسف النقطة الحصينة فإن طرق تنفيذ هذا الهدف هى التكتيكات التى تحقق لك النجاح. أما إذا كان الهدف هو الاستيلاء عليها واحتلالها فإن تكتيكاتك ستختلف.. كتحديد طرق الاقتراب وعدد المهاجمين وتسليحهم وموعد الهجوم والمساعدات المطلوبة.. إلى آخره. لكن إذا كان هدفك الاستراتيجى هو تحرير مدينة القنطرة شرق، فإن أهدافك التكتيكية ستتغير لتتلاءم مع الهدف الجديد. هذا الجندى صار صديقًا لى. واعترف بأنه سألنى هذا السؤال ليحرجنى، وأنه فوجىء بإجابتى.

★★

أيقظتنى الشمس الحارقة.. أشعر بالعطش والبلل، وأسمع بكاء أمى، ولغط النسوة يحاولن إقناعها بالصبر، وبأن الغمة ستزول قريبًا. بحثت عن منصور وخالد فوجدتهما يلعبان مع بنت فى مثل عمرى تقريبا. تجرى وهما يجريان وراءها ويضحكون فى حبور. هدأت قليلًا وفكرت فى أمى.. شعرتُ أنها ستموت إذا لم نعثر على رئيفة.. غلبنى البكاء فانزويت إلى جانب السور المتهدم الذى بتنا بجواره.

سمعت صفارة طويلة فقمت أنظر وأنا أدعك عينى. لمحت على البعد تجمعًا من الأهالى.. ورأيت كل من يستطيع الحركة يسرع نحو الساحة التى صارت مزدحمة. أسرعت بعد أن استأذنت أمى الباكية لأرى ما يحدث. شاهدت المتجمعين يجلسون على الأرض فجلست مثلهم.

رأيت ضابطًا يجاهد لكى يجلس الجميع ويصمتوا ليستطيعوا سماع ما سيقوله.. كان يلبس بدلة مبرقشة، فعرفت أنه من وحوش الصاعقة. هدأ الجميع فتكلم بصوت واضح: لقد انتصرنا فى الحرب لأن الله معنا والحق فى جانبنا.. وحررنا أرضنا التى اغتصبها العدو قبل ست سنوات فى سيناء.. رأيتم بأعينكم كيف عبر جنودنا القناة وهم يهتفون: الله أكبر.. كما سمعتم المدفعية وهى تضرب مواقع العدو.. وشاهدتم صواريخنا وهى تسقط طائراتهم كالعصافير.. لو رأيتم أبطالنا وهم يقتحمون النقط الحصينة للعدو ويدمرون معداته ويقتلون جنوده ويأسرونهم، لتأكدتم أننا انتصرنا عليهم. سكت قليلاً ثم تغيرت نبرة صوته بالحزن وهو يقول: أنا أعرف وكل القادة يعرفون ما حدث فى الدفرسوار وسرابيوم.. العدو يقوم بعملية فاشلة لن تفيدهم شيئًا.. لقد تسللوا إلى قراكم ليلفتوا نظر العالم عن هزيمتهم.. وليقولوا إنهم يحاربون فى غرب القناة كما يحارب المصريون فى شرق القناة.. إنهم لن يفلحوا أبدًا.

أحببت هذا الرجل. طريقته فى الكلام أقنعتنى أنه صادق. ذكرنى بك يا دسوقى فغامت عيناى بالدموع. توقف قليلاً فانتبهت إلى وجود بعض الجنود والضباط حوله. واصل الضابط كلامه: نعرف ما فعلوه برجالكم ومواشيكم وبيوتكم.. ونعرف أنهم احتلوا المساجد وجعلوها مطابخ لجنودهم، وحولوا المآذن إلى نقط ملاحظة يحتلها القناصة، وأتلفوا حقول الذرة حتى لا يختبىء فيها أحد من جنودنا، ودمروا زراعات السمسم والفول السودانى والطماطم، وخربوا جنائن المانجو والبرتقال، وأتلفوا النخل، وسرقوا ذهب النساء بالإكراه.

الضابط كان يقف على طاولة تعلو عن الأرض قليلاً. تأكدت أنه يعرف كل شىء. تذكرت جندى الصاعقة الذى جاءنا فى البيت وقال إنهم يعرفون

كل ما فعلوه بنا. تذكرت الطعام الذى أحضروه لنا.. فشعرت بجوع شديد.. لم آكل شيئًا بعد الذرة المشوى فى الليلة السابقة.. فكرت فيما سيفعله هذا الضابط ليوفر لنا الطعام.

ارتفع صوت الضابط عاليًا: أقسم بالله العظيم أن نأخذ بثأر كل شهيد سقط برصاص الجبناء. وأن نقتل عشرة منهم مقابل كل رجل سقط منا. انتبهوا لأننى سأذيع عليكم سرًا. لقد صدرت أوامر قائد الجيش بأن يتولى العقيد أحمد أسامة إبراهيم حمايتكم فى نفيشة وأبو عطوة.. وتأديب العدو الجبان.. وللعلم.. فالعقيد أسامة إبراهيم قائد مجموعة من وحوش الصاعقة.

تذكرت أبى فبكيت. وسمعت كل من حولى يبكون. صمت الضابط احتراما لذكرى الشهداء. ثم علا صوته قائلا: شهداؤنا أحياءٌ عند ربهم يرزقون.. أنتم منذ الآن فى عهدتنا.. والجيش مسئول عنكم وعن إعاشتكم.. والعقيد أسامة إبراهيم هو القائد فى هذه المنطقة.. ولولا مشاغله لأتى لزيارتكم والاطمئنان عليكم. من هذه اللحظة سأكون مسئولاً عن تسهيل إعاشتكم هنا حتى ترجعوا بالسلامة لبيوتكم وأرضكم.

تمنيت أن أقوم وأجرى نحو هذا الضابط لآخذه فى حضنى وأشكره. نظرت فرأيت المسافة بينى وبينه بعيدة ومزدحمة بالنساء والعيال والشيوخ.. فبقيت فى مكانى.. وقلت فى نفسى: سأقابله بعد أن ينتهى الاجتماع وأحكى له ما جرى لنا.. وأطلب منه أن يبحث عن رئيفة.

انتظر الضابط قليلاً وأخذ ينظر فى وجوهنا ببطء. ثم كست الصرامة وجهه.. لدرجة أنى ارتعشت من الرهبة. علا صوته وهو يلقى بتعليماته إلى الجميع: العقيد أركان حرب أسامة إبراهيم هو القائد هنا.. وأوامره تنفذ على الجميع. لقد أمرنى أن أدافع عنكم وأرعاكم.. لا تنسوا أن العدو على بعد أمتار منا. ويمكن أن يهاجمنا فى أى وقت. وعليكم تنفيذ الأوامر التى

أصدرها فى الحال ودون مناقشة.. لأن الدقيقة تفرق بين الحياة والموت.. وأتمنى لكم السلامة جميعًا.

تذكرتك يا دسوقى فكدت أبكى.. لكنى تماسكت باعتبارى مسئولا عن أسرتى التى تشتتت.. سمعت كلامك يرن فى أذنى.. عن الضبط والربط وتنفيذ الأوامر بدون مناقشة. واصل الضابط كلامه: معى مجموعة ضباط وجنود سيقومون بتسجيل أسمائكم وبياناتكم فى أوراق تحفظ لكم حقوقكم. مطلوب منكم النظام والهدوء. لن أسمح بخناقات أو أصوات عالية أو هرج. والجيش ضامن لحقوقكم بشرط التزام النظام. الحاكم العسكرى أمر بتشغيل مخبز خاص بكم سيبدأ عمله من اليوم. وبعد قليل ستأتى عربات تحمل الخيام.. وسيقوم الجنود بنصبها ثم نوزعكم عليها. وسنختار مجموعة منكم لمعاونتنا فى نصب الخيام وتوزيع الطعام وفرض النظام وتوصيل الشكاوى والإبلاغ عن المخالفات.

★★★

لا أنسى كلماتك يا ضنايا. كنت تحكى وكأنك هناك.. معها.. تراها فتصفها لى. تسللت كلماتك إلى قلبى فارتعش. لم أتصور أن يلين قلبك لبنت من سرابيوم وتحبها بهذه السرعة. سرحت عيناك بعيدًا وأنت تحكى.. فى الأول تكلمت ببطء وتردد، ثم نسيت نفسك وتحولت إلى رجل يدافع عن نفسه وحبه وحياته. عرفت أنك أصبحت مقاتلاً قويًا، وأنك مؤهل بحق لتحويل العساكر المستجدين إلى مقاتلين.

قلتَ لى: بلدى هى بلدك وبلد أخواتى.. أنسى كل شىء ولا أنساكم.. أنتم أهلى وعزوتى.. لو تعرفينها يا أمى.. كأنها واحدة منكم.. لمَّا شفتها وهى تسحب الجاموسة فى اتجاه البيوت آخر النهار! كنت أقف بجوار العربة المصفحة.. لاحظت أنها تتلفت حولها فى توتر.. قلت لها: السلام عليكم. لم

ترد.. قلت: أمامى عشر دقائق، هل يمكن أن أساعدك؟ تشجعت وقالت: أخى الصغير متولى تركنى ليلعب على شط الترعة.. أنا خائفة عليه.. المساء دخل. ناديت بأعلى صوتى: يا متولى.. يا متولى. بعد لحظة رأيت ولداً صغيراً لا يتجاوز الثامنة يتقافز بين أعواد الهيش المنتشرة على جانب الترعة الضحلة ويرد بصوت معابث: "عاوز إيه يا عسكرى". ابتسمت وأنا أقول له: أختك تبحث عنك يا حضرة الصول. وقف الولد أمامى مقلداً الجندى فى وقفته.. شد قامته وأدى التحية العسكرية، وقال وهو يحاول تخشين صوته: تمام يا أفندم. قلت له: استرح يا حضرة الصول. نفذ الأمر وحرك يديه وقدميه فعاجلته بالأمر: انصرف يا جندى. فأسرع الولد يبرطع كجحش صغير فى عفرتة. جرى كأنه فى سباق. نظرت نحو البنت وأنا أبتسم.. وجدتها تحدق فى وجهى وابتسامة بعرض الأفق تنير وجهها الأبيض الحليب.. هممت بالكلام، لكنها ألقت بنظرها نحو الأرض.. وأسرعت تتعثر فى خجلها. ظننت أنها تتمتم بكلمة شكر، لكننى لم أسمع شيئًا. وجهها ظل يتمشّى أمامى طول الليل.. منيراً مستديراً كقمر مكتمل. أحسست أنه لى وحدى.. وأنه يبحث عنى بإصرار.. أينما توجهتُ وجدتُه أمامى.. بعد أن انتهت المهمة التى كُلِّفت بها.. طلع النهار وغاب القمر.

كنتَ تحكى يا روحى وكأنك فى دنيا ثانية. سألتك عن اسمها فأفقت ونطقت: رئيفة.. رئيفة يا أمى، وهى فعلاً رئيفة.

★

ياه.. لم أسمع هذا النشيد من زمان! تتماوج النغمات مع حركة الهواء فتبتعد وتقترب.. لتقلب صفحات الذاكرة المطوية. زمان.. كانت تتسلل إلى سمعى.. فتتوهج روحى، وينبض قلبى، وأشعر بالحرارة فى صفحة وجهى وأذنى. فى اقترابها الآن أشعر أنى لا أستطعمها. أين هو "الوطن الأكبر"؟

وكيف يكون "حبيبى".. وأنا أراه مجرد قطع ممزقة مهروسة؟ هل يمكن أن يحب الإنسان وهماً؟

كان وطنًا كبيراً عندما عبر الجيش المصرى قناة السويس ليدمر خط بارليف، وهجم الجيش السورى لاسترداد هضبة الجولان، وتحركت فرقة مدرعة عراقية ووحدات مغربية لتنضم للجيش السورى، ووقفت الوحدات الجزائرية والسودانية والكويتية لتحمى ظهر قواتنا على شاطىء البحيرات المرة، وطار الرئيس بومدين ليتعاقد على توريد دبابات لتعويض الخسائر وسدد الثمن نقداً، وأعلن الملك فيصل عن خفض إنتاج البترول فأصاب الأسواق العالمية والدول الكبرى بالرعب. فى تلك الأيام كان وطنًا كبيراً بحق.. أين هو الآن؟!

لم يعد يشجينى غير الأغانى الوطنية الهادئة.. التى تضخ إحساسًا منكسراً حزينًا. فى سبعة وستين بدأنا بنشيد "راجعين بقوة السلاح"، وتتابعت بيانات إسقاط طائرات العدو بلا حساب. ولمَّا اتضحت المأساة أعلنَّا أن قواتنا تدافع عن خط الدفاع الثانى.. وأخذت الإذاعة تمضغ أقراص الحزن: "بلدى أحببتك يا بلدى".. و.. "وطنى وصباى وأحلامى". كيف يكون وطنى الأكبر ممزقًا؟ ومن المسئول عن تمزيقه؟ هل زيارة السادات للقدس هى السبب؟ أفكر فى الموضوع فأشعر أننى أكاد أفقد صوابى. وأفيق لألوم نفسى وأتساءل.. هل يمكن العودة لتصحيح الموقف بعد ما جرى؟ أقول لنفسى: إن العرب تعاملوا مع الموضوع بعصبية.. فلم يسمعوا للسادات.. رفضوا مجرد الاستماع.. كان يمكن أن يتصرفوا بشكل أفضل وبغير انفعال.. فيوزعوا الأدوار فيما بينهم ليدعموا الموقف التفاوضى للسادات. أحياناً ألتمس العذر له.. من المؤكد أنه كان يرى الصورة بشكل أوضح.. ولعل الحالة الاقتصادية هى التى أجبرته على الإقدام على زيارة

القدس والسير في اتجاه إنهاء حالة الحرب.. ربما رأى أنه لا يستطيع أن يمول استمرار الصمود والقتال.. وربما دفعته إلى ذلك الدول العربية الغنية التى لم تف إلا بجزء يسير مما قررته لمصر من مساعدات. ربما شعر السادات بالمرارة من ذلك التراجع.. مع أن الحرب والدماء التى سالت فيها هى التى رفعت سعر البترول من ثلاثة دولارات إلى اثنى عشر دولاراً للبرميل خلال عام ونصف العام، ثم واصل البترول ارتفاعه حتى بلغ سعر البرميل خمسة وثلاثين دولاراً بعد سنوات قليلة.

الأفكار تتصادم فى رأسى فيصيبنى الصداع. أطرح الفكرة فأقتنع بها.. بعد لحظة تتوهج فكرة مضادة فتستهوينى.. ثم تأتى فكرة ثالثة فتطيح بالفكرتين السابقتين. وأظل هكذا تتنازعنى الأفكار والتصورات والافتراضات حتى لا أعرف رأسى من رجلى. فى الخدمة كنت أشعر أن لى حيثية، وأجد من أتحدث معه، وأختلق المهام لأنشغل فى تنفيذها. أنا الآن معلق فى الهواء.. وحيد.. أنتظر ما لا يمكن أن يأتى. المقدمات لا تمهد للنتائج التى أرجوها. هل أنتظر المستحيل؟ وهل تمضى حياتى على هذا النحو؟

أصل إلى هذا الحد فتنساب داخلى نغمات هزت مشاعرى وأنا صغير. "حكاية غرامى حكاية طويلة"، يغنيها فريد الأطرش فيملأ قلبى بحزن غامض. ألأنى كنت أحب أبلة زاهية وقتها؟ أم أن تأملى للشمس الغاربة كان يضخ الحزن إلى قلبى؟ لمَّا استقر قمر رئيفة فى قلبى وملأ حياتى، انتبهت إلى أغانى نجاة وشادية التى كنت أسمعها دون أن تترك أثراً فى نفسى: "أنا باستناك.. أسهر وانشغل أنا.. كلمنى عن بكرة.. إن راح منك يا عين.. مكسوفة منك. قولوا لعين الشمس". آه يا رئيفة.. لماذا قدر الله أن ألقاك فى ذلك المساء البعيد؟ كنتِ تسحبين الجاموسة، وتتلفتين فى ذعر تبحثين عن

متولى الذى يختفى وسط الهيش ليعابثك. لماذا استولت نظراتى على وجهك المذعور وأخذته لتحفظه فى صدرى للأبد؟ ولماذا تلون وجهك الحليب بكل هذا الحياء فأسرنى؟ وكيف تعاهدنا دون أن ننطق بكلمة؟ وكيف كنا ننطق بكلمات قليلة محايدة.. بينما نظراتنا تتشابك فى حوار حار لكنه صامت؟ أدركت أنه الحب.. الذى يصبغ كل شىء بطعم ورائحة وملمس ومذاق مختلفين لا يمكن وصفها. ويجعل الروح تستكين لحضن غير مرئى.. مترع بالحنان والرقة والسرور والرغبة فى التخلى عن كل ما يحزن النفس.

★★

مصيبتك يا دسوقى ليست كبيرة فقط.. إنها داهية مسيَّحة.. لا يحتملها إلا بطل مثلك.. أصبحتَ بطلى وقائدى فى اللحظة التى كسرت فيها ذراع زميلك الذى قطع الطريق على رئيفة. وراقبتك بإعجاب وأنت تحتمل معابثاتى لك على شط الترعة. ابتسامتك الهادئة شدتنى إليك.. وصبرك على شقاوتى مد خيطًا من المحبة بيننا.. فعرفت متى أعابثك ومتى أعاملك بجد.

كنتَ متحيرًا من النقل المفاجىء إلى القنطرة.. وكنتُ غاضبًا لأنك ستبعد عنا. صحيح أنك لم تكن تأتى إلينا فى البيت إلا فى إجازتك القانونية.. احترامًا لتعليمات الأمن.. لكنى كنت أراك قريبًا منا حتى لو تأخرت علينا. ولمَّا انتقلتَ إلى موقعك الجديد.. افتقدتك لدرجة أننى صرت أبكى لأى سبب.. فإذا سألتنى أمى عن سبب بكائى قلت لها: عاوز أشوف دسوقى. ترد أمى بتقليب كفيها بينما شفتاها ترتعشان فى توتر. أواصل البكاء فتهددنى بإبلاغ أبى ليؤدبنى. أهدأ قليلًا، ثم أكرر طلبى.. فتكلم نفسها قائلة: كلنا محتاجون دسوقى.. وخصوصًا أختك رئيفة.. ربنا يكمل لها بالسلامة.

دمرتَ حصون العدو وحررتَ القنطرة. البلد كلها كانت فى انتظار هذه

اللحظة لسنوات. ولمَّا حققت النصر.. جاء من يريد أن ينتزع زهوك ويكسر نفسك. أنت صنعت النصر لمصر كلها.. ثم تعرضت لهزيمة خاصة.. شخصية وجارحة.

الأمر بالنسبة لنا يختلف. رأينا الطائرات تنطلق إلى الشرق لتدمر مواقع العدو.. وراقبنا قوافل العربات والجنود والدبابات والمدافع تتدفق على المدقات لتعبر القناة وتحرر أرضنا. لم أمسك سلاحًا ولم أقتل واحدًا من القتلة.. لم أشترك فى صنع الانتصار.. لكن أبى رحمه الله.. قال لأمى وهو يأمرها بالخبيز: الجهاد بما نملك. قامت أمى لتعجن كأنها جندى ينفذ الأوامر بغير مناقشة. نخرج كل صباح.. أمى تحمل مشنة العيش على رأسها.. ويحمل أبى على كتفه خرجًا مليئًا بالخبز.. نذهب إلى المدق الذى يتدفق منه الجنود نحو القناة. نوزع الخبز على المقاتلين ونشجعهم. تنقض الطائرات لتشتت العربات والمركبات فلا يتوقف الطابور المتتابع كالسيل. وتنطلق الصواريخ والقذائف نحو الطائرات لتسقط بعضها وتهرب الأخرى وهى ترمى قنابلها فى خوف. كلمة سر الليل والنهار وكل وقت: الله أكبر.. أطلقها الجنود المندفعون نحو الكبارى مشحونين بيقين الانتصار.. ومعها انطلقت صواريخنا وطائراتنا وحمم مدافعنا.. فطردت الخوف من قلوبنا.

بعد أن نقوم بمهمتنا الصباحية نعود إلى البيت لنطمئن على رئيفة والطفلين. يزيح أبى طاقيته إلى الوراء ويتنهد فى راحة كمن أدى واجبه على أكمل وجه. وأبحث عن طريقة لأعبر بها عن نفس الإحساس.. فأشوح بيدى سائلًا أمى عن مصير البطاطا التى حدفتها فى شاروقة الفرن.. مضيفًا: زمانها استوت. مشاركتى فى الطابور اليومى لتوزيع الخبز على الجنود منحنى إحساسًا بالرضا.. عزانى عن أسفى لأننى كنت أصغر من أن أحمل سلاحًا أقاتل به الظَّلَمَة.

ليلة الإعلان عن تحرير القنطرة لا أنساها. كنتُ نائمًا عندما سمعت صياح أبى: رئيفة.. يا رئيفة.. دسوقى حرر القنطرة يا رئيفة.. جيشنا حرر القنطرة يا أولاد. لم أكن أدرك أهمية الأمر. البيان العسكرى الذى أعلن نجاح قواتنا فى تحرير مدينة القنطرة شرق، جعل أبى يعدل طاقيته على رأسه عدة مرات ويشمر أكمامه الواسعة بهمة.. السعادة التى بدت على وجهه وفى صوته جمعتنا حوله فى سرور. شرح لى: القنطرة طريقنا للعريش.. ولو وصلنا للعريش يبقى أخذنا سيناء كلها. التفتَ إلى رئيفة الشاحبة وقال لها: زوجك بطل.. دسوقى حرر القنطرة يا رئيفة. نِمتُ فى هذه الليلة، ورأيتنى أعابثك يا دسوقى.. وأنت تتقبل معابثاتى بفرح.

فى أول إجازة لك بعد نقلك بحرى الإسماعيلية حدثتنى عن أملك وأمل زملائك فى تحرير القنطرة. قلتَ كلامًا كثيرًا عن الأسلحة المضادة للدبابات.. والآر ـ بى ـ جى.. والصواريخ المضادة للطائرات المحمولة على الكتف، وقنابل الدخان والدبابات.. تفاصيل كثيرة. كان كل ما يهمنى هو أن نثأر من الأعداء وندمرهم.

★★★

يا لهو بالى. إيه العمل؟ الضرب شغال، وأنت يا نور عينى بعيد عنى، وأولادنا عينى عليهم، يموتوا ويجرحوا، والرمل شاهد على حقنا ودمنا. أعمل إيه؟ قلبى مرفرف فى صدرى، ودموعى على خدى، وخوفى عليكم سابقنى. الدعاء لكم على لسانى وفى دموعى ومع كل خطوة. محتارة ومرعوبة، وأخواتك ملهوفات عليك. بعد الفجر نذرت نذرًا: لو ترجع بالسلامة أعمل كيلتين كعك وأوزعه على الأهل والحبايب والجيران.. لأن رجوعك من الحرب رجوع للحياة ولروحى.. فرح حقيقى. أفكر فى رئيفة كثيرًا. كنت أتمنى تكون بجوارى الآن، خصوصًا وهى حامل، ربنا يكمل لها بالسلامة. أتمنى لو تلد عندنا.. لكنها صممت أن تلد عند أمها.

الأيام تمر بسرعة، أتذكر يوم جئت وأخذتنا لنعقد القران عند خالها فى القرين.. كان يومًا!! حضرنا وجاء أبوها وأهلها من سرابيوم. رئيفة وكَّلت خالها بوصفه المسئول عنها، وأبوها رضى ليتمم الزواج. ثانى يوم رجعنا للبلد لنشترى العفش والفرش وندهن البيت ونستعد لعمل فرح حلمت به طول عمرى. بعد شهرين عملنا فرحًا كبيرًا تكلمت عنه البلد، وقضيت بيننا أسبوعين مع عروسك. فرحنا بك وفرح معنا أهل البلد كلهم، وشلنا أهلها على كفوف الراحة. معك حق، ناس طيبون. قلت لى إن رئيفة طيبة.. وهى فعلا بنت حلال.. نَفَسها هادئ وصوتها همس، وحلوة.. قمر. تنتهى إجازتك فينطفئ وجهها ويركبنى الهم والخوف عليك. تعود فأنصب الأفراح فى صدرى، وأرى الفرحة تزغرد فى عينيها، ونتسابق مع أخواتك فى الاحتفال بك. يأتى أهلها لزيارتها وأنت غائب.. فتسعد بهم ونقوم بواجبهم كأنك موجود.. وأكثر. يعودون إلى سرابيوم فى اليوم التالى رغم إلحاحنا عليهم بالبقاء. فى إجازتك الأخيرة تحدثت معنا عن الحرب التى قربت. لم أتصور أن تقوم بهذه السرعة. مضى على فرحك سنة ونصف. قلقت لما تأخر الحمل. لكنى طرت من الفرح بعد أن حملت زوجتك. منذ شهرين جاءت أم رئيفة وأبوها وصمما أن يأخذاها لتلد فى سرابيوم. تمسكت ببقائها معنا.. فذكرانى بموافقتك على طلبها. سلمت أمرى لله ووافقت. سافرت رئيفة مع أبيها وأمها وقلبى معلق بها. الحرب قامت وقلبى يأكلنى خوفًا عليكم.. وأفكر.. كيف ستلد وهى فى قلب المعركة. ليتنى ما وافقت على سفرها. خفت أن تغضب إذا لم أنفذ وعدى لك. الرعب يقتلنى. الراديو على أذنى طول النهار والليل.. أسمع البيانات العسكرية وكأنى أسمع أخبارك. هذه المرة حرب بحق.. وسنأخذ حقنا منهم بالقوة. ربنا ينصركم يا أولاد ويرجعكم بالسلامة لأهاليكم.

★

الأمر كان صعبًا على مُتولى.. منذ عاد من نفيشة مع أمه وحدهما.. بدون رئيفة ومنصور وخالد. صارت أمه حطام امرأة.. فاقدة النطق.. لا تُحسن إلا البكاء.. وإذا أرادت شيئًا جأرت بصوت مخيف ليسمعها متولى.. فيذهب بها إلى الخلاء أو يسقيها أو يجهز لها ما تريده. كان الله فى عونه.. فماذا يفعل لها وقد عافت الطعام وهزلت. خاله الأكبر جاء من القرين لزيارتهم بعد انتهاء الحرب فصدمته الأخبار، ولم يعرف ماذا يقول. أخذ يتحدث إلى شقيقته وهى تبكى ولا تملك الرد عليه. لم يحتمل الموقف فغادر ليبلغ باقى أشقائه بالخبر. بعد عدة أيام أتى أحد أخواله وزوجته. كان الأمر صعبًا على الجميع. جاءوا بزيارة كبيرة: طيور وأرز وطعام مطبوخ وفطير. فى اليوم التالى اقترحوا عليهما السفر إلى القرين والعيش معهم هناك. تشنجت أم رئيفة وجأرت رافضة، وأخذت تهشُّهم بيديها ليغادروا المكان.. فسافروا مندهشين حزانى.

عدتُ إلى سرابيوم بعد انتهاء الحرب فلم أجد شيئًا فى مكانه.. عدا التوتة والطلمبة التى دقها أبو رئيفة أمام البيت. كل شىء تبدل.. ورأيت كل شىء وكأننى أراه للمرة الأولى. لم أستوعب فكرة موت رئيفة. أمها ومتولى يوقنان بموتها. أم رئيفة فقدت النطق لأنها لم تدافع عنها بما فيه الكفاية.. تظن أنه كان يجب أن تبقى معها حتى لو قتلوهما معًا. متولى قال لى: التخلى عن رئيفة كان إجبارًا.. وخاصة أن النسوة فى طابور الذل أقنعوها بالمضى فى السير بحجة أن رئيفة ستجد الرعاية اللازمة لحامل على وشك الولادة. النسوة كنّ يدركن أن ثمن المقاومة والاعتراض هو أن يموتوا جميعًا.

العذاب الذى عاناه متولى لرعاية أمه والعناية بالأرض كان فوق طاقته.. لكنه تحمل صابرًا. لم يكن فى الجوار أحد يعرفه. شهور الحرب والنفى

خربت البيوت، ودمرت النفوس والعلاقات.. فقد قتل معظم الرجال وكثير من النساء والأطفال والصبية.. وأدى القصف الانتقامى والعشوائى إلى عودة كثير من المصابين وهم يحاولون ستر عاهاتهم. لم يجد متولى من يساعده أو يقدم له النصح. يزرع بعض الخضر.. يتعجل ريها فتفسد، أو يتأخر عليها فتذبل. وقد يحش الخضراوات ولا يسعفه الوقت لحش الباقى فيكبر ويشيخ.

فى إجازاتى كنت أقسم الوقت بين أمى وأخواتى فى القرية وأم رئيفة ومتولى فى سرابيوم. أصل فأجلس لأتحدث مع أم رئيفة حديث من لا ينتظر ردًا. ثم أخرج لأجلس مع متولى تحت التوتة.. فيرفع يديه أمام عينيه لنقرأ الفاتحة على روح جندى الصاعقة المدفون تحتها. تدمع عيناه ثم يرفع يديه مرة أخرى ليقرأ الفاتحة على والده وشقيقيه وكل الشهداء.. فتتداعى الذكريات. قبل الحرب كنا نجد ذكريات مفرحة. بعد الحرب لم يعد بإمكاننا أن نعثر على ذكرى واحدة تسرُّنا.. فيما عدا ذكرياتى عن عبور القناة والاستيلاء على الحصون وتحرير القنطرة وتطهيرها. ننتهى من الحديث فندخل البيت لأنام فى حجرة رئيفة.. وينام متولى قريبًا من فراش أمه ليكون مستعدا لتلبية طلباتها.

حمدت الله أن أم رئيفة ماتت وأنا فى سرابيوم. قمنا بما يليق بها من تجهيز ووداع. بكى متولى كثيرا.. بكاها وبكى أباه وأخته وشقيقيه. حاولت أن أهدئه فقال لى إنه لا يبكى أمه وأهله فقط.. وإنما يبكى من كل ما عاناه وشاهده من ظلم وقهر وعذاب منذ قامت الحرب.

فاجأنى متولى فى صباح أحد الأيام بأنه قدم طلبا للعمل فى أبوسلطان.. بعد أن أتاحت المحافظة للأهالى المتضررين أن يعملوا فى الإدارات المحلية. قلت له: الله يوفقك. قال فى تردد: أريد أن أعيش فى

أبو سلطان.. لأننى لن أستطيع العيش وحدى فى هذا البيت بعد رحيل الأحباء. قلت: وماذا تفعل فى البيت والغيط؟ سكت قليلًا ثم قال بصوت خافت حزين: أبيعهم. رددت على الفور: أنا المشترى. علت وجهه ابتسامة من جاءه الفرج وقال: الله يبارك لك.

أصبحتُ مالكًا للبيت الذى ولدت فيه رئيفة. وأنام فى الحجرة التى نامت فيها. وأخطو على الأرض التى كانت تخطو عليها لتكنس البيت أو تملأ الزير بالماء أو تزغط البط أو تشعل الفرن. كما أصبحتُ مالكًا لقطعة الأرض التى كانت تذهب إليها مع أبيها لتلعب وتشوى كيزان الذرة. أصبحتُ مالكًا للتوتة التى استظل بها أبو رئيفة.. ونام تحتها فى ساعات القيلولة.. واستقبل بجوارها الشيخ الذى يأتى ليقرأ الراتب، ويحفظ رئيفة القرآن، ويعلمنى الكتابة. التوتة التى جمعت الأسرة الصغيرة فى أمسيات الصيف المقمرة، والتى تسلقت رئيفة فروعها لتأكل وتقدم لأهلها فصوص التوت.

فى الليلة الأولى التى قضيتها فى الحجرة التى تعطرت بأنفاسها.. تقلبت كثيرًا قبل أن أتوه فى النوم.. رأيتنى أفيق على دفء أنفاسها.. هتفتُ: رئيفة. اقتربت منى حتى لامست شفتاها جبهتى. قلت بصوت حزين: تغيبين كل هذه المدة وتأتين لتبوسى رأسى؟ ابتسمت فى غموض وهى تنظر إلى بطنها المنتفخ.. فمددت يدى ووضعت كفى فى رقة على بطنها. عاودت النظر إلى وجهها.. فرأيته شاحبا، وشفتاها ترتعشان. أدارت وجهها فجأة فانطفأ الضياء الذى يغمر المكان. صرختُ: بُصِّى لى. نظرت فعاد النور.. لكن سحابة من قلق وغضب غطت وجهها. قلتُ فى هلع: كلمينى يا رئيفة. تباعد وجهها تدريجيًا. مددت يدى متوسلاً أن تبقى فابتعدت حتى ابتلعتها غيمة على شكل فقاعة رمادية هائلة. تابعت الفقاعة وهى ترتفع.. بينما صوتى يعلو بصيحات مخنوقة بالبكاء.

يتكرر الحلم مع اختلاف فى التفاصيل.. فمرَّة تأتى لتتمدد بجوارى وهى تئن من ثقل حملها.. فإذا حاولت احتضانها تغضب وتتباعد حتى تختفى. لم تكلمنى مرة واحدة.. أحدِّثها فلا ترد.. لكنها تمنحنى نظرات أحار فى فهمها أو تفسيرها. ومرَّة أجدها جالسة بجوارى فى سكون وهى تنظر إلى بعيد. أكلمها فلا ترد.. أود أن أسمع صوتها الحنون.. لكنها تبتسم ابتسامتها الغامضة.. كأنها تقول: لا أقدر. ألح عليها فتختفى كنسمة لطيفة. ذات ليلة رأيتها تنوى احتضانى، فمددت يدى لأحتويها بين ذراعى فلم أجدها.. كأنها طارت. قبل عدة ليال رأيتها تقترب منى حتى أحسست بلفح أنفاسها على وجهى.. نظرت إليها مبتهجًا فوضعت إصبعها على فمى كى لا أتكلم. ثم أشارت بنفس الإصبع إلى خلفها.. لم أفهم معنى الإشارة وخفت أن أتكلم فتختفى غاضبة.. فهززت رأسى متسائلاً.. رأيتها تضع إصبعها على فمها.. ففهمت أنها لا تريد الكلام. حاولت الجلوس فجَّفلتْ ورجعت إلى الخلف، ثم بدأت تذوب فى الظلام.

ينتفض قلبى بالفرحة حين تأتى.. وينقبض بالحزن عند اختفائها، فأصحو تعيسًا. أبحث عنها فى أركان الحجرة، فلا أجد غير أنفاس من عطر جسدها ترعشنى. أعرف أننى فى انتظارها مهما طال الزمن. يطير النوم من عينى مثلما تطير بعد زياراتها القصيرة التى ترمينى فيها بنظراتها اللائمة. يا الله.. لماذا تلك النظرة التى أراها فى وجهها.. أقول لنفسى: لو تكلمتْ لرددت عليها واسترحت. ألا يكفيك يا رئيفة أنك تأتين ثم تغادرينى دون كلمة واحدة.. فأشتغل بالوجع وأصحو مصدوعًا ولا أجد رغبة فى الطعام.. فإذا ضغطتُّ على نفسى وأكلتُ شيئًا داهمتنى آلام المعدة، فأمتنع عن الطعام حتى يخف الصداع. أنا لا ألومك يا رئيفة.. يا حبيبة قلبى وعمرى ومستقبلى.. ألوم نفسى لأننى لم أدافع عنك كما يجب.

قلت هذا الكلام لقائدى فاندهش وقال مهوِّنًا: يا أخى.. أنت لم تكن فى سرابيوم وقتها.. لا تُحمِّل نفسك أكثر من طاقتها. قلت له: هل هذا جزائى عن تحرير القنطرة؟ لا أصدق أننى نمت فى حضن الأعداء وعدت دون أن يرونى.. بعد أن حولت الأرض التى يقفون عليها إلى غيط مزروع بالنار.. كنا نقترب منهم حتى نراهم بالعين المجردة.. نتابع حشودهم بهدوء ثم نستخدم الخريطة واللاسلكى للإبلاغ عنهم. نبتعد قليلا حتى لا تصيبنا القذائف التى تنهال عليهم من مدافعنا وطائراتنا. نراقب باستمتاع اشتعال الدبابات والمركبات وصهاريج الوقود، ومشاهد الهلع التى تنتاب جنودهم وهم يحاولون الهرب من الجحيم الذى صنعناه لهم. أفيق لأجد أننى أسرفت فى الكلام فأعتذر للقائد عن سرحتى فى الحديث.. أرى فى عينيه إشفاقًا.. فأزداد حزنًا.. ولا تبرد نارى.

★★

سألتنى أسئلة كثيرة لا أعرف الإجابة عنها. ولم أتوقف عن البكاء. تهدئنى وتشرح لى: أريد أن أعرف بالضبط ما حدث.. قد تظن التفاصيل تافهة.. لكنها مهمة بالنسبة لى. آه يا دسوقى.. أعرف حجم مصيبتك.. ومصيبتى. الفرق بيننا أننى تقبلت ما حدث.. بعد أن سكبت نهرًا من دموع.. لكنك لم تقبله بسبب بطولتك وانتصارك فى القنطرة.. استهولت أن يطعنوك فى ظهرك.. فيقتلوا أبى ويخطفوا رئيفة ويحرقوا قلب أمها عليها.. ثم يقتلوا منصور وخالد وهما طفلان ليس لهما فى الحرب والضرب. لو بكيتَ مثلى لربما استرحت قليلا.. لكنك لم تسمح لنفسك بالبكاء.. سلواك يا دسوقى فى القصاص. بكائى كان مناسبًا لصبى لا يملك غير الدموع.

سألتنى: متى طردوكم من سرابيوم؟ قلت: إن الأيام تشابهت منذ اللحظة التى عاينت فيها إعدام أبى.. كما أنهم أخذوا الراديو الذى يربطنا بالدنيا..

فظننت أننا خسرنا كل شيء.. وأن مصر ضاعت مثلما ضاعت رئيفة. فى نفيشة كنت أشعر أننى أصبحت ستين حتة. أرى ضباط العقيد أسامة يقدمون لنا الرعاية الكاملة.. ينصبون لنا الخيام.. ويطمئنون على وصول الطعام لنا.. وينبهوننا عند وقوع الغارات.. ويجيبون عن كل أسئلتنا بصبر.. ويحكون لنا عما يفعله وحوش الصاعقة لقتل جنود العدو وتدمير معداته.

لا أعرف متى دخلنا نفيشة.. لكننا سمعنا حكايات رهيبة. حاول العدو عبور كبارى الترعة ليحتلوا الإسماعيلية.. وفشلوا رغم تكرار المحاولة. فلمَّا هاجمتهم قوات الصاعقة ودخل وحوشها الجناين وأذاقوهم الويل.. قرروا أن يقطعوا على رجالنا طريق العودة فدمروا كوبرى أبو جاموس وكوبرى نفيشة بالطائرات. أنا شفت كوبرى نفيشة مدمرًا.. ولم أشاهد كوبرى أبو جاموس البعيد عنا.. سمعت عنه من الشيوخ. أقضى اليوم كله فى سماع حكايات الكبار، وروايات جنود الصاعقة الذين كانوا يأتون بعد انتهاء عملياتهم للتحضير لعملية جديدة. سمعتُ آلاف التفاصيل عما جرى، وقمت بترتيب الحكايات، لكى أرسم لك صورة عما حدث. حكى الجنود عن يأس العدو من دخول الإسماعيلية بعد أن أوقفهم وحوش الصاعقة.. وأخذوا فى اصطياد جنودهم ببنادق القناصة.. والإغارة عليهم ليلًا لتدمير عرباتهم ودباباتهم وقتل الغافلين منهم وأسر النائمين. يحكى رجال الصاعقة فأشعر أن رقبتى تطول السماء. تنتهى الحكايات فى آخر النهار، ويأتى موعد النوم فى الخيمة.. أرى أمى فيتوجع قلبى عليها وأتذكر أبى ورئيفة.. انصرفتْ عنى بالبكاء والعناية بالطفلين اليتيمين. فى الأيام الأولى بنفيشة.. حدثتها بحماس عما يفعله وحوش الصاعقة بالمجرمين، فمصمصت شفتيها فى حسرة وهى تقول: تأخروا كثيرًا. ليتهم بكَّروا حتى لا نذوق الهم والحزن.

فى اليوم التالى لوصولنا إلى نفيشة.. نامت أمى لأول مرة بعد طردنا.. أخذت أخوىً فى حضنها ونامت.. خاصمنى النوم فأخذت فى مراقبتها.. تهت فى النوم ثم صحوت على زعيقها. تهتف فى لوعة: رئيفة.. تعالى يا رئيفة.. الحقنا يا حاج.. آه آه. ظننت أنها استيقظت متذكرة أبى ورئيفة.. وحين هززتها أدركت أنها نائمة وتحلم بهما. صممت أن أوقظها. قامت لتبكى.. بكاؤها أوجع قلبى فبكيت. فى الصباح طلبتْ أن تذهب لتقابل الضابط المسئول.. حاولت أن أعطلها فصرخت: ليبحث لى عن رئيفة.. هو قال إنه يعمل لحل مشاكلنا. أبوك خلاص.. قتلوه.. لكن رئيفة موجودة.. عليهم البحث عنها. طلبت منها أن تصبر لأحصل على إذن بالمقابلة فرفضت وقامت تطلب أن أدلها على مكانه.. تركت منصور وخالد مع إحدى الجارات وأخذتنى فى يدها وذهبنا. خشيت أن يغلظ لأمى فى الكلام. فرغ من حديثه مع أحد مساعديه فأشار لنا.. تقدمنا فى وجل. لن أنسى نظرة الضابط المندهشة لأمى.. ظل مدهوشًا للحظة ثم تمالك نفسه وهمس: أنت من سرابيوم يا أمى. فأومأت برأسها وهى تدمع. قال: ألا تذكرينني.. أنا الذى دققت عليكم الباب فى سرابيوم. انحنى الرجل ليقبل يد أمى. مسحت أمى دموعها وقالت: اعذرنى يا ابنى.. حصل لنا ما أنسانا أسامينا. طلب أن تحكى أمى له كل شىء. انتهت أمى من حكايتها فرأيت الحزن يكسو وجهه.. وقرأت فى ملامح وجهه أنه لا أمل فى العثور على رئيفة.. لم يقل ذلك لأمى.. بل أخذ يهدئها ويطمئنها. لمس كتفى برقة وهو يقول: أهلا يا وحش. نظرت نحوه مندهشًا. تعجبت أننى لم أتذكره. قلت له: لم تكن على كتفك علامات الرتبة. رد قائلا: فى المعركة كلنا جنود.

★

بعد الاستيلاء على حصن العدو فى أقصى جنوب القنطرة.. انتبهنا إلى

غارات الطيران المجنونة. أثناء الاشتباك لاقتحام الحصن لم نشعر بشيء سوى ضرورة الانتهاء من المهمة. الحماس والغل وطول الانتظار جعلنا مثل الأسود الجائعة. بعد التهام الحصن أفقت.. وانتبهت لغارات الطائرات المتوالية.. ومثلما كنت أشعر أننا أسود جائعة، فقد بدوا لى ككلاب جريحة تعوى من آلامها. وكأنهم ظنوا أن الطائرات ستعدل الميزان الذى اختل لصالحنا. تأتى الطائرات فتطاردها المدافع المضادة.. تعلو فتصطادها الصواريخ. تسقط بعضها وتضطر الأخرى إلى إلقاء حمولاتها من القنابل والصواريخ عشوائيًا.

بعد تطهير الحصن زمجرت مدافعنا فى غرب القناة وأطلقت قذائفها لتدمر الدبابات التى تحركت فى محاولة لإنقاذ الموقع الحصين. استلمت قوات المشاة الحصن.. فصدرت التعليمات بانضمام عناصر الاستطلاع إلى قيادة الفرقة فوراً. تجمعنا قبل المغرب بقليل. هنأنا ضابط الاتصال بإتمام العبور بأقل خسائر، وأبلغنا تحيات العميد فؤاد عزيز غالى قائد الفرقة. ثم قام بإعطائنا تلقينًا سريعًا بالموقف وشرح مهمتنا القادمة: إقامة نقط ملاحظة متحركة تسبق الحد الأمامى لرأس كوبرى الفرقة.. والإبلاغ عن حشود العدو التى تستعد لمهاجمة قواتنا. بعد انتهاء التلقين شرح لنا القائد أهمية أن نتلقى المهام معًا، لأن نقاط الملاحظة ستكون على اتصال بالقيادة ومستعدة للاتصال العرضى ببعضها عند صدور تعليمات تسمح بذلك وفقًا لظروف العمليات. أسرع قادة السرايا بتوزيع المفارز على المواقع، واطمأنوا لسلامة الخرائط وأجهزة اللاسلكى، وضبطوا الترددات اللاسلكية وتأكدوا من جاهزية الأفراد. دام الاجتماع عشرين دقيقة، ثم انصرفت المفارز لتبدأ العمل.

قدت مفرزتى المكونة من ثلاثة مقاتلين.. الأول يحمل جهازًا لاسلكيًا،

والثانى يحمل خريطة لمنطقة عملنا، وأنا أحمل جهاز المراقبة الليلية وطلقات الإشارة.. ومع كل واحد منا سلاحه الشخصى وزمزمية مياه وطعام قتال يكفى يومين، وشنطة إسعافات أولية. التعليمات واضحة.. ممنوع الاشتباك مع العدو إلاَّ عند الضرورة القصوى.. فالاشتباك مهمة قوات النسق الأول المسئولة عن احتلال الهيئات الحاكمة، وتطهير الجيوب التى تظهر للعدو، والتمسك بالخطوط التى تصل إليها وتحتلها. تحركنا على أقدامنا بخفة.. هدفنا الرئيسى هو تأمين الجانب الأيمن للفرقة، ومراقبة طرق اقتراب العدو، وتجنب الاصطدام بأفراده أثناء تقدمنا.

نفذنا ثلاث وثبات.. بين الوثبة والأخرى حوالى كيلومترين. بعد الوثبة الأولى شاهدنا ثلاث دبابات، على بعد مائتى متر إلى يسارنا، تندفع باتجاه القناة. قمنا بالإبلاغ عنها. قبل مرور دقيقتين رأينا، فى ضوء القمر، وميض الصواريخ تندفع نحوها. أصيبت الأولى والثانية. حاولت الثالثة الانسحاب لكنها أصيبت بصاروخ إصابة مباشرة أدت إلى انفجارها. همَّ حامل الخريطة أن يهلل فوضعت يدى على فمه محذرا، وأشرت إلى حامل اللاسلكى ليبلغ عن تدمير الدبابات الثلاث. وطلبنا تكليف رجال المشاة بقنص أفراد الطاقمين الذين قفزوا من الدبابتين المدمرتين فى محاولة للهرب.

كما توقعت.. جاءنا الأمر: نفذوا الوثبة الثانية بأسرع ما يمكن.. ننتظر إشارتكم. اندفعنا إلى الأمام. أنا فى الوسط، متأخراً عن زميلىّ بعدة أمتار، وحامل اللاسلكى إلى يمينى يبعد بضعة أمتار فقط، وحامل الخريطة إلى يسارى على البعد نفسه تقريباً. نتحرك بهدوء واحداً وراء الآخر. نبحث عن الثنيات الأرضية لنتخفى فيها. إذا وجدنا تلاً أو مرتفعاً صغيراً أشير إلى زميلىّ لينضما إلىّ ونتبادل الحديث همساً. بعد الوثبة الثانية رأينا إلى

يسارنا طابوراً من سيارات مصفحة تتقدم فى حماية دبابتين إلى اليمين والشمال من الطابور. أبلغنا عن المشهد. توقعت أن يكون الطابور فى اتجاه إحدى النقط القوية لمهاجمة قواتنا وانتشال الجنود المحاصرين أو الفارين. تأكدت لمَّا دوت طلقات المدفعية المعادية، آتية من بعيد فى اتجاه مواقعنا على خط القناة.. إنهم يمهدون للهجوم. أبلغنا عما رأيناه وانتظرنا. بعد دقائق جاءنا الأمر. تقدموا بسرعة لأن زملاءكم سيهاجمون الطابور من اتجاه الشمال. نظرت إلى زميلىّ وتجاوزنا منطقة الخطر بسرعة شديدة.

راقبنا عملية التأديب التى ينفذها رجالنا فى سعادة، وسألت رجل الخرائط عن رأيه فأجاب بابتسامة راضية. خليل.. خريج كلية الآداب تخصص جغرافيا.. موهوب فى قراءة الخرائط. عمل فى غرف عمليات الكتيبة واللواء، ثم طلب أن ينضم إلى مفارز الاستطلاع المتقدمة بعد أن خنقته غرف العمليات المغلقة والمحصنة فى باطن الأرض. فى الأيام التى سبقت قيام الحرب فتح لى قلبه. قال إنه تأكد أننا سننتصر، لأن قيادتنا تحترم العلم والتخصص، وتستخدم المنهج العلمى فى التخطيط والبحث عن حلول للمشكلات التى تواجهنا. قال إنه انبهر فى بداية تجنيده، حين اختاروه ليعمل فى مجال تخصصه.

يظن الكثيرون يا متولى أن خط بارليف عبارة عن خط واحد يحتوى على نقط حصينة بطول الهيئات الحاكمة على قناة السويس. ولعلك تظن ذلك أيضًا. هو فى حقيقة الأمر لم يكن خطًّا واحدًا، وحصونه ليست على خط مستقيم. إنه مكون من ثلاثة نطاقات متوالية فى العمق: الأول على خط القناة مباشرة، والثانى على بعد من ثلاثمائة إلى خمسمائة متر، وتم تنفيذه ليشرف على الاتجاهات الأكثر صلاحية للعبور، والثالث على بعد من ثلاثة إلى خمسة كيلومترات، ويرتكز على بعض الاتجاهات المهمة وعلى أجناب

الطرق الرئيسية المؤدية إلى عمق سيناء. لذلك لم تفاجئنا حشود العدو التى اكتشفنا وجودها فى العمق القريب من القناة. أدركنا أن الدبابات الثلاث التى دمرها رجالنا هى مقدمة لهجوم كبير على قواتنا.

كنا نعرف أن احتياطيات العدو تتجمع على بعد خمسة كيلو مترات فى منطقة تقاطعات الطرق شرق القنطرة.. وكان من الضرورى التأكد من هذه المعلومات بأعيننا. فى الوثبة الثالثة أصبحنا فى حضن دباباته ومشاته الراكبة.. كنا نسبق قوات النسق الأول التى تتقدم على عدة محاور لإقامة رأس كوبرى للفرقة. فرد خليل الخريطة لنراجع موقعنا.. أشار فانحنينا على الخريطة وصنعنا ساترًا من أجسادنا.. أضاء مصباحًا صغيرًا بحجم الإصبع وحدد موقعنا على الخريطة. تأملت القوس الافتراضى المرسوم بعمق ستة كيلومترات.. والقوس التالى على بعد عشرة كيلومترات من القناة. قلت لزميلىّ: نحن الآن على حدود رأس كوبرى الفرقة المفترض. سوف نزحف بهدوء لنقترب إلى أقصى حد من قوات العدو لنقدر حجمها بدقة. اتفقنا أن نتقدم زاحفين ومتجاورين حتى نظل معًا. بعد عشر دقائق من المراقبة اخترنا ثنية أرضية واحتمينا بها. أبلغنا عن الحشود التى تأكدنا منها. قائد السرية طلب أن يتحدث مع خليل ليتعرف على إحداثيات حشود العدو وإحداثى موقعنا، فأجابه خليل إجابة مشفرة.. ثم سألنى قائد السرية عن بعض التفاصيل فأجبته.. وقبل أن ينهى الحديث طلب أن ننتبه لأن مدفعيتنا ستقصف المنطقة بعد دقائق، وطلب أن نبتعد قليلاً إلى جهة اليمين حتى لا تصيبنا القذائف.

تحولت المنطقة المواجهة لنا إلى فرن كبير.. ابتعدنا قليلاً وتوارينا وراء تل صغير به بعض الحفر. القذائف تصفر فوق رؤوسنا، ثم تنفجر وسط حشد العدو لتبعثر دباباته ومركباته. بعد حوالى ربع ساعة توقفت مدفعيتنا

عن القصف. توقعت أن ينسحبوا ليجمعوا أنفسهم مرة أخرى.. لكننى فوجئت بأنهم يتقدمون.. طابور من المدرعات وحاملات الجند.. حددنا الأعداد بدقة ثم أبلغنا عن الهجوم المنتظر على قواتنا. شعر قائد السرية بالقلق فى صوتى فطمأننى بجمل مشفرة.. فهمت أن قواتنا تنتظرهم قريباً من المكان الذى نحتله. وأنها بعد أن تشتتهم ستزحف فى اتجاهنا.. أمرنى باستخدام طلقات الإشارة لنلتحق بالقوات القادمة لاحتلال رأس الكوبرى.

★★

فى نفيشة كان الزحام شديدا. عرفنا أن الظَّلمة طاردوا الأهالى وطردوهم. سمعت أسماء القرى المحيطة تتردد على أسماعنا: أبو سلطان والسعيدية والضبعية وأبو عطوة. عرفت أنها مثل سرابيوم، وأن المطرودين منها يتعذبون مثلنا.. وسمعنا حوادث مرعبة حدثت لهم. لكنى كلما أتذكر أبى ورئيفة أشعر أن مصيبتنا هى أكبر المصائب وأفظعها.

بعد أن تعودت عينى على المكان.. اختفى الضباط والجنود، ورأيت مدنيين ينظمون معيشتنا، وسيارات نقل تحمل خياماً وبطاطين وملابس وطعاماً. بحثت عن الضابط الذى قابلناه فى نفيشة وفى سرابيوم.. فقيل لنا إن الجنود والضباط سلموا المسئولية لرجال المحافظة والإغاثة.. وتفرغوا لقتال العدو. علمت أمى بهذا الخبر فبان الأسف على وجهها وقالت فى أسى: ربنا يحميهم ويرجعهم لأهلهم سالمين غانمين. وبكت أبى ورئيفة. مندوب المحافظ عرض علينا الهجرة. خيرونا بين محافظات الشرقية والدقهلية وكفر الشيخ. أمى رفضت الفكرة من أساسها.. وقالت باختصار: أموت هنا.. بجانب الحاج ورئيفة. قلت لها: رئيفة سترجع لنا بإذن الله. فقالت: إذن نبقى هنا إلى أن نلقاها.

كثيرون قرروا الهجرة ليسلموا من الضرب والقتال. قالت أمى: هؤلاء لم

يخسروا.. غادروا بيوتهم وسيرجعون لها بعد الحرب.. أما نحن فخسرنا كل شيء.. ولم يبق شيء نخسره سوى حياتنا التى صارت بلا قيمة بعد استشهاد الحاج وغياب رئيفة. وسالت دموعها فى صمت أوجعنى.. فأسرعتُ خارج الخيمة لأخفى دموعى.

رجال الإدارة المدنيون نظموا أحوالنا بكفاءة. ينبهون إلى أن المدفعية ستضرب قوات العدو فى الجنائن. سألتهم: كيف تعرفون أن مدافعنا ستضرب بعد خمس دقائق. قالوا: معنا أجهزة اتصال مع المحافظة وقيادة الجيش. المدافع منصوبة بحرى ترعة الإسماعيلية.. يبدأ الضرب فنظل ندعو الله حتى يتوقف.

خف الزحام قليلاً بعد أن حملت السيارات كل من طلب الهجرة. فأصبحنا نحصل على غذائنا بسهولة. اختفت الشجارات على أولوية الوقوف فى طابور الخبز أو الطعام. وقلّت المشاحنات بين النساء. لم تتوقف أمى عن السؤال عن رئيفة. بعد تناول الإفطار فى الضحى، تأخذنى أمى فى يدها وتذهب لتسأل المدير المدنى عن نتيجة البحث عن رئيفة. لاحظت أن الرجل يبذل جهداً كبيراً ليرسم ابتسامة كبيرة على وجهه وهو يقول لها: استبشرى خيراً يا أمى.. نبحث ولا نتوقف عن البحث.. ربنا يسهِّل. لكننى فى كل مرة.. أرى فى ملامحه أنه يكذب ويتألم، ويتمنى لو تتوقف عن سؤاله. تعود أمى باكية.. بينما أؤكد لها أننا سنجد رئيفة. ذات يوم قالت فجأة ونحن فى طريق العودة من السؤال اليومى: لقد تركناها لهم.. الحداية لا ترمى كتاكيت. فيأتى علىّ الدور لأبكى.

لم تتوقف الاشتباكات. تشتعل معظم الأحيان وتهدأ أحياناً. رجال الصاعقة يضربونهم صباحاً ومساءً. وعندما نستسلم للنوم فإنهم يقلقون راحتهم وراحتنا. يأتى رجال الصاعقة أحياناً عند أذان المغرب.. فينقسمون

إلى مجموعات صغيرة تتسلل إلى الجناين من كل الاتجاهات. ذات مساء بدأت الاشتباكات بعد المغرب بقليل وظلت حتى أذان الفجر. زمجرت مدافعنا وهى تضرب من اتجاه بحرى ترعة الإسماعيلية. ومدافع أخرى تضرب من الناحية الأخرى للقناة. كانت المدافع كلها تضرب الجناين. وكل حين نسمع صوت انفجار دبابة أو مجنزرة. فى سرابيوم تعلمنا كيف نميز صوت انفجار الدبابة، وطلقة المدفعية، وزغردة الرشاشات.

بعد أذان الفجر بقليل سمعنا أصواتًا مكتومة وكأن هناك شجارًا فى مدخل نفيشة. أصوات الضرب لم تتوقف. انكمشت فى حضن أمى. رأيت بعض الرجال يتقدمون بحذر. بعد ساعة عادوا يتحدثون عن وحوش الصاعقة الذين أسروا ثلاثة جنود اسرائيليين، وعادوا بهم مقيدين ليسلموهم إلى قيادة الجيش. سرت الفرحة فى الخيام التى صحصح ساكنوها. لكن الحلو لا يكتمل أبدًا.. فقد عاد جنود الصاعقة يقودون الأسرى الثلاثة، ويحملون شهيدًا سقط منهم. صمم الجنود أن يدفنوا زميلهم فى مقابر الشهداء خلف معسكر الجلاء. سألنا عن مكان معسكر الجلاء فقال رجال الإدارة إن المعسكر بحرى الترعة مباشرة. لم أحتمل البقاء بجانب أمى.. فانفلتُّ مسرعًا إلى حيث الجنود. أردت أن أرى أسرى العدو.. وتمنيت أن أبصق فى وجوههم.. وأن أنظر إلى وجه الشهيد الذى قال أبى إنه حىٌّ عند الله.. وأجلس أمامه مثلما جلس أبى أمام الشهيد تحت التوتة.. وأتمتم بالدعاء له ولكل الشهداء. وقفت مع الجمع، الذى احتشد فى صمت، أراقب الجنود وهم يحملون زميلهم ويعبرون به ترعة الإسماعيلية حيث كانت تنتظرهم سيارة انطلقت بهم إلى مقابر الشهداء. انتبهت إلى أننى انشغلت بالشهيد عن البصق فى وجوه القتلة. تلفتُّ حولى باحثًا عن الأسرى فلم أجدهم. سألت فقالوا: لقد أخذوهم مقيدين وحبسوهم فى أحد المنازل تحت الحراسة فى انتظار أن يأتى رجال المخابرات لتسلمهم.

يمر وحوش الصاعقة بمحاذاة الترعة بعد انتهاء المعركة فيلتف الأهالى حولهم. ألحق بهم وأنظر إليهم بانبهار.. لا أنسى ما عملوه لنا فى سرابيوم.. نعرف أنهم منهكون من المعارك.. ومع ذلك لا نكف عن السؤال عما فعلوه بالملاعين، وهم يكتفون بالرد: كل خير.. كل خير. نسألهم: أين تذهبون. يقولون: لنتزود بالذخيرة ونستعد لعملية جديدة. يغيظنى الرد.. فأمسك بسترة المقاتل وأسأله عما فعلوه بالكلاب الذين قتلوا أبى. يتوقف.. يقترب منى ويحتضننى، ويقبلنى فى رأسى مهدئًا: نأخذ بثأرك كل يوم.. واليوم كان زفت وقطران عليهم. أطمئن قليلا وأسرع لأحكى لأمى ما دار بينى وبين رجل الصاعقة، فتدعو الله أن يشتت الظَّلَمَة، وتنشغل عنى بالبكاء. أضع يدى على خدى نادمًا أننى فتحت معها سيرة الثأر. بعد لحظات تنتبه لى وتأخذنى فى حضنها وتبوسنى وهى تجفف دموعها.

★★★

لماذا نقلوك إلى القنطرة قبل الحرب بشهور قليلة؟ وأنت روحك فى سرابيوم.. وفيها حبة قلبك.. رئيفة. لا أعرف ماذا حدث لك.. ولا ما حدث لها. أحس أنى معلقة فى الهواء.. لا أقدر أن أطير فأحط عندك وآخذك فى حضنى.. وأخفيك فى صدرى.. ولا أستطيع أن أمشى على الأرض.. كأنى مسجونة فى خوفى عليك وعلى رئيفة، وابنك الذى فى بطنها.

★

انتهينا من تمشيط الحصن الذى سقط بعد عشر دقائق.. فأفقت مندهشًا.. هل عبرنا فعلاً؟ أم أننى أحلم؟ سمعت أصوات الانفجارات فتيقنت أننا فى الحقيقة وليس فى الخيال. نظرت فرأيت طائرات العدو تهاجمنا بعصبية. ودفاعنا الجوى يطاردها بثقة.. تصاب الطائرة فتقع مرفرفة كأنها حمامة أصابها صياد ماهر.. فنهلل ونكبر. الفرح والتحفز

وعدم التصديق طرد التعب، وجدد النشاط، وحفز الهمة، وجعلنى أبحث عن الأخبار فى المواقع الأخرى المجاورة. لكن الأوامر جعلتنا نتقدم القوات لنرى ولنبلغ عن تحركات العدو ونواياه.

اشتعلت النار فى حشود العدو، وتوهج فرن التأديب. همس جابر: نفسى فى سيجارة. قلت له ساخرًا: التدخين ممنوع يا جندى.. سيجارتك قد تكشف مكاننا. رد بصوت مبتسم: اسمح لى يا أفندم أن أشعل سيجارة من نار هذا الفرن الوالع. جابر.. جندى الإشارة الذى يحمل جهاز اللاسلكى ويعامله كطفله المدلل.. يعمل معى منذ انتقلت إلى القنطرة من سرابيوم.. عدة شهور قضيناها معًا فى مناوشات حتى أصبحنا أصدقاء. هو اسكندرانى من بحرى.. يشتغل فى بيع السمك.. عمل فى الحلقة .. ويحلم أن يمتلك محلا لتجارة السمك. يرعى والدته التى تبيع السجائر والحلويات على ناصية حارة ضيقة. طلب منها أن تكف عن العمل، لكنها رفضت بحجة أنه مشغول عنها طول النهار.

ذات مساء قال لى فى لحظة فضفضة: أمى كان معها حق.. لأنى أفقت ذات يوم فإذا أنا مطلوب للتجنيد. حاولت أن أجهز كشف عائلة لكى أُعفى من التجنيد، فاكتشفت أن لى أبًا جاءته لوثة فأخذ أخى الكبير وهجّ. وأنا لا أعرفه ولا أعرف أخى.. ولا أعرف مكانهما.. أهما على قيد الحياة أم لا؟ ولا أعلم لماذا لم تحدثنى أمى عنهما؟ فتحت عينى على الدنيا فوجدت لكل ولد أبًا يحنو عليه، ويشترى له كسوته، ويأخذه من يده يفسِّحه ويشترى له الحلويات، تعجبت أن يكون لكل العيال فى الحارة أب إلا أنا.. تمنيت أن يكون لى أب لأنعم به كما ينعم أصحابى بآبائهم. سألت أمى عنه مرة واحدة وأخيرة.. أحسست بالندم لمَّا نطقت بالسؤال.. فقد اسودَّ وجهها، وتتابعت على صفحته مشاعر لم أستطع تفسيرها.. مزيج من الغضب والحزن

والوجع.. لم أتحمل النظر إليها.. كانت المرة الأولى التى أراها فى مثل هذه الحالة. نطقتْ كلمة واحدة: راح. وأشاحت بيدها إلى أقصى مدى تطولها. كدت أقع من طولى.. فانصرفت من أمامها مسرعًا.. تأكدت أن سؤالى كان حماقة.. وقررت ألا أكرره لأنى خفت عليها.. جريت لألعب مع العيال وأنا أقول فى نفسى: راح.. راح. سلمت أمرى لله وسلمت نفسى للجيش. حياة الجندية استهوتنى.. النظام يسرى على الكبير والصغير.. أما فى حلقة السمك فالنظام يسرى على الصغير فقط. مشكلتي أننى لا أقرأ ولا أكتب. لو عندى شهادة لتطوعت فى الجيش.. أحيانا أسأل نفسى: هل يمكن أن يقبلونى متطوعًا؟ هل يشفع لى أننى أصبحت فرد إشارة بحق وحقيق رغم جهلى. لا أعرف كيف دخلت سلاح الإشارة. أظن أنهم اختارونى بطريق الخطأ. المعلمون فى مركز التدريب كانوا يهزأون بى ويضربون بغبائى المثل. لكنهم للحق لم يقصروا فى محاولة إدخال المعلومات إلى رأسى. وساعدهم فى ذلك أني أعلنت التحدى وأقسمت أن أجعلهم يغيرون فكرتهم عن الجهلة أمثالى. ذات مساء سألته: كيف فعلت المعجزة وأصبحت عامل إشارة بحق؟ سكت قليلاً ثم قال: بصراحة.. فى مركز التدريب أرسلونى لأعمل طُلْبة فى المطبخ.. بعد عدة أيام أصبحت مرمطونًا أشعر بالمهانة لأن كل من فى المطبخ يصدر لى أوامر.. وأجد نفسى مجبراً على تنفيذها دون مناقشة. بعد أسبوعين لم أحتمل الوضع فسُقْتُ طوب الأرض على رقيب السرية لكى يعفينى من طُلبة المطبخ. ووعدته أن أصبح فرد إشارة بجد. وافق بعد إلحاح. عدت إلى التدريبات الفنية وأنا مرعوب من البعبع الذى نغص عيشى: طُلبة المطبخ. لم أصدق أن دورة الإشارة انتهت وأننى نجحت فيها إلا بعد أن ذهبت إلى مدرسة الإشارة لأتخصص فى هذا الجهاز الذى أصبح صاحبى وحبيبى. يبدو أنه لمح فى وجهى بعض شك.. فقال الماء

يكذب الغطاس.. ما رأيك فى إتقانى لعملى؟ قلت: الحق يقال.. بصراحة شغلك آخر تمام. تشجع فقال فى خجل: لما حصلت على الفرقة التخصصية وعدت إلى مركز التدريب.. أصبحت نموذجًا يضربون به المثل. ويدلل ضباط الصف المعلمين على أنه من الممكن أن يصنعوا من الفسيخ شربات بالحديث عن حالتى. تأتى سيرتى.. فيحكون التفاصيل التى تثير الضحك فى البداية.. ينظرون نحوى معتذرين فى صمت.. ثم يكملون مزهوين بالنجاح الذى حققته بعد عذاب.

صارت المنطقة ساحة حرب مخيفة.. أصوات انفجارات، وصرخات استغاثة، وشظايا متناثرة، ومركبات تنطلق، وجنازير دبابات تفرك الرمال فى غضب. ضحك جابر وهو يقول: لو أمسكت سيجارة مشتعله فى حجم ماسورة مدفع الدبابة لما انتبه لى أحد. سمحت له فأشعل سيجارة وأخفاها بين كفيه كما ينبغى لجندى استطلاع متمرس.

★★

أصبح عندى حذاء جديد، وجلباب جديد، وحصلت أمى على جلباب كستور، كما استطاعت أن تنتقى لأخوى الصغيرين ملابس جديدة تناسبهما.. واستطاعت بصعوبة أن تحصل لنا على غيارات داخلية. ودعت لأهل الخير فى بر مصر. قال لنا مندوب المحافظ إن المصانع والشركات المصرية هى التى أرسلت الملابس والأحذية والمفروشات. بعد توزيع الملابس أعطوا لسكان كل خيمة بطانيتين جديدتين. جاءت البطاطين فى وقتها.. فقد بدأنا نشعر بالبرد ليلاً. فى المساء أتت سيارة نقل كبيرة وأفرغت حمولتها من البلح فى مشنات كبيرة.. وقام رجال الإدارة بتوزيع البلح على الخيام حسب عدد سكان كل خيمة.

فى صباح اليوم التالى خرج الأولاد والبنات بملابسهم الجديدة كأنهم

فى يوم عيد. لكن الجو اختنق فجأة بسحابة سوداء ظللت القرية.. صاحبتها أصوات انفجارات قريبة. فجأة.. سقطت القذائف على الخيام وفى الترعة وفوق البيوت وأصابت الأشجار والسكك. أصابنا الغم وساد الذعر، وخرج النساء يولولن من الخوف، وانتقلت العدوى للأولاد والبنات والأطفال فساد الهرج وارتفع الصراخ. اشتعلت النار، وتناثرت الدماء على الخيام التى لم تحترق، واسودت السماء، وكست المكان سحب الدخان الأسود والغبار. كنت أجلس مع رفاقى على جسر الترعة نتحدث عن بطولات وحوش الصاعقة المصرية عندما حدث الزلزال. انبطحت على الأرض مثلما كنت أفعل فى سرابيوم، وأغمضت عينى. ظننت أننا سنموت جميعًا.. وارتعبت من أصوات الانفجارات واصطدام الشظايا بالبيوت والأشجار. رائحة الدخان جعلتنى على وشك الاختناق. توقفت الانفجارات قليلا فرفعت رأسى بحذر.. فرأيت الجثث تملأ الطريق.. والخيام محترقة أو منهارة فوق ساكنيها. لم أجد الأولاد الذين كانوا برفقتى. رأيت سطح الترعة مغطى بغصون الأشجار وقطع ممزقة من خيام. ظننت أن الغارة انتهت فقمت، لكن الضرب عاد بأشد مما كان.. فدفست رأسى فى طين الترعة التى كنت أجلس عليها. أخذت أردد كل ما أحفظه من أدعية وآيات القرآن الكريم. بعد دقائق سمعت مدفعيتنا بحرى الترعة تطلق قذائفها.. فهدأتُ قليلا. ظلت تضرب الملاعين حتى توقفوا عن ضربنا.

قمت أتخبط فى رعبى. لم أقدر على تمييز خيمتنا.. فقد انهار كثير من الخيام، واشتعلت النار فى الباقى، وأخذت أتعثر فى أجساد ملقاة على الأرض.. لا أعرف إن كانت لمصابين أم لشهداء. صكت أذنى أصوات صراخ واستغاثات وأنين. ورأيت رجال الإدارة يسرعون نحو الخيام فى ارتباك. وجدت بقايا حائط فانهرت بجواره باكيًا. سألت نفسى: أنا ميت أم

مصاب؟ تحسست أطرافى فتأكدت من سلامتها.. لكنى لمحت على جلبابى بقع دم. بعد دقائق رأيت جنوداً ينزلون من سيارة ويسرعون لنجدة المصابين.. قمت لأساعدهم.. فقد أعثر على أمى وأخوىّ. اطمأن قلبى قليلا لمَّا رأيت همة الجنود وسرعتهم. يتأكدون من وفاة الشهداء، ثم يسرعون لإنقاذ المصابين. رأيت معهم حُقنًا يغرزونها فى فخذ المصاب فيتوقف عن الأنين فى الحال.. ثم يشيرون إلى مجموعة أخرى تليهم ليحملوا المصابين إلى سيارات الإسعاف التى ظهرت فى المكان، ولا أعرف من أين جاءت.

الغشاوة التى كانت على عينى زالت، فعرفت خيمتنا.. فرحت لأنها لم تحترق، لكنها انهارت على من فيها. أسرعت نحوَها فأدركت أننى لن أستطيع أن أفعل شيئا وحدى، فرجعت إلى مجموعة المسعفين.. كانوا على بعد صف واحد من خيمتنا. أشرت لهم قائلا بذعر: هذه خيمتنا.. بها أمى وأخواى. طمأنونى بنظرة مشجعة واقتربوا من الخيمة بحذر.. ثم رفعوا جانب الخيمة الأقرب لهم.. كشفوا المكان فبدت أمى ملقاة على ظهرها تلهث فى إعياء وبجوارها منصور وخالد بلا حراك.. والدم يغطيهما. تحدثوا مع أمى فأجابتهم بحركة عينها. ناديتها فنظرت نحوى غير مصدقة.. تدفقت الفرحة من وجهها.. أقاموها فجلست.. ولم تتكلم. التفتوا إلى منصور وخالد.. انحنى الجندى عليهما فجسهما وتسمَّع تنفسهما.. ثم نهض والدموع تملأ عينيه.. وهمس كمن يحدث نفسه: العوض على الله. سمعته أمى فاتسعت عيناها دهشة وذعرًا.. حاولت أن تتكلم فلم يخرج صوتها.. وسالت دموعها فى صمت وهجمت على الطفلين تضمهما.. غير مصدقة أنهما ماتا معًا.. مثلما كانا يجريان ويرضعان ويتشاجران ويتضاحكان معًا. خلص الجندى الطفلين من بين يدى أمى، وأشار لجنديين فأبعدهما عن ناظريها. مدت أمى يديها لتأخذنى فى حضنها.. فانهرت بين يديها باكيًا.

ضمتنى إليها بقوة.. حتى كدت أتوقف عن التنفس.. استطعت أن أفلت من حضنها بصعوبة. جلست أمامها أنتظر أن تقول شيئا.. لكنها أشارت إلى لسانها.. فعرفت أنها لا تقدر على الكلام.

★★★

أصحو أحيانًا من النوم والصداع يكاد يفلق رأسى نصفين. أفكر فيك وفى رئيفة، وألوم نفسى لأننى سمحت لها أن ترجع إلى سرابيوم لتلد هناك؟ خفت أن أخالف اتفاقنا.. قلتَ لى دعيها تذهب مع أمها وأبيها إلى سرابيوم لتلد هناك. الحرب قامت بعد شهرين من ذهابها. لو أنك كنت قريبًا منها لهدأ سرى.. لكنك كنت بعيدا فى القنطرة. أعلم أن الأوامر فى الجيش تنفذ على رقاب الجميع.. ومصلحة البلد أهم من أى شخص.. لكن الرحمة مطلوبة. أنا أخطأت لمَّا تركت رئيفة تذهب إلى الحرب برجلها.. أنا نادمة ولن أسامح نفسى.

★★

بعد أن غاروا فى داهية، وعدنا من نفيشة فى سيارات المحافظة، قام رجال الأشغال العسكرية بترميم بيتنا المهدم. أقاموا جدرانه وأصلحوا نوافذه، وسقفوه بعروق خشب جديدة. وسلمتنا المحافظة أسرَّة ومفروشات وملابس. وقعت على أوراق كثيرة بالاستلام. ولمَّا طلبت من مندوب المحافظة جاموسة وحمارًا بدلا من اللذين ضاعا منّا.. وعدنا ببحث الأمر. الشىء المهم أنهم أحضروا مواد تموين تكفى لستة شهور. اطمأنت أمى قليلا لمَّا عاينت الدقيق والسمن والزيت والأرز والسكر والشاى. لكنها كانت مصدومة مما حدث لنا. لا تستطيع النطق وتتكلم معى بالإشارة.. وتمارس حياتها العادية.. تتحرك وتطبخ وتأكل وتنام ولا تغفل عنى. لو غبت عنها لحظة.. أسمعها تجأر بصوت مؤلم.. فأسرع نحوها لتأتنس بقربى منها. لم تعجبنى

الملابس التى سلمتها المحافظة لى. وفضلتُ أن ألبس الكاكى.. طلبت من جنود الأشغال العسكرية بدلة ميرى.. قالوا لى إن ذلك ممنوع ويعرضك للمحاكمة.. قلت لهم إننى أصغر من أن يحاكمونى. أبديت قرفى من الملابس التى سلمتها لنا المحافظة.. وواصلت الإلحاح حتى استسلموا لرغبتى.. أعطونى بدلتين كاكى. لكنهم، تهربًا من المسئولية، نزعوا الجيب الكاكى من صدر السترة ووضعوا بدلاً منه جيبًا بلون مختلف حتى لا تبدو كبدلة ميرى. فرحت بالبدلتين ولم أنشغل كثيرًا بندائهم لى: متولى الكاكى.

رأيته واقفًا أمامى فأصابنى ذهول. ظننت أنه صار شهيدًا، وأننى لن أراه ثانية. رؤيتى له أطلقت أحزانى من عقالها. لم أعرف من أين أتت كل هذه اللوعة والدموع.. كنت أكتمها فى صدرى خوفًا على أمى التى هدَّها الحزن. أخذته إلى داخل البيت وأنا أهذى: دسوقى يامَّه.

سلخنى صوته وهو يسألنى عن رئيفة وأبى ومنصور وخالد.. فأجابته دموعى ودموع أمى. وقف فى مدخل الدار يتلفت حوله.. كأنه يستكشف المكان.. نظرتُ إليه من بين دموعى.. رأيت عينيه تدوران بحثًا عن الأحباب.. ورأسه يتحرك بعصبية فى كل الاتجاهات.. أخذ يدور حول نفسه. يتمزق بين الرغبة فى معرفة ما حدث، والخوف من أن يتحدث أحد بتفاصيل تذبحه. يبدو أن الدموع كانت غزيرة بما فيه الكفاية ليتخيل ما حدث. ركبه الجنون وانطلق به.. يجرى وأنا ألاحقه حتى انقطع نفسى ووقعت على الأرض. انتظرته حتى عاد. جلس بجانبى وسألنى عما جرى.. فحكيت له. سمعنى حتى انتهيت. قام وأخذنى من يدى ومشى بجانبى هادئًا صامتًا. عدنا إلى البيت. دخل حجرة رئيفة ونام. فى الصباح أخبرنا أنه ذاهب ليزور أمه وأخواته البنات؛ فأحنت أمى رأسها وراحت تبكى.

توقعت أن يمضى إجازته كلها مع أمه وأخواته.. لكننا فوجئنا به يعود

فى اليوم التالى صامتًا حزينًا. حاولت أن أكسر بوابة الصمت التى أقامها أمامنا فلم أستطع. جلست معه أمام بيتنا أسند ظهرى إلى حوض الطلمبة الإسمنتى.. انتبهت إلى أصابعى تمسك بالطوق الذى لففته حول عنقى. تذكرت الجندى الشهيد الذى دفنه أبى تحت التوتة، وسلمنى سلسلة بياناته وأمانة الإبلاغ عما حدث له. خلعت الطوق من رقبتى.. حركت الطوق فى يدى فانتبه للسلسلة ونظر لى متسائلاً.. قلت له: هذه أمانة حمَّلها لى أبى. سألنى مندهشًا: أية أمانة. فحكيت له. سمعنى باهتمام.. ثم سألنى فانكسر طوق الصمت، ورأيت دموعه للمرة الأولى.

يظن الناس أنه نسى ما جرى. هكذا يبدو أمامهم، لكننى أعرف أنه حبس مصيبته فى قمقم وخبأها فى صدره، ولم يسمح لأحد أن يشاركه فيها. طلوعه المصطبة كل صباح، وانفراده بنفسه على قمتها أثار استغراب سكان المنطقة.. لكنهم تقبلوا الأمر بالتدريج.

بعد أن استقرت الأوضاع طالب الفلاحون بهدم مصطبة سرابيوم للانتفاع بزراعة أرضها. حدث ذلك بإيعاز من أصحاب الأرض الأصليين. ردت الإدارة بأنه تم تعويض أصحابها تعويضًا مجزيًا. أقر الفلاحون بأنهم أخذوا التعويض، لكنهم لا يرون ضرورة لبقائها على حالها.. خاصة أن الملاحة عادت فى قناة السويس، وحالة الحرب انتهت، وبدأ تعمير سيناء. علم الدسوقى بذلك فصرخ بأعلى صوته: المصطبة تخصُّنى.. اقتلونى قبل أن تهدموها. هز الناس رؤوسهم متعجبين من ثورته. وانتهى الأمر ببقاء المصطبة كما هى.. ليصعد عليها كل صباحٍ يتأمل الشرق البعيد.

★

جابر يعشق صوت بدرية السيد.. طول النهار يدندن بأغنيتها: طلعت فوق السطوح أنده على طيرى.. لقيت طيرى بيشرب من قنا غيرى. فإذا

عنفته على إعجابه بهذه الأغنية قال لى: أنت لم تر بدرية السيد ولم تسمع صوتها. بدارة بنت بحرى.. آه لو شفتها وسمعت صوتها. يسكت قليلاً ثم يدندن بأغنية أخرى ويتمايل. سيدى يا سيدى.. أسأله عن صاحبها فيقول ليغيظنى: بدرية السيد. أما خليل فكان مهووسًا بعبد الحليم حافظ.. يحفظ أغانيه ويرددها بانسجام. اعتدنا أن نرجوه بعد العشاء أن يغنى لنا. يتدلل أحيانا.. لكنه فى النهاية يستجيب بعد أن نهتف به كما فى فيلم لحن الخلود: غنّ يا وحيد.

معى راديو صغير أضعه على أذنى لأستمع للبيانات العسكرية التى تصدرها القيادة العامة. فى صباح السابع من أكتوبر كانت وحدات الفرقة قد استولت على خط المهمة الأول. انضممنا لقوات النسق الأول، حيث تم إرسال مفرزة أخرى حلَّت محلنا لنأخذ قسطًا من الراحة، وانتظرنا التعليمات. أشار خليل إلى الراديو فى جيبى مستئذنًا، فأعطيته له. ظننت أنه يتسمع آخر البلاغات العسكرية أو يسمع أغنية وطنية، فتسلل إلى أذنى صوت عبد الحليم حافظ يغنى: صافينى مرة. نظرت مندهشًا إلى خليل وسألته: فى أى محطة تذاع هذه الأغنية؟ فهمس: محطة إسرائيل. خطفت الراديو من يده وأغلقته فى غيظ. نظر لى نظرة لائمة. قبل أن أعنفه رأيت فى عينيه بقايا دموع. شعرت بالإشفاق عليه، وتحدثت معه برفق: يبدو أنك عاشق. قال: أبدًا، لكن الأغنية أثارت مشاعرى وملأتها بالحزن. قلت له: هذا هو المطلوب.. أن ترتخى وتشعر بالحزن والحنين للأحباب.. هذا مخطط حرب نفسية. هم يتعمدون إذاعة مثل هذه الأغانى لكى يقللوا من تأثير مشاعر الثأر التى تتردد فى صدورنا جميعا. فاعتدل فى جلسته داخل الحفرة واتسعت عيناه وهمس: يا أولاد الكاااالب.. معك حق.

الحديث مع خليل عن الحنين للأحباب أضاء بعض اللمبات فى رأسى..

أطفأتها جميعًا بحسم.. عدا لمبة واحدة توهجت ثانية وأبت أن تنطفىء.. رئيفة.. قمرى الباسم الحنون.. آه يا نور عينى.. أنت الآن فى المعمعمة.. أصبحتم داخل الحرب، لا على هامشها. الخطر يهددكم كما يهددنا، فأنتم قريبون أكثر من اللازم.. بينكم وبين القناة ثلاثة كيلومترات تقريبًا، وهذا يعرضكم لقذائف المدفعية وقنابل الطائرات مثلنا. كيف تعيشون فى قلب المعارك الدائرة؟ وكيف تأكلون؟ وكيف تستعدين للولادة؟ فى آخر إجازة قلت لى: أنا خائفة من الولادة فى غيابك. قلت لك وأنا مرعوب: لا تخافى.. معك والدك ووالدتك وباقى الأهل والجيران.. ومعك الله.. يرعاك ويحفظك ويتمم لك على خير وتقومى بالسلامة.. ونفرح بابننا إبراهيم الدسوقى. كنت تبكين إلى أن قلت لك إننا سنفرح معًا بإبراهيم الدسوقى، فتحول بكاؤك إلى ابتسامة نورت البيت وأدفأت قلبى.

★★★

أعرف أن الله هو الحافظ.. وأنه يختار من يصعد إليه.. ويؤجل من بقى له عمر. فى الحرب لا أحد يعرف من يذهب ومن يبقى. طائرات العدو حاولت ضرب كوبرى بنها لتقطع الطرق بين البلاد.. فطاشت القنابل ووقعت على الحقول المجاورة.. لتقتل أكثر من ثمانين فلاحا يزرعون أراضيهم القريبة من الكوبرى. هل كان يتخيل الواحد منهم أنه خرج من بيته ماشيا على قدميه ساعيًا من أجل لقمة العيش، وهو فى الحقيقة ذاهب إلى قضائه وموضع موته؟ أنا مؤمنة وموحدة.. لكن الخوف أقوى منى.

أهرب من خوفى بتذكر أيامك معى قبل أن تتركنى وتتطوع فى الجهادية.. كنت تلميذًا مجتهدًا تأتى كل يوم فتفتح كراساتك لأرى النجمات التى تحصل عليها.. وتحدثنى عن أبلة زاهية التى وقعت فى غرامها.. كنت أتعجب.. كيف تحب وأنت لم تبلغ.. لكنك نسيتها لمَّا أخذت الابتدائية ودخلتَ

الإعدادى. كبرت فجأة لما توفى أبوك. ولما تزوجتُ بسرعة تغير حالك.. فقد تركنا بيتنا وبعنا الأرض والجاموسة وانتقلنا لنعيش فى بيت جديد وغريب. لم تحتمل نظرات زوجى لك.. معك حق.. فنظراته لك كانت تسمم بدنى.. لكننى تصبرت.. وأنت لم تصطبر ورفرفتَ بعيداً عنى. كنتُ على وشك الجنون.. لم أهدأ إلا بعد أن عدت وأنت تلبس الميرى، أخذتك فى حضنى وبكيت.. بعد أن خلصت الدموع نظرت لك فرأيتك رجلا بحق.. كلماتك كانت بلسماً أزال الوجع من قلبى..

لما مات زوجى فجأة أحسست أنك رجلى الوحيد لآخر العمر. كنت أحب أن تتزوج واحدة من قريباتك، وتقعد معها فى بيتنا لنعتنى بها أثناء غربتك فى الجيش.. ونربى أولادك وسطنا. لكنك اخترت رئيفة من بلاد القناة.. كما اختار ابن خالك بنت أسرة من المهاجرين. فى البداية لم أوافق.. لكنك اقنعتنى وهى لم تقصر ناحيتى أبداً.. هى حلوة وبنت ناس وتحطها على الجرح يطيب. تمنيت أن تعيش معنا دائماً.

★

أغمضت عينى فاستعدت مشهد الفرح وليلتنا الأولى معاً.. خرجنا من القرين فى سيارتين بعد العصر متجهين إلى دسوق.. ركبت معك فى السيارة وكان معنا متولى ووالدتك.. وركب والدك فى السيارة الثانية مع خالك وزوجته وابناهما. كنت تلبسين فستان الفرح الأبيض المشغول بالترتر، وتتلفتين حولك كثيراً دون أن تنظرى ناحيتى. والدتك لاحظت ارتباكك فقالت لك بوضوح: دسوقى زوجك ورجلك والكتاب مكتوب من شهرين. بُصّى له وقربى منه وخليه يمسك يدك. بعد لحظات هدأتِ قليلاً.. فانتهزت الفرصة وأمسكت بيدك التى استكانت فى كفى. ونظرتِ نحوى للمرة الأولى منذ ركبنا العربة.. ثم رميت بنظراتك إلى أسفل. ضغطتُ على كفك فنظرتِ نحوى ثانية.. رأيتك تبتسمين فى رقة.

وصلنا القرية فاستقبلتنا زفة كبيرة ضمت أمى وأخواتى وأهلى وأبناء القرية جميعًا. جلسنا فى الكوشة التى تم تجهيزها فى الساحة المجاورة للبيت. رقصت الراقصة أمامنا وشاركها أهل القرية، ودارت أكواب الشربات، وارتفع صوت الميكروفون بأغانى الأفراح. فى حوالى التاسعة جاءت أختى وهمست فى أذنى: العروسة متعبة من المشوار الطويل، وأمك تدعوك لدخول البيت. بمجرد قيامنا انفض الفرح وبقى الأهل المقربون. على باب البيت صاحت أمى: برِجلِك اليمين. اكتشفت أن أمى قررت إخلاء البيت ليصبح لنا.. أنا وأنت فقط. أخذت بيدك وأدخلتك حجرتنا. رأيت حلة الاتفاق على الطبلية فسألتك: تأكلين الآن.. هززت رأسك بما معناه: بعدين. همست لك: مبروك يا عروسة. فرأيت على وجهك ابتسامة جميلة مخلوطة باندهاش وقلق. أمسكت وجهك بيدى ونظرت إليك بعمق.. رأيت عينيك المذعورتين جميلتين ورائقتين. اقتربت بشفتى من وجهك فانتابك الذعر. لمست شفتيك فانسابت دِموعك. لم تكن دموع خوف.. لأنك بعد دقائق قليلة كنت تمرغين وجهك فى صدرى وأنت تهذين بكلمات متآكلة ومتداخلة، وهمهمات تذيب الحجر. وسطعت شمس حبنا حمراء قانية متوهجة بنشوة الغياب والصحو والتعثر فى غلالات النوم وشقشقات عصافير الفجر.

★★★

يوم فرحَك كان يوم الفرْح كله. قمت بترتيب كل شىء. على أساس أن تقعد مع عروستك فى البيت.. ونقعد أنا وأخواتك فى بيت عمة البنات فى البيت المجاور لنا. الحق أن عمة البنات رحبت، وأنا قمت برد كرمها لنا بدهان البيتين مع بعض. ليلة الحنة كانت ليلة!! رقص فيها شباب البلد على نغمات المزمار بجوار البيت.. ورقصت كل البنات فى بيت العمة.. وصوت الدَّربُكَّة والغناء وصل للسما. عملت حسابى.. رتبت العفش ومنعت الكل من دخول البيت.. عدا أخواتك طبعًا.. كنت خايفة عليك يا ضنايا.

يوم الحنة كنت زين الرجال بجد.. لايق فى الجلابية البلدى واللَّاسَّة. أهل البلد احتفلوا عدا البعض الذين كانوا يطمعون فى زواج بناتهم منك. من الصبح بدرى قمتَ وأجرت سيارة وسافرت للقرين لتحضر زوجتك. قعدت قلقانة عليك طول النهار لغاية ما هلت الزفة. المشوار طويل عليكم.. بعد العشا بساعة بعثت أختك لك لتدخل البيت. قمتَ مع عروسك فانفض الفرح. حلة الاتفاق فى حجرتك لتتقوت بعد تعب الاستعداد للفرح. لما دخلت مع عروستك الحجرة قفلنا عليكم وسبناكم تفرحوا ببعض.

فى الصباح انتظرناكم نصبِّح عليكم.. لكن قمتم بعد العصر. أم رئيفة دخلت على بنتها وأنا وراءها وقفلت الباب علينا. سألناها بصراحة فى نفس واحد: عملتوا إيه. لم ترد. احمرَّ وجهها وهى تشير إلى الملاءة البيضاء الموضوعة على شباك السرير.. ثم نظرت إلى الأرض كمن تبحث عن شىء. لعلع المكان بصوت زغرودة طويلة مجلجلة أطلقتها أم رئيفة.. ثم أخذت الملاءة وأخفتها فى ثوبها. قلت لرئيفة: مبروك يا عروسة. فأدارت رأسها خجلًا وهى ترد بكلمات خافتة. نظرتُ إلى بواقى حلة الاتفاق، وأخذت الصينية إلى خارج الحجرة وأنا أحمد ربنا على أن الليلة مرت بسلام. ربنا يفرَّح قلبك يا حبيبى.. ويرزقك الذرية الصالحة. نفسى أشوف خلفتك قبل ما أموت.

النقطة كانت كثيرة. خيرك مغرق الناس فى البلد. طبيعى أن يجاملوك ويجاملونى. ثانى يوم وضعت النقطة كلها فى حجرك.. لكنك رفضت أن تأخذ منها مليمًا واحدًا. أصيل طول عمرك يا دسوقى.. مثل أبيك.

★

أفاقتنا خبطات هينة على باب الحجرة. خرجت [illegible] وأمك تقدمان التهنئة بكلمات روتينية.. بينما عيناهما [illegible]

السؤال الذى يؤرق كل أب وأم بعد زفاف ابنتهما. قبل أن أرد على التهنئة أو أجيب عن السؤال الأزلى.. هربت من الموقف بأن مددت يدى إلى صينية الإفطار التى تحملها أختى على رأسها.. ووضعتها على الطبلية. شعرت بحنان نحو أختى التى أتمت عامها العاشر.. فقلت لها: ربنا يخليك.. وعقبى لك، وأتعب لك يوم فرحك. وهمست لأمى: ادخلى عاينى بنفسك. وذهبت إلى الحمام.. تاركًا لهما مهمة استكشاف الأمر.. مشفقًا عليك من الاستجواب.

استدعانا قائد السرية وأمرنا أن ننطلق فورا لاستبدال أطقم الاستطلاع على الخط الأمامى.. طلب أن تتحرك المفارز بنفس التشكيل مع تعديل طفيف.. فقد ضم إلى مفرزتنا مجموعة توجيه وإدارة نيران مدفعية الفرقة.. وتتكون من ثلاثة أفراد.. وتم الاتفاق على أن أقود المجموعتين إلى خط المراقبة وتجميع المعلومات دون أن أتدخل فى تفاصيل أعمال إدارة النيران. راجعنا الأجهزة والترددات والتعيين وطلقات الإشارة وزمزميات المياه وانطلقنا. أكد قائد السرية: أسرعوا لتأمين خط المهمة التالية على بعد أربعة كيلومترات من هنا.. استمروا فى الجانب الأيمن.. الفاصل بينكم وبين مجموعة إدارة النيران لا يقل عن مائتى متر.. أنتظر بلاغاتكم فى خلال ساعة على الأكثر. يبدو أن الأوامر ستصدر باحتلال خط المهمة التالية بأسرع مما نتوقع.

الشمس حامية، واستخدام المركبات ممنوع، مع أن المعابر تم نصبها، وبدأت المركبات والدبابات تعبر عليها. فى فترة الراحة سألت المقاتلين القادمين من الغرب عن أحوال المعابر فقالوا إنهم عبروا بعرباتهم المصفحة بعد منتصف الليل بقليل، وكانت مدفعية العدو تضرب المعابر بعنف، لكن المهندسين والجنود المكلفين بإقامة المعابر كانوا يسارعون بإقامة معبر بديل فى حال تدمير أحدها، بينما ينهمك آخرون فى إصلاح المعبر المعطوب. قال

لى سائق مدرعة: كلمة السر هى الله أكبر.. جعلت الجميع يعملون بانسجام كأنهم فى مشروع تدريبى.

تحركنا فى اتجاه الشرق إلى الجنوب قليلاً. الحرارة تشتد وتعصف بنا.. ما نحمله ضرورى.. لكنه يبطىء من حركتنا. يبدو أن نجاحنا فى احتلال خط المهمة الأولى سيدفع القيادة لاتخاذ قرار باحتلال خط المهمة الثانية.. خير وبركة.

سمعنا صوت كركرة تأتى من خلفنا. توقفنا لنرى ما يحدث. رأينا على البعد مدرعتين تقتربان منّا. لقد خرجنا من رأس الكوبرى لنرصد العدو أمامنا.. فكيف يأتى من خلفنا. أشرت إلى زميلىّ فانضما إلىّ واختفينا فى حفرة صغيرة.. وأخذنا نتابع. مرت المدرعتان قريبًا منّا.. فلم يكن يفصلهما عن حفرتنا إلا خمسون مترًا تقريبًا. حمدنا الله والتزمنا الصمت والسكون.. وراقبنا المدرعتين تنطلقان بسرعة من يبغى الفرار من خطر محقق. انتظرنا حتى ابتعدتا بقدر كاف.. ثم تناقشنا فى تفسير ما رأيناه. قال جابر: إنهما منسحبتان من حصن من الحصون المدمرة. وقال خليل: ربما ما يحدث من بقايا معارك الليل بين قواتنا وقوات العدو المتسللة لرأس الكوبرى.. وأن المدرعتين منسحبتان من المعارك التى دامت طوال الليل. اتفقنا على تتبع المدرعتين.. راقبنا خط سيرهما من خلال الأتربة المنبعثة وآثار الجنازير. هتف جابر كأنه اكتشف نظرية جديدة: ستوصلنا الآثار إلى تجمعات العدو. رفعت إبهامى محييًا.. بينما صاح خليل: أصبحت خبيرًا فى التكتيك يا جابر.. ابسط يا عم.. تكتيك واستطلاع إلى جانب الإشارة.. وأسرعنا لنلحق بالآثار الطازجة للمدرعتين.

بعد كيلومترين تقريبًا دارت المدرعتان حول تبة انتصبت أمامنا فى غموض. كنا نتقدم فى الأرض المنبسطة زاحفين.. وفى غير ذلك كنا نهرول

بطولنا أو فى انحناءٍ حسب الهيئات الأرضية التى تواجهنا. التبة التى اختفت وراءها المدرعتان جعلتنا نتوقف لندرس موقفنا. توقعت أن توجد فى التبة نقطة ملاحظة.. وإذا صح ذلك فقد رصدنا العدو.. وصرنا معرضين للقنص. التفكير المنطقى يؤكد أن وراء التبة حشداً للعدو.. وكان يجب أن نرى بعيوننا. قررنا أن يتقدم أحدنا زاحفًا من الناحية الأخرى للتبة ليستطلع المكان بحذر. أرسلنا إشارة موجزة بما نراه. تطوع خليل لينفذ المهمة.. وقمت مع جابر بتغطيته. عاد مسرعًا فى هدوء.. همس بأن المكان مخصص لتجميع القوات وإعادة تجهيزها، وتحضير المركبات وملئها بالوقود، وطلب منى أن أتقدم زاحفًا لأرى بعينى، وأساعده فى تقدير الموقف. تقدمت ببطء وحذر.. الثنيات الأرضية ساعدتنى على أن أشمل المكان بناظرى، واستطعت أن أرصد كتيبة دبابات وكتيبة مشاة راكبة. الساحة وراء التبة أشبه بسوق كبيرة.. رأيت الجنود يجهزون دباباتهم ومعداتهم، ورصدت عدداً كبيراً من أطقم قنص الدبابات والمجنزرات. كما لاحظت أن جنود الخدمات يقومون بتوزيع أكياس طعام.. ورأيت أكواباً تدور فى أيدى الضباط والجنود.. وقدرت أنها تحتوى على مشروب ما. وضعت النظارة المكبرة على عينى فميزت القائد من تصرفات المحيطين وعرفت رتبته.. نظرت إلى بعيد فرأيت دبابات أخرى تقترب. أشرت إلى زميلىّ فاقتربا.. طلبت منهما بالإشارة أن يراقبا ويسجلا المعلومات فى رأسيهما.. عدنا بهدوء إلى الجانب الآخر من التبة. أبلغنا إشارة مشفرة حددنا فيها إحداثيات المنطقة وحجم القوات. أكدنا أننا رصدنا كتيبة دبابات وكتيبة مشاة ميكانيكى، وأن التعزيزات تتواصل، وقد يصل الحشد إلى لواء مدرع ولواء ميكانيكى بالإضافة إلى أطقم قنص المدرعات. قلنا إننا نتوقع أن يتحرك الحشد للهجوم على قواتنا فى خلال ساعة أو أكثر قليلاً.. بعد خمس

دقائق فقط جاءتنا الأوامر بالانسحاب فوراً إلى أقرب نقطة لرأس الكوبرى، مع تجنب الاشتباك مع العدو مهما كانت الأسباب. وأن نترك مجموعة توجيه وإدارة نيران المدفعية تواصل عملها فى الموقع الذى وصلته بالقرب منّا. زودت مجموعة التوجيه بتعليمات القيادة وتركناها لتؤدى عملها مع مدفعية الفرقة.. ثم انسحبنا بحذر شديد على شكل "زجزاج". وحرصنا ألا نكون على خط واحد، وألا نكون قريبين من بعضنا، وأن نتعامل بإشارات اليد فقط.

اقتربنا من الحد الأمامى. أصدرنا إشارة التعريف فسمح لنا حرس المرور بالانضمام لقواتنا التى تحتل حدود رأس الكوبرى. قائد السرية كان ينتظرنا. لم نكد نبدأ الكلام حتى مرقت طائراتنا من فوق رؤوسنا فى اتجاه الموقع الذى رصدناه. بدأت طائراتنا تلقى بحممها فى ساحة السوق الواسعة. هتفنا معا: الله أكبر. أخذ جابر يهز رأسه فى أسف مصنوع وهو يكرر: يا خسارة.. سوق السمك انفض يا أولاد.. كان نفسى أشوفهم وهم يتبعثرون كذباب هاجمته بخاخة المبيد القاتلة. بعد عدة دقائق أتت موجة أخرى من طائراتنا فواصلت تدمير وبعثرة الذباب والحشرات المنتشرة فى الساحة الواسعة. تحولت السماء إلى اللون الرمادى، واحتجبت الشمس قليلاً وراء الغمامة المتصاعدة من الفرن المتوهج.. فقد ارتفعت من قلبه وزواياه أعمدة دخان سوداء قاتمة.

خطر ببالى سؤال لم أستطع أن أكتمه عن قائد السرية: موجة الطائرات الأولى التى ضربت حشود العدو لم أشاهدها فى الرجوع.. ورأينا الموجة الثانية تتبعها بفاصل قصير.. أين ذهبت طائرات الموجة الأولى؟ يا خوفى تكون وقعت.. ماذا حدث يا افندم؟ ابتسم قائد السرية وقال بهدوء: طائرات الموجة الأولى ضربت وعادت دون أن تروها.. لأنها ارتفعت فى الجو لتترك

الفرصة للموجة الثانية لأن تنقض وتكمل ما بدأته. خبط خليل رأسه بأصابعه وقال مندهشًا: كيف لم أنتبه لهذا.. لقد خفت على طائراتنا. قال قائد السرية: لا تخف.. كل شيء معمول حسابه. ثم نظر إلى جابر مبتسمًا وقال إن مدفعية الفرقة ستدك ساحة سوق السمك الآن. سألته متى نتقدم لنكمل مراقبة العدو؟ قال هامسًا: في هذه اللحظات تتحرك سرية صاعقة خلف خطوط العدو لتكون قريبة من الساحة فور انتهاء مدفعية الفرقة من قصفها. نظرت إليه مندهشًا.. فقد تصورت أن القيادة تعتمد علينا فقط في الاستطلاع. لاحظ القائد اندهاشي فقال شارحًا: هذه القوات مدربة على الاستطلاع والقتال في نفس الوقت. أنتم قمتم بالاستطلاع الواجب.. وهم سيقومون بتشتيت باقي الحشود.. سيفاجئون العدو وهو مرتبك ليقتلوا أكبر عدد من جنوده ويدمروا مركباته الدائخة في الساحة. تأكدت أن رأس كوبرى الفرقة سينتقل في الحال إلى الحد الثاني على بعد عشرة كيلو مترات من القناة.. شكرًا يا رب.

سرية الصاعقة قامت بالواجب وزيادة.. فأمنت المنطقة التي ستجتازها وحدات الفرقة لتوسيع رأس الكوبرى. بعد الظهر بقليل بدأت دبابات اللواء الخامس عشر المدرع في العبور. سرى النبأ بين المقاتلين فعلت هتافات الجنود.. وسرت الفرحة في صوت الضباط وهم يحددون المهام.. وتدفقت الثقة في قلوب الجميع. العقيد تحسين شنن قائد هذا اللواء شخصية شهيرة في الجيش.. يعشق الجندية.. كما أنه مرح لا يكف عن إلقاء النكات والتعليقات الطريفة.. لكنه ساعة الشغل صارم للغاية.. لا يعرف غير الواجب.. ولا يصادق إلا الشرف العسكري. رأينا دبابات اللواء تتقدم ببطء وثبات لتحتل مواقعها داخل حدود الفرقة. لحظة أن رأيتها أيقنت أن الوحدات ستتقدم خلال ساعات لتحتل خط المهمة الرئيسي. حاولت طائرات

العدو أن تضرب المعبر لتمنع أو تعطل عبور الدبابات.. سقطت بعض القنابل قريبًا من المعبر.. لكنها لم تؤثر على استمرار عبور الدبابات. ولما هاجمتها المدافع المضادة ارتفعت إلى الأعلى لتصطادها الصواريخ فتسقط واحدة وتهرب باقى الطائرات. مدفعية العدو بعيدة المدى حاولت اصطياد المعبر، لكنها فشلت وطاشت قذائفها دون أن تتمكن من إحداث أضرار تذكر بالمعبر. أتت لقائد السرية إشارة غيرت وجهه بعد أن كان مشرقًا بابتسامة كبيرة. قال: إن قذيفتى مدفعية أصابت المعبر إصابة مباشرة فدمرت أجزاء منه ويعمل رجال المهندسين على إصلاحه. أضاف: لكن الحمد لله.. فقد عبرت جميع دبابات اللواء قبل إصابة المعبر.

★

قلت لك إن أحدًا لم يتخيل أن نعبر القناة وننجح فى تدمير حصون العدو بمثل هذه السهولة. كنا على حق.. وكان الله معنا. كيف لا ننجح وقادتنا قريبون منا.. قدما بقدم.. وكتفا بكتف، وعلى خط واحد. نحن ضباط الصف قلدناهم، واقتربنا من جنودنا، وحملنا همومهم، وخففنا عنهم.

تدربنا وتعبنا وعرقنا وخسرنا رجالاً، ونفذنا مئات المشروعات التدريبية فى حر الصيف وبرد الشتاء. واكتسبنا خبرات هائلة من معايشة رجال الأسلحة المختلفة. فلكل سلاح تكتيكاته وحكاياته وأسراره، ولكل قائد ملامح شخصية وأسلوب فى التعامل ونوادر.

فى واحد من المشروعات المشتركة حدثنى رامى إحدى الدبابات عن الجهاز المصرى الذى يتم تركيبه على تليسكوب الدبابة ليجعل التنشين أكثر دقة.. هذا الجهاز ابتكره مقدم فى سلاح المدرعات.. وثبت نجاحه فى المشروعات.. الخبراء الروس لم يتخيلوا أن يقوم ضابط مصرى بتصميم هذا الجهاز وتركيبه فى الدبابة التى صنعوها. العجيب أنه بعد أن ثبت

نجاحه أخذوا به وطبقوه فى جيشهم. لقد ذكر لى اسم هذا الضابط.. وظل اسمه فى ذاكرتى: توفيق على منصور. الرامى الذى حكى لى هذه الحكاية خريج كلية العلوم.

فى مشروع تدريبى آخر عرفت أن بعض المجندين الحاصلين على بكالوريوس العلوم يأخذون دورات تدريبية على جهاز معقد للغاية.. يتيح للدبابة أن تحتفظ بالهدف داخل التليسكوب فى أثناء سيرها، ويمكنها من إصابة الهدف المرصود مهما كانت تعرجات الأرض وارتفاعاتها أثناء الحركة. غارات الطيران وقذائف المدفعية دمجتنا فى نسيج واحد.. فأصبحنا كتلة واحدة غاضبة تطلب الثأر. وأنت يا متولى كنتَ واحداً منّا فى سرابيوم. يسرى عليك ما يسرى علينا.. كل الفرق أننا نرتدى الميرى وأنت لا ترتديه.. لكننا نتعرض لنفس الخطر الذى لا يميز شخصاً عن آخر.

مرت الموجة الأولى بسلام. لم أتوقع أن ننفذ المهام بمثل هذه الدقة وفى التوقيتات المحددة تماماً. بل أحياناً قبل التوقيتات المحددة. احتلت الفرقة الخط الثانى بعد استيلائها على الخط الأول مباشرة دون أن تنتظر طويلاً. أحصينا خسائر العدو.. فتأكدنا من تدمير سبع وثلاثين دبابة وعددٍ كبيرٍ من العربات والمصفحات. استيلاؤنا على الحصن الجنوبى فى قطاع الفرقة أثار دهشة كل من عرفوا أنه سقط بعد عشر دقائق من عبور القناة. أنا وزملائى لم نندهش. لأن ما حدث كان طبيعيًا ومنطقيًا.. فقد تدربنا على مجسم يحاكى الحصن. الفضل فى ذلك يرجع لرجال المراقبة الموجودين فى نقاط الملاحظة فوق المصاطب.. لأنهم حددوا بدقة خريطة حقول الألغام حول الحصن.. وكان لرجال الصاعقة الفضل فى معرفة مداخل ومخارج الحصون عندما كانوا يعبرون القناة ويهاجمونها.

لم يكن السؤال: ننجح أم نفشل؟ لكنه كان: كيف ننجح؟ لم يكن احتمال

الفشل وارداً. فكيف نفشل وقد تدربنا جميعًا على ماكيتات مطابقة للنقط الحصينة التى تواجهنا. فعرفنا مكانها بالضبط، وطرق الاقتراب منها، والطرق المعدة للانسحاب، وارتفاعها وشكل أبوابها وحجمها، ومزاغل النيران ومرابض الدبابات، ومواضع هوائيات أجهزة اللاسلكى، والمسافة بينها وبين أقرب موقع لنجدتها، ثم وصفها من الداخل، وهو وصف تقريبى بالقطع، ثبت فيما بعد أنه كان دقيقًا.

فى سرابيوم رأيت أننى لست أقل من الرجال الذين ينفذون العمليات الخاصة شرق القناة.. فطلبت من قائدى أن أشترك فيها. قبلونى بعد أن زكّانى ترشيح القائد، وحصولى على فرقة صاعقة. ضُمِمت إلى مفرزة استطلاع مقاتلة متخصصة فى العمل خلف خطوط العدو. يخطط القادة للمهمة، ثم يتولى الضابط المسئول عن العملية شرحها بالتفصيل على الخريطة، ثم على تختة الرمل، ثم على المجسم الذى يماثل الهدف المطلوب. الدقة التى ننفذ بها المهام تجعل الفشل مستحيلاً.. رغم تعرضنا لمفاجآت مؤلمة تنغص علينا نجاحنا. فقد ندمر دبابة إسرائيلية ونقتل طاقمها ونأسر جندياً إسرائيلياً، لكننا قد نخسر أحدنا فى طريق العودة. إذا تعثَّر فى حقل ألغام، أو طالته طلقة رشاش. فى كل الأحوال كنا نعود ونحن نحمل شهداءنا وجرحانا، وزاداً من الخبرة والجرأة فى التعامل مع العدو. لو بقيت فى سرابيوم لقمت مع زملائى بالعمل نفسه.. الاستيلاء على الحصون التى تدربنا عليها طويلاً، واستطلاع أرض المعركة، والإبلاغ عن حشود العدو.

أفقت من تأملاتى وأنا أشعر بالرضا.. فقد كانت بلاغاتنا الدقيقة عن حشود العدو سبباً فى سرعة تقدم الفرقة واحتلالها خط المهمة التالية.. بعد أن أصبح الطريق خاليا من قوات العدو.

★★★

يارب.. أنت الواحد الأحد الذى ألجأ إليه لينجدنى من الكرب.. سبحانك أنت القادر على أن تريح قلبى وقلوب كل الأمهات. يا رب اقهر أعداءك وأعداءنا، ونجنا من شرهم وظلمهم. أين أنت الآن يا دسوقى؟ ومتى أراك لأطمئن عليك؟ فأضمك إلى صدرى وأتأكد من سلامتك.. ورئيفة.. كيف أطمئن عليها؟ لا أعرف كيف يتصرفون عندما يأتيها الطلق فى هذه الظروف.. كيف تكون الولادة فى الحرب والضرب.. وإذا كانت السكك مقطوعة فماذا يفعلون. يا حوستى.. الصبر يا رب.. والرحمة من عندك!

★

قبل المغرب بقليل زن جهاز اللاسلكى فى يد جابر. فتح الخط وقال بصوت هادىء: أفندم. بعد لحظة قدم لى السماعة، فسمعت قائد السرية يأمرنى بمغادرة الموقع وتركه تحت قيادة خليل، وموافاته فوراً. لم تكن المسافة كبيرة بيننا.. لكننى قطعتها بحذر. كنا فى هذه اللحظة نبعد حوالى كيلومتر واحد عن الحد الأمامى لقواتنا. وصلت إلى قائد السرية بعد أن غطست الشمس. أديت التحية، فأشار لأجلس بجانبه فى الحفرة. تعجبت!! فقد رأيت فى يده اليمنى رغيف عيش بلدياً ملفوفاً على شكل ساندوتش وتطل منه رائحة جبن مش. وفى يده اليسرى ثمرة طماطم لم أر أشهى منها. الدهشة التى بانت فى عينى جعلته يجيب بسرعة عن سؤال لم أنطق به: سائقو عربات الذخيرة التى أتت من الغرب أحضروه من الأهالى. من غير أن أطلب.. مد يده فى الجرابندية وأخرج رغيفًا آخر وقطعة جبنة مش وطمطماية، وقدمها لى وهو يهمس: أحلى إفطار.. المغرب أذّن.. كل بالهنا والشفا. التهمت الرغيف بالجبن والطماطم فى ثوان قليلة. ثم قلت وأنا أمسح فمى: ياه يا أفندم.. أحلى من علب اللحم والأرز.. الأكل الطازة أحلى أكل...

نظر لى مبتسمًا وفاجأنى قائلاً: تحب تحبس؟ قلت: أحلى فكرة. مد يده وأخرج علبة طعام قتال فارغة وملأها بالماء ثم وضعها فوق قطعتى حجارة فى جانب من الحفرة، ثم وضع تحتها قرص سبرتو وأشعله. انتظر حتى غلى الماء فوضع شايًا وسكرًا فى العلبة، وبعد قليل رفعها. بحث عن علبة أخرى وقام بقسمة الشاى بين العلبتين. أعطانى علبة وهو يسأل: إيه رأيك؟ قلت: أحلى شاى فى التاريخ. أغمضت عينى وارتشفت الشاى كعاشق، ثم جلست متحفزًا. فأشار ببساطة وهو يقول: اركن ظهرك.. أنا فى انتظار أخبار. عرفت أننا مقبلون على مهمة جديدة.

ركنت ظهرى إلى جانب الحفرة وأغمضت عينى. أفقت على جندى الإشارة يهمس للضابط. انتظرت حتى تلقى الإشارة. رأيته يلتفت نحوى مبتهجًا. قال وصوته يرقص من الفرح: الحمد لله.. النقطة الحصينة الباقية بالقنطرة سقطت. سكت لحظة ثم استكمل الخبر: لكن قوات العدو المنسحبة من الحصون تنتشر بكثافة فى المبانى والبيوت وتواصل القتال. مطلوب تمشيط القنطرة وتحريرها تمامًا من أى وجود للعدو. قلت بقوة: تمام يا أفندم. قال: تعرف القنطرة حتة حتة.. بكل حواريها.. قل لى أهم المبانى التى يمكن أن يتحصن بها العدو فى القنطرة. قلت كأنى أُسمِّع نشيدًا وطنيًا: مخزن المعونة الأمريكية، وفندق الشرق، وقسم الشرطة، وكنيسة القديس سبيريدون، وبعض المنازل المدمرة ذات الطابق الواحد. قال وهو يضغط على الحروف: سلم نفسك فورًا، لتكون تحت قيادة رئيس عمليات الكتيبة.. هو الذى سيقود عملية التمشيط والتطهير.. خذ بالك.. ستنضم إلى مجموعة صاعقة متمرسة على القتال بالسلاح الأبيض وجها لوجه. لقد اخترناك وحدك من سريتك. تذكر أنك ذاهب ليس لمجرد قتال العدو.. وإنما

لتحرير القنطرة شرق.. ولا تنس صديقك يسرى الشعراوى الذى ينتظر هذا اليوم منذ ست سنين.

★★★

جئتنى بعد خمسة شهور من الغياب.. فخبأتك فى صدرى.. وهدأ قلبى قليلاً.. وفاضت عينى بالدموع.. بعد أن ظننت أن بئر دموعى جفت. أكلمك بالدموع.. وتحدثنى بالسكوت. أنظر إلى وجهك فأجده كأنه قالبُ حزن.. وأتأمل عينيك فأرى فيهما جداراً يمنعك من البوح ويخيفنى من السؤال.. حركتك بطيئة مترددة.. كأنك نادم عليها.

أين أيام الحكى والضحك على مصطبة الدار؟ فى العصارى نجلس حولك نناوشك لتحكى نوادر المستجدين، وحكايات المجندين، وعلاقتك بالضباط. نسألك عن أخبار أصدقائك الذين نعرفهم بالاسم.. الزواج والميلاد وأحوال المرض وصعوبة المعايش، ومصيبة الموت التى تتوارى خلف الأفق، وتطلع مع النهارات الجديدة بغير توقع. فى الليالى المقمرة نشوى الذرة فى راكية أمام المصطبة. تحت ضوء القمر تحلو معابثات أخواتك البنات لك.. تفتعل الغضب قليلاً.. لكنك لا تصمد من شدة حنانك عليهن. نظل نتحدث حتى يغالبنا النوم.. فنقوم وقد أشرقت علينا شمس المحبة الخالصة.

لا أنتظر عودة تلك الأيام.. أيام الضحك والحكايات المسلية والأخبار الطازجة.. لكننى أطلب من الله أن يفتح عليك بالكلام. ربنا رجعك لى سالمًا من الحرب.. وهو القادر على أن يعيدك إلى سابق عهدك. فأكون خازنة أسرارك.. أنا لا أطلب الكثير.. تحدث معى.. افتح لى قلبك مثلما كنت تفتحه فى سابق الأيام.

★

ياااااه .. يا متولى! لا أقدر أن أصور لك حالتى فى تلك الساعات..

كنت أركب المدرعة مع زملائى وهى تمضى شمالاً ببطء وبدون أنوار.. فى اتجاه القنطرة شرق. أمامنا عدة مركبات وخلفنا عدد آخر بفواصل مناسبة. نجلس فى المدرعة فى صفين متقابلين، والضوء الخافت يلقى ظلالاً مراوغة على وجوهنا الساهمة والمتحفزة. لا نقدر على تبادل الكلام من فرط انفعالنا.. كل واحد منا يحاول أن يتخيل شكل المعركة المنتظرة بعد دقائق قليلة. تذكرت كلمات قائد الكتيبة عندما قال: إن تحرير القنطرة شرق هو تحرير لمدينتين فى وقت واحد.. قنطرة الشرق وقنطرة الغرب. كما تذكرت زميلنا المهندس يسرى الشعراوى.. للأسف لا أعرف مكانه.. ليته كان معنا ليشهد لحظة الانتصار. المعركة محسومة تماماً. فقد عبرنا القناة، واستولينا على حصون العدو جميعها، واكتسحنا دفاعاته وبعثرنا دباباته ومعداته، وتوغلنا فى سيناء عشرة كيلومترات. نقترب من المدينة المهدمة لنصطاد بقايا جنود العدو الهاربين من الحصون والقافزين من الدبابات والمركبات المدمرة.

توقفت المركبات ونزلنا فى صمت. شرح رئيس عمليات الكتيبة المهمة باختصار، وقام بتقسيمنا إلى مجموعات قتالية صغيرة متجانسة. كل مجموعة يقودها ضابط يحمل جهازاً لاسلكياً، وتتكون من جندى مهندسين بحوزته مجس ألغام، وجندى يحمل آر ـ بى ـ جى مضاداً للدروع، وجندى قناص، وأربعة جنود للاقتحام والاشتباك، وجنديين للحماية والدعم. وقد تم تسليح الجميع بالبنادق سريعة الطلقات والقنابل اليدوية. تم تحديد إشارات التنفيذ والتنسيق وتوقيتات الاقتحام المتتابعة حتى لا تتعارض المهام. وأبقى رئيس العمليات تحت يده مجموعتين احتياطيتين يدفع بهما فى اتجاهات الهجوم المتعثرة. وتم الاتفاق على أن يتصل قائد كل مجموعة برئيس العمليات الذى يتولى السيطرة على العملية بأكملها، ويوجه المجموعات إلى

أهدافها حسب ظروف التنفيذ. كما تم التنسيق مع القوة التى تحتل الحصن رقم ثلاثة على إشارات التعاون عند الحاجة إلى دعم المجموعات المهاجمة.

كل مقاتل منا يحفظ هيئات ومبانى القنطرة مثلما يعرف كف يده. نعرف المسافة بين المبانى الحاكمة بعدد الخطوات.. حتى أننا نستطيع أن نقطعها مغمضى العيون. المجموعة التى ضمتنى تقدمت فى صمت وفى خط واحد إلى مبنى مخزن المعونة الأمريكية الذى أنشىء أيام الحرب العالمية الثانية. قبل أن نصل بعدة أمتار انطلق الرصاص ناحيتنا من داخل المبنى. أمرنا قائد المجموعة بالانتشار منبطحين وبعدم إطلاق النار. سمعته يبلغ قائد العملية الذى أمر بقصف المبنى بمدفعية العدو التى استولينا عليها فى النقطة الحصينة. بعد لحظات انطلقت القذائف متتابعة نحو المبنى، فتوقف إطلاق النار المعادى. صدرت إشارة التقدم بعد توقف القصف. تقدمنا بسرعة. زميلى ألقى بقنبلة يدوية فى المدخل وتوارينا قليلاً. لم نجد رداً بعد انفجارها فاقتحمنا المكان وأمطرناه بالرصاص. اندفعنا إلى البهو الداخلى فتوزعنا على أبوابه الثلاثة، وألقينا وراء كل باب قنبلة يدوية وتوارينا. انفجرت القنابل فسمعنا أنينًا وصراخًا ينبعث من إحدى الغرف، ورأينا جنديًا يتقدم رافعًا يديه وهو ينزف. قام جندى قاذف اللهب بتكميم فمه وقيد يديه وراء ظهره، ومزق سترته وربط بها قدميه ليمنعه من الحركة.. ثم أمره بالجلوس خارج المبنى دون حركة فامتثل. اقتحمنا الغرف فأحصينا سبعة قتلى واثنين يحتضران نتيجة إصابات بالغة. حقناهما بالمورفين وأبلغنا قائد العملية لتدبير إخلائهما إلى المستشفى.

أصدر قائد العملية أمرًا بأن نتجه إلى فندق الشرق لأن المجموعة التى تهاجمه تواجه مقاومة شديدة. اقتربنا فوجدنا المجموعة قد خسرت جنديين وأصيب اثنان آخران. قائد المجموعة أبلغنا أن بعض الجنود الإسرائيليين

يحتلون بقايا الطابق الثانى المهدم، ويطلقون منه الرصاص على رجالنا. قال إنه طلب المدد من المدفعية، لكن رجالنا فى النقطة الحصينة اكتشفوا أن الفندق ليس فى مرمى المدفعية. أمر القائد اثنين من القناصة أن يحتلا سطح بيت مهدم مواجه للفندق. وأمرهما أن يكونا مستعدين لإطلاق النار على المتحصنين بالطابق الثانى. ثم أشار فاقتحمنا الفندق وتوزعنا داخله. فكر القائد فى حيلة لإخراج جنود العدو من مكمنهم.. فهمس لنا ببضع كلمات.. افتعلنا مشاجرة صاخبة انتهت بإطلاق نار. انطلق الرصاص فظن جنود العدو فى الطابق الثانى أن المعركة تدور مع زملائهم فهمُّوا لنجدتهم. ولأن القناص يحتاج لنصف فرصة ليقضى على خصمه.. فقد اصطادهم قناصونا بمجرد أن رفعوا رؤوسهم. كانوا ثلاثة، سقط اثنان فاستسلم الثالث. وأحصينا تسعة قتلى فى الفندق.

تم تمشيط المدينة شبراً شبراً، وكانت حصيلة قتلى العدو ثلاثة وعشرين قتيلا، بينما تم أسر ثلاثين فرداً للعدو بعد استسلامهم. كما تم الاستيلاء على كمية كبيرة من الأسلحة والذخائر، معظمها فى الحصن الذى سقط، وكانت تحتله القيادة العسكرية الإسرائيلية للقطاع الشمالى من جبهة قناة السويس. بعد حوالى ثلاث ساعات قمنا بعملية تجميع للقوات، وعدنا إلى نقطة التمركز التى خرجنا منها، حيث هنأنا رئيس العمليات على نجاح عملية تحرير القنطرة نهائيًّا من الوجود الإسرائيلى، وترحم على الشهداء، وطمأننا على أن الجرحى يخضعون للعلاج الآن. كانت خسائرنا ستة شهداء وأحد عشر جريحًا. قال قائد العملية: إن الثمن باهظ. لكن تحرير الأرض يستحق أكثر من ذلك.

فى طريق العودة نظر نحوى قائد مجموعتى، وأشار إلى وجهى سائلاً: ما هذا؟ نظرت متسائلا فى دهشة. قال: الدم يغطى رقبتك وملابسك. مددت

يدى لا شعورياً فأحسست بألم شديد فى أذنى. تذكرت أن رصاصة مرقت بجانب رأسى، فحمدت الله أنها لم تصبنى. لكن يبدو أنها احتكت بأذنى فأصابتها، ولم أشعر بشىء لشدة القتال. كتمت الدماء، ولمَّا وصلنا إلى السرية الطبية اكتشف الطبيب أن الرصاصة أطاحت بقطعة من صوان أذنى اليمنى. ابتسم الضابط الطبيب وقال: من حقك أن نخليك إلى الخطوط الخلفية. رفضت بالطبع، وفضلت أن أحتفظ بالوسام ليزين أذنى اليمنى.

★★★

تحدث يا ولدى.. انطق يا دسوقى. حصل شىء فظيع.. لا أعرفه.. سألتك عن رئيفة فرددتَ بنظرة صاعقة جعلتنى أتلفت حولى وأفكر.. هل نطقتُ كفراً. صرختُ فى رعب: أسألك عن رئيفة.. لماذا لا ترد. زويت ما بين عينيك وانتظرت طويلا قبل أن تقول كلمة واحدة: ما اعرفش. كدت ألطم على وجهى من الفزع.. وصرخت ثانية: يعنى إيه؟ نظرت إلى الأرض ولم تنطق. كنتَ واقفًا فجلست على حافة سريرى. يبدو أننى لطمت وجهى بالفعل. لم أدرِ ما حدث بالضبط.. رأيتك ترفع وجهك وتنطق بكلمة أخرى.. كلمة واحدة: ضاعت. صراخى جعل الجيران يسرعون إلينا. لم يفهموا شيئًا.. خاصة وأنك انحنيت وأحضرت حقيبتك من تحت السرير.. دسست فيها ملابسك وخرجت دون كلمة. أفقت فعرفت أنك غادرت القرية. ظننت أنك ستذهب إلى دسوق لتزور والدك فى ساحة المسجد. صحوت فى الصباح، ولم أجدك بالبيت.. فأدركت أنك غادرت إلى وحدتك.

★

فى صباح اليوم الخامس من الحرب.. أسرعتُ إلى قيادة اللواء بعد استدعاء عاجل. رأيت قائد سريتى يجلس مع قائد كتيبة الاستطلاع. أديت التحية وانتظرت التعليمات. قال قائد الكتيبة: أنت مكلف بالتوجه إلى قيادة

الجيش فى معسكر الجلاء لاستلام جهاز لاسلكى متقدم. سيكون تحت تصرفك سيارة «زيل» بسائقها. خذ معك أحد رجالك. المهمة سرِّى للغاية. يمتنع عليك أن تنشغل بأى شىء آخر. الرجوع إلى غرب القناة يحتاج تصريحًا خاصًا. التصريح والسيارة جاهزان. املأ الأوراق وتحرك على الفور.. ثم سألنى السؤال التقليدى: أى أسئلة. فقلت: أقترح توفير سيارة جيب لأنها أسرع وأخف فى الحركة من العربة الزل الضخمة والبطيئة. قال القائد: العربة الجيب الصغيرة قد تلفت النظر إليك.. قل الحمد لله وتوكل.. ربنا يسلك طريقك. أديت التحية وتأهبت للانصراف. قال قائد الكتيبة: غير مسموح بالخطأ. خذ كلمات المرور التى ستختلف من منطقة إلى أخرى وخليك مصحصح. أخذت جابر وصعدنا إلى العربة، وأمرت السائق فانطلقنا.

أخذت التصريح وتأكدت من سلامة أوراق المهمة واقتربنا من المعبر. رجال المرور والسيطرة جعلونى أشعر ببهجة غامرة. تذكرت ما قاله قائد السرية بالأمس: سمعت مراسل إذاعة لندن يقول إن المرور على المعابر من غرب القناة إلى شرقها يبدو أكثر انضباطًا وسيولة من المرور داخل القاهرة. وبرغم البهجة التى شعرت بها بسبب النظام الذى يفرضه رجال المرور والسيطرة.. فقد ضايقتنى الإجراءات التى يقومون بها للتدقيق والتفتيش والتحقق من الشخصية والمهمة. المهمة نفسها أغاظتنى.. لم أتحمس لها.. فما الذى جدَّ لكى يرسلونى إلى قيادة الجيش لأستلم جهازًا لاسلكيًا؟ هل اكتشفوا وجوده فجأة؟ أم أنه وصل للتو من مكان ما؟ وهل هو ضرورى لمهمة تطوير الهجوم التى نتوقعها؟ ألم يكن ممكنًا أن ترسل قيادة الجيش الجهاز مع أى قائد قادم لموقع الفرقة.. أو مع أى سائق؟ فى النهاية قلت فى نفسى: لم تتعود مناقشة الأوامر العسكرية يا دسوقى.. ماذا جرى

لك؟ عندما وصلت إلى هذا الحد من التفكير اكتشفت أننى تجاوزت الفردان واقتربت من الإسماعيلية.

الخطر رافقنا منذ اللحظة الأولى. ونحن فى منتصف المعبر تعرضت المنطقة لغارة بالطيران لكن الله سلم. على الجانب الغربى من المعبر تصرف رجال الشرطة العسكرية بصرامة تفوق ما هو معروف عنهم. تمنيت من فرط الضيق أن يعيدونى مرة أخرى إلى الشرق. أخيراً سمحوا لنا بالتحرك. غارات الطائرات تطول المعابر والسائرين على الطريق العرضى الموازى للقناة. عند كل غارة نترك السيارة ونلجأ للحفر والثنيات الموجودة على جانبى الطريق إلى أن تنتهى. تفاجئنا دانات المدافع بعيدة المدى فلا نعرف هل ستتوقف أم لا.

على بوابة معسكر الجلاء واجهتنا نفس الإجراءات.. لكنى قلت فى نفسى: نحن فى حالة حرب.. ويجب الامتثال لإجراءات التأمين الضرورية. فى النهاية أنجزت المهمة بنجاح.. وأصبح جهاز اللاسلكى المتقدم فى حوزتنا. فى طريق العودة كنا نمضى بأقصى سرعة ممكنة لنصل قبل أن يحل الظلام. قبل القنطرة بعدة كيلومترات شاهدنا طائرات العدو تنقض على المعبر القريب بسرعة شديدة. لكن قوات الدفاع الجوى أجبرتها على الارتفاع. شاهدنا صاروخاً ينطلق نحو طائرة فأسقطها. إحدى الطائرات ألقت صواريخها بشكل عشوائى فسقط أحدها قريبا من الطريق الذى نسير عليه. أمرت السائق فتوقف، وأسرعنا لننبطح على الأرض. قمت بعد انتهاء الغارة وقام جابر.. لكن السائق ظل راقداً.. اقتربت منه فرأيته يئن والدم ينزف من ظهره بغزارة، فقد اخترقت ظهره شظية. حملناه، ووضعناه فى صندوق السيارة بصعوبة، وجلس جابر إلى جانبه، وتوليت قيادة السيارة بأقصى سرعة. عند المعبر طلبت المعونة من رجال الشرطة العسكرية فأخلوه

إلى النقطة الطبية القريبة. ما إن وضعناه فى سيارة الإسعاف حتى فاضت روحه. حاولنا اصطحاب جثمانه معنا فرفض رجال الشرطة العسكرية، وأشاروا بالابتعاد لأن المعبر مدمر. قابلت قائدهم وأفهمته مهمتى العاجلة، فأشار إلى المعبر التبادلى، وطلب أن أعبر عليه، وأعطانى كلمة السر للمرور، واضطررنا للعودة بدون الشهيد.

تهلل وجه قائد السرية لمَّا رآنا، وأبلغ القيادة بتمام المهمة، وأمرنى أن أسلم الجهاز لقائد الكتيبة شخصيًا، ثم نذهب لموقع السرية، ونستعد لتلقى المهمة الجديدة. لاحظ القائد ارتباكى فسألنى: مالك؟ فحكيت له ما حدث للسائق، فترحم عليه، وأشار لأحد مساعديه ليقوم بتسجيل الواقعة. أديت التحية وانصرفت. حزنى على السائق الشهيد أمسك بخناقى. بعد لحظة همست لنفسى: هو محظوظ.. هم أحياءٌ عند ربهم يرزقون. سقطت دموعى رغمًا عنى، فأحسست أننى أصبحت أخف وأسرع. قلت لجابر وكأنى ألومه: لم لا تغنى يا جابر.. غن لنا أغنية بدارة.. سيدى يا سيدى.. أو ادلع يا رشيدى. لم يكذب جابر الخبر ووضع يديه على أذنيه وبدأ فى الغناء، فوضعت يدى على فمه ألومه قائلاً: يا أخى اهمد.. كل كلام تصدقه من غير تفكير؟ فقال فى خجل: سأغنى لك بصوت نسمعه أنا وأنت فقط. كان القمر مكتملًا أو يكاد. فمضينا نحو قائد الكتيبة.

توقف جابر فجأة، وقال بجدية: أنا أتكلم جد الآن.. لى عندك طلب. قلت: تحت أمرك يا جابر. قال: إذا استشهدت. قاطعته: استبشر خيراً يا رجل. أمسك بساعدى فى عصبية قائلاً: صدقنى.. لو استشهدت أرجوك أن تبلغ أمى رسالة. نظرتُ إليه مشفقًا وجاريتُه: حاضر يا سيدى أبلغها إيه؟ نطق كلمة واحدة: تبلغها... ولم أجد جابر.. رأيت جسده يتداعى على الأرض دون كلمة أو آهة أو صرخة، ورأسه ملقى على الأرض بجانبه. قذائف

المدفعية كانت تدوى من حولنا.. لكنى لم أتخيل أن تكون قريبة منا إلى هذا الحد. بعد أن أفقت من الصدمة أدركت أن قذيفة انفجرت بالقرب منا وانطلقت منها الشظايا لتصيب الجنود بغير نظام. رأيت بجوار جسده شظية ما زالت ساخنة بحجم ساطور. يا إلهى.. كان يمكن أن تقتلنا هذه الشظية معًا.. فلماذا اخترته يا رب من دونى؟ ولماذا يا رب لم تدعه يكمل ما أراد أن أبلغه لأمه؟ عدت إلى قائد السرية وأبلغته ما حدث فارتعد للحظة ثم تمالك نفسه قائلاً: لا وقت للحزن أو الدموع.. اذهب وأكمل مهمتك، وسأتولى أنا أمر الشهيد جابر.

فى قيادة الكتيبة رأيت البِشْر يكسو وجوه الضباط والجنود. أديت التحية لقائد الكتيبة وأبلغته بإتمام مهمتى.. وسلمته الجهاز. فقال: تمام يا رقيب. سكت لحظة كأنه يتأمل ملامحى ثم قال: فيك إيه يا دسوقى؟ أدركت أن وجهى فضحنى، فذكرت للقائد خبر استشهاد جابر والسائق.. فقال بيقين: هذا الثمن يجب أن يدفعه أحدنا.. أنا أو أنت، أو أى شخص يقف بجوارنا.. ولا تسأل لِمَ هذا دون ذاك.

★★★

افتقدت مسامراتى معك. أخواتك يحدثننى من خلف ظهرك عن لونك المخطوف، وسرحانك الدائم، وأكلتك الناقصة، وضيقك من محاولة استدراجك للكلام. كأنك نسيت الحروف. هل سلبتك الحرب مفاتيح الكلام؟ كيف أخفف عنك؟ أنا لا أعرف.. وأخواتك لا يعرفن. المشكلة أننا لا نعرف ما جرى.. وكنا نظن أنك تعرف. لكنا تأكدنا أنك أيضًا لا تدرى ماذا حدث بالضبط. بدأنا نلتمس لك العذر بعد أن حكيت لنا ما تعرفه.. قطرة بقطرة.

★

خسرت جابر وافتقدت أحاديثه الشيقة، وغناءه لمواويل بدارة الشجية،

وارتعبت من التفكير فى أن أزور والدته فى بحرى.. فماذا أقول لها؟ وكيف تتقبل مصيبة فقد ولدها بعد مصيبة فقد والده الذى هج بابنهما الأكبر، ولم تعرف لهما طريق جُرَّة؟ كيف يتركها الجميع وحيدة بلا أنيس؟ تبيع الطويات والسجائر على قمة الحارة.. وتمص أصابع العذاب، وتقرقش حبيبات الوحدة والألم. ثم عدت وقلت لنفسى: وما أدرانى أننى سأبقى حيًّا إلى أن تنتهى الحرب؟ فى الحرب لا يوجد من يضمن لنفسه الحياة.. ولا لغيره. وهل فى غير الحرب يضمن أحد لنفسه الحياة؟

عدت إلى قائد السرية فرأيته فى الحفرة التى جعلها مقرًّا لقيادته. حفرة صغيرة تسع ثلاثة جنود على الأكثر.. كان جالسًا وظهره إلى الجانب الأكثر ارتفاعًا فى الحفرة.. يفرد خريطته ويسلط عليها ضوءًا خافتًا من بطارية صغيرة. رآنى فأشار إلىّ لأجلس بجواره. جلست فهمس لى: خبر بمليون جنيه. من المؤكد أنه رأى لمعة فى عينى جعلته يواصل: سنطور الهجوم. قلت بصوت هامس لكنه فرح: الله أكبر.. هو خبر بمائة مليون. رد بهدوء: استعد يا بطل. دمعت عيناى رغمًا عنى. تجاهل القائد دموعى وأبلغنى أنه سيلحق على مفرزتى أحد المؤهلات العليا ليعمل كجندى إشارة، وأن علىّ تجهيز باقى المفارز وانتظار التعليمات.

★★★

تربية الصبيان صعبة يا دسوقى. لكن تربية البنات همٌّ يا روحى. همٌ كبير لا تعرفه غير الأم التى تلد ابنتها، وتفكر فى زواجها بعد السبوع مباشرة. تضع القرش على القرش لتشترى لها طقم حلل أو مفارش للسرير والكنب. وتقتضى من الباعة السريحة طُرحًا وإيشاربات وأطقم ملابس داخلية وجلاليب بيتى.. وتحاسب السريحة بالتقسيط وأحيانًا بمواسم الحصاد. وإذا ربنا قدرها تشترى لها نعجة وتخصص نتاجها لجهازها.

وتبقى مهمومة بها حتى تزوجها وتراها فى بيت العدل. ساعتها تهدأ وترتاح وتحمد الله على سترها. لكن أقول لك الحق.. أمهاتنا قلن لنا إن رزق البنات واسع. والحقيقة أنا لقيت المثل صحيحًا.

أخواتك جئن وراء بعض كأنهن فى طابور. الأب مات والكبيرة عمرها سبع سنين. أبوها حلف مائة يمين ألا تدخل المدرسة. قال وهو غاضب: بلا مدارس بلا وجع دماغ. تقعد فى البيت وتساعدك.. البنت ما لها إلا الجواز. فقعدت فى البيت. لا أنسى غضبك المكتوم عندما رفض الرجل محاولتك لتغيير رأيه. وكأن الرجل كان يشعر بقرب أجله. لأنها ساعدتنى فى أعمال البيت والغيط بعد وفاته. لكنى نفَّذت رأيك وتركتُ البنتين ليكملا دراستيهما.. وأخذت كل واحدة شهادتها.

المصيبة التى حصلت لم تؤثر على حبك لأخواتك.. فلم تقصر فى واجبك.. ولم تهدأ حتى زوَّجتَهن فى نفس القرية التى نعيش فيها.. ظننت أنك ستكتفى بما فعلت؛ فقلت لك: اعمل حاجة لنفسك. قلت لى: العمل عمل ربنا يا أمى، أنتم كل حياتى. فى المواسم تحمل وتشيل وتأخذنى لزيارة أخواتك؛ فأحس أن رقبتى فى طول النخلة. أراك تشيل همَّ أخواتك وتصرف الفلوس والبسمة على وجهك.. لكن الحزن المرسوم داخل عينيك لا يخفى علىّ.. فأنا أمك التى ولدتك وعجنتك وخبزتك وتعرف متى تكون سعيداً ومتى تكون مأزومًا.

آه يا دسوقى.. لو أستطيع أن أعمل لك شيئًا.. الحزن الضاغط على صدرك، ويظهر فى عينك وصوتك يرعش قلبى.. ولما أجلس مع نفسى أترك حنفية الدموع تسح لكى أهدأ. لن أهدأ إلا إذا بردت نارك وقررت أن تتزوج. وأسأل نفسى: متى تبرد نارك؟ وكيف.. بعد كل ما وقع؟ قلبى يدق خوفًا عليك وأقول فى نفسى: متى تتزوج وأشيل عيالك على ذراعى؟

★

سمعتهم يقولون: مصطبة دسوقى. وإيه يعنى! العيال بدأوا فى معاكستى. يظنون أننى مخبول. وربما يذكروننى فيكتفون بتحريك أصابعهم يمينًا ويسارًا ثم ينطقون باختصار: خفيف. يظنون أننى من مخلفات الحرب.. كالمصطبة تمامًا.. لا ضرورة لنا. لا يعرفون أن لى ثأرًا أفسد حياتى ونغَّص عيشى.. وأن رجال السياسة ضيعوا حقى.

تهاجمنى الذكريات الأليمة فجأة.. بسبب كلمة أو لمحة أو لفتة تصدر عن شخص بغير قصد.. لكنها تُقلِّب مواجعى وتثير الحزن الكامن فى صدرى. لا أعرف ماذا حدث اليوم، فتذكرت عودة دبابات اللواء المدرع إلى رأس كوبرى الفرقة فى مساء يوم التطوير.

بعد أن استقرت أوضاع وحداتنا فى رأس الكوبرى.. بدأنا نفكر فى الخطوة التالية.. ونسأل بعضنا: متى نتحرك لنطور الهجوم فى اتجاه الشرق؟ ولمّا استدعانى قائد السرية وأَسَرَّ لى بأن تطوير الهجوم أصبح قريبًا، اجتاحتنى موجة فرح كاسح. أمرنى أن أظل بجانبه حتى تصل التعليمات. سألته: هل تأخرنا فى التطوير؟ فقال إن القيادة ترى ما لا نراه.. وتتجمع لديها معلومات من مصادر مختلفة.. والقرار لها.

تركنى قائد السرية فى حفرته وتوجه إلى قيادة الكتيبة بعد استدعاء عاجل. رجع بعد ساعة، وفرد الخريطة أمامه وأخذ يتأملها.. وبدا كأنه مهموم. ظللت ساكتًا أنتظر أن يتحدث. التفت نحوى فلمحت شبح ابتسامة هزيلة على وجهه. أشار إلى الخريطة وشرح لى مهمة التطوير التى سيقوم بها اللواء المدرع فى اتجاه بالوظة. قال إن المهمة التى كُلِّفنا بها ستكون تأمين جنوب رأس الكوبرى.. حيث ترى القيادة أن اتجاه الهجوم سيكون فى اتجاه الشمال الشرقى. وقد يستغل العدو تركيزنا على هذا الاتجاه ويحاول اختراق قواتنا من الجنوب.

لحقت بمفرزتنا خارج حدود رأس الكوبرى فى منتصف الليل تقريبًا. شرحت التكليفات الجديدة للجنود. حاولت النوم قليلاً فلم أستطع. طلبت تبديل خدمة الحراسة ليستريح الجنود.. فاكتشفت أن الجميع ساهرون فى حالة انتظار متوتر. نترقب بزوغ الصبح لنتابع ما سيجرى. وشددنا المراقبة فى جميع الاتجاهات. وحافظنا على مواعيد البلاغات مع قائد السرية.

فى الصباح دوت أصوات قذائف المدافع التى تسبق هجوم النسق الأول.. فاستبشرنا خيرًا.. وأخذت أفرك كفىّ. لحظ خليل توترى فهدأنى وذكرنى بأن علينا أن ننجز مهمتنا ونترك الآخرين لإنجاز مهامهم. أفقت كأننى أسمع هذا الكلام لأول مرة.. مع أنه يمثل أبجدية عملنا الذى اعتدناه. بعد ساعتين صار الأفق مسودًا.. ورغم بعدنا عن أرض المعركة فقد سمعنا صدى أصوات القنابل والقذائف والدانات بوضوح. التفتنا إلى قطاع مراقبتنا فلم نشاهد أى تحركات مريبة للعدو. تأكدنا أن العدو يدفع بقواته كلها فى اتجاه هجوم مدرعاتنا عليه. كرر خليل المعلومة المعروفة عن طبيعة الأرض فى سيناء فزاد قلقى. قلت لخليل: أعرف أن الأرض فى سيناء تعلو كلما اتجهنا شرقًا.. وهو ما يجعل العدو أقدر على مراقبة قواتنا وكشفها.. كما أن ارتفاع الهيئات الأرضية التى يحتلها تجعل مواقعهم أكثر تحصينًا وصمودًا أمام أى هجوم. استدركت قائلاً: إن حصونهم فى عمق سيناء لن تكون أقوى من الحصون التى استولينا عليها فى ساعة واحدة بعد عبورنا الساحق.

بقينا طول النهار نشدد المراقبة ونتبادل الأحاديث لنخفى قلقنا. ولم يكن لدينا أى معلومات عن سير المعركة. استخدمت اللاسلكى أثناء تبليغ إحدى الإشارات.. فسألت قائد السرية عن الأخبار فتجاهل إشارتى.

بعد العشاء لم أصبر. وفى اللحظة التى طلبنى فيها قائد السرية سألته

بوضوح فأجاب بغموض: القوات رجعت إلى رأس الكوبرى. فى صباح اليوم التالى عرفنا أن اللواء المدرع اصطدم بحائط من المدرعات والمدفعية المتحصنة فى مواقع مجهزة، وواجهته ستائر كثيفة من الصواريخ المضادة للدروع.. جعلته يخسر ثمانى عشرة دبابة وست عربات مدرعة.

★★

احترت فى أمر دسوقى.. لقد ثبت عند لحظة ما.. وأخذ يتأملها بحسرة. بدا لى كغاضب يمسك بخناق الزمن ليجبره على التوقف. اعترف لى أن أزمته بدأت بعد أن اتفقوا على انسحاب العدو من الثغرة دون قتال. سمعته مراراً يقول وكأنه يحدث نفسه: هذه غلطة العمر للسادات.. ضيع على مصر فرصة تنفيذ عملية مضمونة النتائج لتأديب الصهاينة.. كنا جاهزين ومتحفزين لهم.. وكنا نعرف أماكنهم بدقة.. فهم يقيمون على أرضنا التى نعرفها بالبوصة.. كل واحد منا يعرفها كما يعرف كف يده.. فى انتظار الأمر بالهجوم.

التاريخ والزمن رفيقان.. لا يستطيع أحد أن يقف فى وجههما.. أو يوقفهما. فهما يجرفان كل شىء أمامهما كالطوفان.. يجرفان البشر أولاً بأول، وفقًا لنظام يكاد يبدو متسقًا.. ويجرفان الطبيعة تبعًا لنظام لا نعلمه، ويهدمان الحضارات ويغيران أنساق الحياة دون أن نعرف السبب.. وبعد أن تنتهى الأحداث، يراجع المتخصصون صفحات التاريخ لتقصى الأسباب والدوافع والظواهر والأبطال.. فيتأملونها بقلب بارد.. ليستخرجوا أحكامًا تتبدل كل حين.

بدأ دسوقى يتغير فى أواخر أيام الخدمة. لكنه ظل تحت السيطرة. فالنظام العسكرى الصارم لا يدع للفرد وقتًا لكى يفكر كثيراً. المهام تستغرقه وتقتل الوقت، وتلهيه عن متاعبه، وتبعده عن متاع الدنيا، وتضبط

حركته. قال لى فى إحدى لحظات البوح إنه بدأ يسبب المشاكل بكثرة سؤاله للضباط عن الوضع السياسى. فيرد عليه قادته بضرورة الالتزام بالنظام العسكرى وترك السياسة لأهلها. يناقشهم: ومن يأخذ بثأرى؟ يهزون رؤوسهم حيرة وحزنًا لأنهم لا يجدون ما يردون به. أشفقوا عليه فازداد توترًا. أدرك أنه لن يتآلف مع النظام وهو بهذه الحالة. بعد محاولات منه للإفلات، ومقاومة منهم لإثنائه.. وافقوا على إحالته للتقاعد. كان يمكن أن يستمر عدة سنوات أخرى.. لكنه قال لهم: نار الغيظ والرغبة فى الانتقام ستحرقنى. قبل أن يوافقوا نهائيًا قال له قائد اللواء: وماذا تفعل بعد التقاعد؟ فرد بأنه سيزرع القيراطين اللذين اشتراهما فى سرابيوم. فقال له القائد: نار القعدة فى سرابيوم ستحرقك مثل نار الغيظ فى الوحدة.

★

لا أعرف ماذا حدث لى؟ كنت أتمشى على حافة الغيط فرأيت امرأة تعبر من أمامى.. تحمل على رأسها صينية طعام.. نظرت إلى وجهها فهتفت وأنا أسرع نحوها: رئيفة. فجفلت وانحرفت بخطواتها بعيدًا وهى تزوى ما بين عينيها فى غضب. أفقت فانضبطت المرئيات أمام عينى. أخذت ألوم نفسى.. ثم وجدت تبريرًا طيِّبَ خاطرى.. فرئيفة لم تمت.. ولم آخذ عزاءها.. هى تعيش وتتنفس فى مكان لا أعلمه.. لكنها ستأتى حتمًا وفى يدها إبراهيم الدسوقى.. شاب طويل عريض.. يشبهنى ويشبهها.. يشبهنا.. فهو ولدنا الذى حلمنا به. طبيعى أن أرى رئيفة فى وجوه النساء.. لكننى لا أرى إبراهيم فى وجوه الشباب لأنه يسكن قلبى بلا ملامح.. أحضنه داخلى وأهدهده بغير كلام. بعد أن جفلت المرأة من ندائى عليها باسم رئيفة، تساءلت: لماذا لا أجرب أن أرى إبراهيم فى وجوه شباب القرية؟ فى مساء اليوم نفسه زارنى متولى فحكيت له.. فنظر لى دهشًا وسألنى مترددًا: وما

أدراك أن رئيفة أنجبت ولداً؟ كاد قلبى يتوقف.. لم أعمل حساباً لهذه الفكرة.. فنظرت إلى الأرض.. ولم أعرف كيف أرد. ساد صمت كثيف كأنه ستارة دخان حجبت الرؤية.. قطعه متولى بقوله: ربنا يكون فى عونك. رفعت رأسى ونظرت.. فرأيت فى عينيه نظرة ندم.. كأنه تسرع فى النطق بما لا يليق. قلت له مهونًا: يا رجل.. لا تشغل بالك.. يظهر أننى كبرت وخرفت.

تكرر ظهور ملامح رئيفة فى وجه كل امراة تمر بى. فى البداية كنت أسرع نحوهن هاتفًا باسمها.. فتختلف ردود أفعالهن.. إحداهن اكتفت بمصمصة شفتيها فى إشفاق.. وواحدة وقفت أمامى فى جرأة وقالت: رئيفة مين يا روح أمك؟ ولا أنسى تلك التى ألقت فى وجهى بنصف برتقالة ثم غيرت طريقها.. والمرأة التى ركبها الهلع فاصفر وجهها ومضت مسرعة. فكرت: كيف أمنع طيف رئيفة من احتلال وجوه النساء اللائى يمضين أمامى؟ فلم أعرف. جاهدت لأمتنع عن نطق اسم حبيبتى أمامهن.. فنجحت مرة وفشلت مرات. وانتهى الأمر بتعمد النسوة أن يغيرن طريقهن ويبتعدن حال رؤيتى. واعتدت أن أتجاهل مصمصات شفاههن ونظرات إشفاقهن. لكننى بكيت بحرقة عند زيارتى لقريتنا.. فقد رأيت وجه رئيفة يطل علىّ من وجه أختى الصغرى. صوتها نبهنى.. فدهمنى ذهول، وانهار جسدى على الكنبة، واستلمنى البكاء. حاولت أختى أن تعرف ماذا أبكانى فلم أقدر أن أحكى لها. فى النهاية قلت لها باختصار: تذكرت رئيفة. فأخذت تبكى وهى تنظر نحوى من تحت لتحت. قلت لنفسى: معها الحق إذا ظنت أن الخبل أصابنى.

لو أمى موجودة الآن لحكيت لها من غير خجل.. آه يا أمى الحبيبة!.. لماذا رحلت وقد كنت سلواى؟ بين يديك كنت أبكى فأنفض الهموم عن ظهرى. أحكى لك كأنى أكلم نفسى. هل متولى يساويك؟ هو يقترب من

الأربعين.. وما زلتُ أراه مثلما رأيته أول مرة يتقافز بين الهيش. آه يا أمى الغالية.. بموتك.. لا.. بل بانتقالك لا أرى أحداً جديراً بالفضفضة. استماعك لى كان يخلصنى من الشوائب.. تماما مثلما كنت تضعين نوى المشمش فى "الزير" لتروق مياهه.

★★

كنتُ فلاحًا خائبًا.. لكن دسوقى فلاح ماهر.. مع أنه لم يزاول الفلاحة من قبل. خدمته العسكرية أفادته كثيراً. بعد أن اشترى منى البيت والغيط.. لم يضيع وقته.. بحث عن المتخصصين وسألهم، وسمع منهم ونفذ نصائحهم بدقة. فى البداية كان يقضى إجازته مغروساً فى الأرض مثل الأشجار التى أحاط بها قراريطه. الفرق أن أشجاره مغروسة وثابتة، وهو مغروس يتحرك، ينظر كل شىء، ويراجع شتَّى التفاصيل، ولا يترك أى أمر للمصادفة. نظام التعليم فى مدارس الجيش أفاده وجعله يمارس الفلاحة بدرجة الانضباط التى التزم بها فى العسكرية. أعطى جهده بإخلاص فصار قليل الكلام. محاوراته معى كانت متعادلة.. أصبحت بعد انشغاله فى الأرض من طرف واحد.. يكتفى بأن يمسك خيط الكلام ويرخيه ويتركنى أتعلق به.. يومىء ليشجعنى على مواصلة الحديث.. وعندما أسأله عن شىء يجيب بسرعة كمن يريد التخلص من الموقف.

حاولت إقناعه أن يؤجل تقاعده.. ألححت عليه أن يصبر عدة سنوات.. لكنه قال لى فى لحظة فضفضة: ربما أنت على حق.. لكنى لا أقدر يا متولى.. أنت أقرب الناس لى.. وتعرف أنى أتعذب. أذكر أن أبى مات فى ليلة شتوية باردة وهو يسقى الزرع.. فى الصباح وجدناه ملقى على وجهه وقد هربت منه الحياة.. والجاموسة المغماة تدور فى مدار الساقية برتابة. الماء أغرق الزرع، والجسور انهارت. نفس الإحساس يسيطر علىّ الآن، فآلة

الحرب تدور مثلما كانت تدور الجاموسة فى الساقية. القضية ماتت.. ويكاد الماء أن يغرقنى. الجسور التى كانت تحمينى وتقوينى تهدمت وذابت.

تعجبت من تشبيهه.. وأخذت وقتًا لأفهم العلاقة بين موت أبيه وموت القضية، والجسور التى ذابت. قال لى فى إحدى محاوراتنا: كنت أشعر أنى أدير ماكينة تصخب بصوت عال ولا تعطى إنتاجًا. قلت له مهونًا: أنت تعرف أكثر منى يا دسوقى أن هذه طبيعة الجيوش.. الاستعداد لخطر مجهول، والتدريب على مواجهته. ماكينة الجيش تعمل فى مجال تخيُّلى.. لتكون مستعدة لتحقيق الانتصار على الأرض حال قيام الحرب.

براعة دسوقى ظهرت بعد تقاعده.. انغمس فى فلاحة الأرض مثلما كان منغمسًا فى حياته العسكرية.. غير أنه صار أكثر صمتًا.. واكتفى بأن يستنطق الأرض لتجهر بخيرها. وبالرغم من اهتمامه بالزراعة، فقد ظل يمارس طقوسه اليومية على حافة المصطبة بانتظام، ودون أن يعبأ بمعابثات العيال. ذات يوم لاحظ أن الحشائش تكاثرت على جوانب المصطبة.. فظن أن الأهالى ينوون هدمها بتغيير هيئتها.. ثم السماح للحشائش أن تكسوها وتحولها إلى غيط صغير. الجيران انتبهوا إلى صوته العالى وشجاره مع الأولاد الذين لمحهم قريبًا منه. أحد الجيران حكى لى، فسألت دسوقى فى غموض: كيف حال المصطبة؟ فاندفع من فمه كلام غاضب يعكس قلقه. هدأتُه وأفهمته أن المصطبة أمر واقع، ولا يستطيع أحد أن يزيلها. وضع يده على خده وغاب فى جب الصمت. احترمت حزنه وصمته وأخذت فى تأمله من بعيد. بعد دقائق بدا كأنه أفاق وقال لى: هى ما بقى لى من الأيام الحلوة وذكريات الحرب.. الأولاد يلعبون فوقها وهم لا يعرفون أصلها ولا فصلها.. مع أننى أراها متحفًا لمرحلة مهمة من تاريخنا.. ويجب أن يزورها كلّ أهل مصر، وخاصة الشباب والأطفال. عاد إلى صمته لحظات ثم قال

بصوت باك: الناس نسيت أكتوبر يا متولى.. والنصر العظيم يختفى وراء ستارة من الإهمال والانشغال الوهمى بهموم تافهة. ولو بقيت شعلة أكتوبر متوهجة لأنارت حياتنا كلها.. ولحققنا بنورها المعجزات.

ظننت أنه سيهدأ بعد تقاعده. لكننى لاحظت أن الوقت صار ثوباً فضفاضاً يرتديه، ولا يعرف كيف يضم أطرافه. فى زياراتى لسرابيوم بعد تفرغه للأرض، سمعت عن معاكسة دسوقى للبنات والسيدات. لم أصدق بالطبع.. لأننى أعرف استقامته. تجاهلت الموضوع، فلم أفتحه.. لكنه ذات مساء تحدث عن وجه رئيفة الذى يراه فى وجوه النساء.. كما أبدى تعجبه لأنه لا يرى وجه ابنه إبراهيم فى وجوه الشباب. لا أذكر ماذا قلت له ساعتها.. لكن لاحظت ألماً شديداً طفا على وجهه، فندمت على كلامى. فى ذلك اليوم تأكدت مخاوفى، وصرت مستعداً لسماع الكثير، وقارنت بين هيئته عندما رأيته أول مرة على جسر الترعة، وصورته وهو ذابل بعد خروجه من الخدمة.

★

كويز إيه وزفت إيه؟ شفت يا متولى؟ شفت ما يفعلون لربطنا بمصالح العدو؟ يعقدون اتفاقيات لروابط اقتصادية، ويزينون لنا تسهيلات للتصدير، ويعتمدون على الحيتان من الرجال الذين لا يهمهم إلا الكسب السريع. سعينا إلى السلام لنستعيد سيناء.. قبلته على مضض رغم شروط المعاهدة القاسية... أثق أن هذا السلام سيتحطم قريباً وتتجدد المعارك. هل نسينا ما فعلوه بنا فى سبعة وستين، وما فعلناه بهم فى ثلاثة وسبعين؟ إنهم يهاجموننا فى السلم بمحاولة التغلغل الاقتصادى فى حياتنا. آه يا متولى.. أنا خائف من ضياع حقنا الذى لا يبحث عنه أحد. لا أنسى ما فعلوه. كيف أنسى رئيفة؟ ومَنْ يساعدنى على الثأر؟ قائد اللواء كان على حق عندما

حذرنى بعد أن وافق على تقاعدى: القعدة فى سرابيوم ستكون ناراً تحرقك. وأنا الآن أشعر باللهب يحرق أطرافى وأعصابى.

أمس.. رأيت لقطة واحدة فى التليفزيون لخبطت حالى. اللقطة لأحد أهالى السويس. كان يتحدث عن الفترة التى قضاها اللواء أحمد تحسين شنن محافظًا للسويس. ثم ترحم عليه لأنه توفى قبل عدة أشهر. غامت عينى بالدموع لمَّا علمت بوفاته. واستعدتُ نفس الأحاسيس التى عشتها لمَّا عبر القناة بلوائه المدرع ليؤمن رأس كوبرى الفرقة.

الفرحة عمت الجنود والضباط، وتأكدنا من انتصارنا. تذكرت ترقبنا لتطوير الهجوم، ثم متابعتنا لأخباره فى الرابع عشر من أكتوبر. ركبنى الغم عندما عاد الرجل بدباباته إلى داخل حدود الفرقة. ولم ينجدنى وقتها إلا حديث الثغرة واستعدادنا لفضها بالقوة. تكاثرت الأسئلة فى رأسى.. كنت كمن يهذى: لا أعرف كيف أصدرت القيادة الأمر للعقيد تحسين شنن ليعود متحصنًا برأس كوبرى الفرقة مرة ثانية؟ وكيف امتثل الرجل وقبل العودة؟ هو لا يستطيع مخالفة الأوامر العسكرية. فكرت فى الحلم الذى عشنا به سنين؛ أن نعبر القناة، ثم ننطلق على محاور التقدم فى سيناء.. لنستردها بالقوة التى لا يفهم الصهاينة شيئًا غيرها.

وكأن العقيد تحسين شنن دخل الحارة التى نتحصن داخلها وأغلق بابها علينا. هدأت الأحوال أمام رأس الكوبرى. واصلنا استطلاع تحركات العدو خارج حدود الفرقة.. فلم نجد أية حشود قريبة.. ولم نلحظ تحركات مريبة. أدركت متأخراً أن العدو ركز عملياته على القطاع الذى اخترقه وصنع الثغرة من خلاله. قائد السرية استدعانى وسألنى عن أحوال المفارز خارج رأس الكوبرى، فقلت له: إن الأحوال هادئة بشكل غير عادى. سكت طويلًا.. تشجعت وسألته عن الأحوال فى باقى الجبهة.. فقال فى غموض: ربنا يكون

فى عون الفرقة السادسة عشرة.. فهى تتعرض لهجوم شرس.. ثم تنهد وقال إنه طلبنى لنقابل ضابط التوجيه المعنوى فى لقاء قصير فى قيادة الكتيبة.

تحلقنا حول ضابط التوجيه المعنوى فى حفرة دبابة خالية.. كنا أربعة ضباط صف، وأربعة ضباط. بدأ اللقاء بقراءة الفاتحة على أرواح الشهداء. وبعد أن انتهى من الفاتحة التفت إلى النقيب بنيامين وقال له مبتسماً: أعرف أنك قرأت فاتحتك أيضًا. ثم سألنا عن أحوالنا فأجبنا بحمد الله على ما حققناه. شعر أننى أتململ.. فقال لى: تكلم بصراحة.. فأنا هنا لأرد على كل ما يخطر ببالكم. تشجعت وسألته عن سبب توقف تطوير الهجوم، ورجوع اللواء المدرع إلى داخل حدود الفرقة، وكثافة الغارات الجوية على قواتنا برأس الكوبرى. وقلت له إننى لا أفهم ما يحدث وإننى قلق جداً. سمعنى الضابط للنهاية ولم يقاطعنى.. ثم شرح تحصينات العدو أمام محاور التقدم والتى استفاد فيها من ارتفاع الأرض كلما اتجهنا شرقًا.. قال إن قواتنا تتعرض لخطر كبير إذا خرجت من نطاق حماية وسائل الدفاع الجوى.. حيث لا تستطيع أن تدفع عن نفسها غارات الطيران الكثيفة التى تعوق تقدمنا إلى عمق سيناء. نظرت إلى الأرض. ولعل الضابط شعر أننى لم أقتنع، فسألنى سؤالاً قاطعًا: أين أنت الآن؟ أفاقنى السؤال فأجبت بأننا فى شرق القناة.. فاجأنى بسؤال ثانٍ عن الأرض التى نفرض سيطرتنا عليها. فقلت: فرقتنا تحتل شرق القناة بطول حوالى عشرين كيلومترا وبعمق اثنى عشر كيلومترا.. حققنا هذا فى يومين اثنين. قال الرجل: جيشنا يحتل الجانب الشرقى للقناة بقوة خمس فرق مشاة، ويفرض سيطرته على طول قناة السويس بعمق اثنى عشر كيلومتراً.. يجب ألا ننسى هذه الحقيقة الواضحة كالشمس.. كل ما أطلبه منكم أن تتذكروا نصيحة اللواء سعد مأمون قائد الجيش، عندما أوصانا قبل بدء العمليات قائلاً: إذا وجدت نفسك فى موقف سيء.. فتأكد أن العدو فى موقف أسوأ.

تنهدت في راحة.. فقد زالت الغشاوة التى تحجب الرؤية أمامى.. وشعرت أننى صرت خفيفًا، وأن أعضائى تطاوعنى فى انسجام. لكننى تذكرت الشهيد جابر، ووصيته الناقصة وأمه المحزونة، وسائق السيارة الذى استشهد قبيل المعبر، وحمدت الله أننى لم أعرف عن أحواله ما يشعل صدرى إشفاقًا وحزنًا. وانصرفت وقد صرت أهدأ، ناويًا أن أعقد لقاءً مشابها لجنود مفارزنا، لأفسر لهم الأحداث التى أقلقتنا جميعًا.

★★

دسوقى حيرنى. موقفه ممَّا حدث لرئيفة أصابنى بالارتباك. كلما قررت التسليم بأنها ماتت بأيدى الصهاينة الذئاب، أجده يتحدث عن انتظاره لها.. تلمع عيناه وهو يتحدث عن عودتها من الشرق وفى يدها ابنهما إبراهيم الدسوقى. قناعته خلطت الغزل الذى أحاول نسجه منذ سنوات طويلة، وجعلته مجرد كومة من الخيوط المتنافرة الألوان.. فلا أجد لها بدايات أو نهايات. صرت أتجنب الحديث مع أولادى عنها.. لأنهم يسمعون من زوج عمتهم ما يجعلهم فى حالة ترقب لعودتها.. لا أستطيع أن أكسر بخاطرهم ولا بخاطر دسوقى.

قبل مصرع خالد ومنصور كانت أمى تهذى باسم رئيفة، وتسأل كل من تقابله عنها، وسعت إلى القائد العسكرى فى نفيشة، ترجوه أن يساعدنا فى البحث عنها. كنت أنظر فى وجوه من تسألهم فأرى فى عيونهم إشفاقًا وحزنًا.. يهزون رؤوسهم فى أسى، وأشعر، من تعبيرات وجوههم، أنهم يستبعدون العثور عليها. فى آخر النهار نأوى إلى الخيمة فأقترب من أمى وأنظر فى وجهها، فلا أرى إلا الدموع والحسرة، وبوادر يأس يزحف على ملامحها ببطء. أفاقت بعد الغارة لتجد خالد ومنصور غارقين فى دماء طفولتيهما.. فداهمها الخرس، وألقى اليأس ملاءته عليها فغطاها، وأطفأ

نظرتها، وشوه حركتها.. فركبنى الغم، وتأكدت فى داخلى أننى لن أسعد برؤية رئيفة مرة ثانية.

أسأل نفسى: لماذا لم يسلم دسوقى بفقد رئيفة للأبد؟ ولماذا لم يقتنع أنهم قتلوها؟ لقد طردونا من بيتنا وهدموه، وأخذوا البهيمة والحمار. فلماذا يحفظون له رئيفة؟ الحكايات التى سمعناها من العجائز والشيوخ والصبيان والبنات عن البلايا التى فعلوها بقراهم جعلتنى أفزع وأتقزز وأكرههم أكثر وأكثر. ضربوا الرجال، وأهانوا النساء، وسرقوا حليهم الذهبية، وأتلفوا المحاصيل، وقطعوا الأشجار التى تمنعهم من الحركة والمراقبة. لو أن دسوقى اقتنع بأن يكف عن انتظار رئيفة لأصبح حاله أفضل. لكنه أنكر ولم يصدق وعاند. هو يعاند نفسه ويعذبها، كأنه مسئول عما حدث لها. مع أنه لم يقصر.. ولم أعرف أحداً قصر فى أداء واجبه.

★

من رحمة ربنا أن القيادة اختارتنى ضمن عناصر استطلاعية دفعت بها إلى القصاصين.. وهناك عرفنا حقيقة ما حدث فى الدفرسوار. وكثف القادة لقاءاتهم معنا ليجهزونا لمهمة تصفية الثغرة. وبدأنا فى التعرف على قوات العدو ومواقعها وكثافتها وتجهيزاتها. المعلومات وصلتنا عن طريق رجال الصاعقة الذين كانوا يهاجمون تجمعات العدو ليدمروا دباباته ومخازن ذخيرته، وليصطادوا أفراده قنصاً أو أسراً. لم يكن أمامى وقت لأفكر فى رئيفة وأهلى فى سرابيوم.. وربما حاولت ألا أفكر فيها حتى لا أفقد عقلى.

سرت موجة من السرور بيننا.. بعد أن سمعنا خبر تعيين اللواء سعد مأمون قائداً للقوات المكلفة بتصفية الثغرة. سعدنا بتعافيه بعد تعرضه لنوبة قلبية أبعدته عن قيادة الجيش الثانى.

وقف إطلاق النار المعلن لم يمنع العدو من مطاردة المدنيين بحجة البحث

عن عسكريين يتخفون بينهم.. ولم يمنع رجال الصاعقة من مهاجمة الصهاينة نهاراً وليلاً، فأطاروا النوم من عيونهم، وجعلوهم يتلفتون حولهم خوفًا ورعبًا. ولما ضاقوا بهجمات الصاعقة تحولوا إلى المدنيين فضيقوا عليهم وطردوهم وقتلوا كثيراً من الرجال، وأعلنوا أنهم قُتلوا برصاص القناصة المصريين.

عناصر الحراسة ألقت القبض على جندى رأوه يقترب من الحد الأمامى. مجرد أن رآهم يقتربون منه رفع يديه يطلب الأمان. ظنوه جاسوسًا إسرائيليا يجيد العربية باللهجة المصرية. لكنه أثبت لرجال المخابرات أنه نقيب استطلاع.. وأنه موفد من قيادة الجيش الثالث برسالة شفوية إلى مركز العمليات الرئيسى بالقاهرة. بعد إجراء عديد من الاتصالات قامت القيادة بتجهيز سيارة لنقله إلى القاهرة تحت حراسة مشددة. لكنه فى الفترة التى قضاها فى انتظار نقله تحدث إلى قائد وحدتنا الجديدة. بعد أن غادر القصاصين إلى القاهرة سألنا قائدنا فقال: النقيب اضطر للانحراف عن خط سيره الطبيعى ليتفادى قوات العدو، وتخلى عن السيارة الجيب التى كان يقودها لما اكتشف أنه يسير فى منطقة تكثر فيها كمائنه، وأتلفها حتى لا يستخدمها العدو. سألته: هل حدثك عن حقيقة ما حدث فى السويس؟ ابتسم القائد وقال إنه لم يُفوِّت الفرصة. فرجوته أن يحكى لنا ما عرفه من النقيب. سكت قليلاً كأنه يدير المعلومات فى رأسه قبل أن يروى الوقائع.. بعد لحظة أخذ يشرح ما حدث وعيناه تلمعان ببريق الزهو: طمعت قوات العدو فى السويس.. حاولوا احتلالها فاستعصت عليهم.. تم تسليح الأهالى المدنيين، وقرر بدوى الخولى محافظ المدينة نقل احتياطى المواد التموينية إلى مخازن سرية، وتم تشكيل لجان لتوزيعها وفقًا لنظام صارم. كما تم حماية مصادر المياه داخل المدينة بعد أن حول العدو مجرى الترعة الحلوة ليحرم

أهالى السويس من مياه الشرب. توغل العدو فى المدينة التى ظنها خالية حتى احتل قسم شرطة الأربعين فى قلب السويس.. لكنه فوجىء بالمقاومة الشعبية التى نسق جهودها العقيد فتحى عباس.. وأشعل الشيخ حافظ سلامة حماس المقيمين فى المدينة.. ولم تتمكن قوات العدو من قطع الطريق بين المدينة والجيش الثالث فى الشرق، بفضل التعاون الوثيق بين العميد يوسف عفيفى قائد الفرقة التاسعة عشرة، والعميد أحمد بدوى قائد الفرقة السابعة فى شرق القناة.. حيث دفعا أطقم قنص الدبابات إلى داخل المدينة لتكمن فى النقاط الحاكمة. ولمَّا اقتربت أرتال المدرعات المعادية إلى أقصى حد منها هاجمتها فى شراسة فبعثرتها. واستطاعت عناصر المقاومة الشعبية المدعومة بقوات الجيش أن تقتنص الجنود الهاربين من الدبابات والعربات المصفحة. هكذا حاول الغزاة الاستيلاء على السويس ثلاث مرات.. لكنهم أرغموا على الانسحاب منها بعد أن خسروا حوالى ثلاثين دبابة وثمانية وأربعين جندياً فى محاولة واحدة من محاولاتهم الثلاث. لكنهم تمكنوا من الالتفاف حول المدينة فاستولوا على ميناء الأدبية جنوب السويس، والزيتية فى غربها، وحاولوا إيهام العالم بأنهم احتلوها. المقاومة فضحت كذبهم، واضطروا للتفاوض ليستعيدوا جثث قتلاهم داخل المدينة. وتوقفت المفاوضات بسبب تعطل جهاز اللاسلكى الذى كانوا يستخدمونه أثناء الهجوم.

بعد أن حكى القائد تفاصيل معركة السويس، صمت قليلاً ثم قال وعيناه تنظران لبعيد: ظن العدو أنه سيحول هزيمته إلى نصر بعد أن عبرت وحداته إلى غرب القناة. واختار السويس ليحتلها، فأدرك أنه يجرى وراء سراب. انتصاره علينا وهمٌ وسراب. وهم لحظة أن فكَّروا فى التقدم نحو السويس.. وسراب يوم أن أُجبروا على الانسحاب منها.

★★

بعد فقد رئيفة، ظننت أن دسوقى فقد القدرة على البكاء. فلما ماتت أمه دارت سواقى العياط تضخ الدموع، حتى كادت تُغرق العيون والجفون والجسور. قلت له: ارحم نفسك يا دسوقى. فلم يمتثل، لأنه لم يسمعنى. وكأن موت أمه أدخله فى قفص الصمم والعتمة، وفجَّر فيه عيون الحزن والنحيب. فى مرض الموت حادثته شقيقته وهى تصرخ: الحقنى يا دسوقى.. أمك عاوزة تشوفك. أسرع مغادراً إلى بلدته.. ولحقت به فى صباح اليوم التالى. ظل إلى جوارها يومًا كاملًا وهى صامتة لا تستطيع الكلام، وتحدثه بحركة عينيها. تسأله.. فيقلب صفحات الأسئلة أمامها حتى تشير له إلى سؤالها. يعرف السؤال فيعرض الإجابات واحدة واحدة، وينتظر حتى تختار الاحتمال الذى يوافق هواها، فتومىء بالموافقة. تعجبت من قدرته على احتمال الموقف. أخواته البنات كن ينهرن بالبكاء عندما يريْنَها فى تلك الحال.. حاول منعهن من البكاء فلم يقدرن.. فطردهن من غرفة الأم المحتضرة.

قبل الغسل جمع دسوقى أخواته ونطق بوصية أمه التى استقبلنها بالنحيب. أقام بالمنزل أيام المأتم، وصمم أن أعود لأولادى فى اليوم التالى. رجع إلى سرابيوم أكثر شحوبًا، وصائمًا عن الكلام. حرصت على زيارته كثيراً.. فاختار أن يسمعنى.. رغم محاولاتى لجره إلى الحديث.

بعد شهرين أو أكثر حلَّت عقدة لسانه، وفاجأنى قائلاً: أمك فقدت النطق، وأمى لم تنطق بكلمة.. وماتتا دون أن تصرحا بكلمات أخيرة تروى الظمأ ونعلقها فى آذاننا ما حيينا. لماذا ذهبتا بهذه الطريقة؟ أحسد جابر وفرج وكل الشهداء على ميتتهم المفاجئة.. حيث ينتهى كل شىء بلحظة، فلا نجد وقتا للتشييع أو الحزن. لا أعرف كيف تكون نهايتى.. لكننى حزين.

حزنى يسد علىّ الطرق والمنافذ.. ويهاجمنى ككلب مسعور.. لا أستطيع الهرب منه.. لأننى لا أحاول.

لم أجد كلاماً أرد به على دسوقى. يبدو أننا نتبادل المواقع. يصمت هو لأتحدث. ثم يأتى عليه الدور فيتحدث لأسكت. أشعر بما يعانيه، ولا أقدر أن أواسيه. طبقات الأحزان تراكمت فوق قلبه فأتعبته.. لكنه يقاوم بغير مساعدة من أحد. يا الله.. لا أعرف كيف أخفف عنه! إنه لا ينتظر منى شيئًا، ولا من غيرى.

★

أنام ثم أصحو على كابوس هدم المصطبة. أقوم يغمرنى العرق والغضب.. وأشعر بجسدى يرتجف. لا يمكن.. لن أسمح لهم. هم يعترفون صراحة بأنها مصطبة دسوقى.. وهو اعتراف يعطينى الحق فى الدفاع عنها.. هم لا يعرفون أننى مقاتل عنيد. شفت الموت مرات بعدد شعر رأسى. فى بداية تطوعى كنت صغيراً أخاف الموت. وأخشى على أمى وأخواتى البنات من الحزن على فقدى. تبدد خوفى من الموت بعد مشاركتى فى أول عملية ضد العدو فى شرق القناة.. حيث عدت مع زملائى سباحة ونحن نحمل على ظهورنا شهيداً لنا وأسيراً منهم. كنا فى عز شتاء سنة سبعين.. نار الثأر تشعل قلبى. سأدافع عن مصطبتى.. وسأمنع من يحاول هدمها.

كوابيس الحرب أرهقتنى. كانت تأتينى يومياً، ثم تباعدت. ولما كثر الكلام حول المصطبة عاودتنى ثانية.. فرأيت الشمس الحمراء تصعد إلى وسط السماء وقد انسكبت منها دماء غزيرة. أصحو فزعًا وكلى خوف أن تغرق الأرض بالدماء. ورأيت أرض الشرق مشققة من شدة العطش.. وفجأة تفور الشقوق بالدماء.. تهدأ الأرض كأنها تشرب.. لتفور مرة أخرى بدماء قانية. فى أحد الكوابيس شممت رائحة الدم كأنى أقف بالقرب من ذبيحة ذبحت لتوها.. فصحوت لأتقيأ ما فى بطنى.

فكرت منذ عدة شهور أن أشترى الأرض التى تحيط بها.. لكن أصحاب الأرض رفضوا.. لا أستطيع أن أجبرهم على البيع. ولا أقدر على العيش بعيداً عنها. لماذا يستكثرونها علىّ؟ من فوقها أنظر الشرق البعيد.. أتابع شروق الشمس، وأترقب مجىء رئيفة مع ابننا إبراهيم، وأتخوف من هجوم الجراد الكثيف.. الذى لم يعد أحد ينتبه له أو ينتظره.

نويت منذ أسبوعين أن أبنى حجرة صغيرة فوق الحافة لأثبت ملكيتى بوضع اليد، وأضع حواجز على مداخلها، لأمنع الآخرين من الصعود عليها. كما خطر ببالى أن أذهب إلى قيادة الجيش ليمنحونى وثيقة بملكية المصطبة، لأضمن ألا يقترب منها أحد.. أو يغير هيئتها، أو يهدمها. وبعد أن قمت من نومى بالأمس تملكتنى فكرة منطقية.. أن أزرع المصطبة بالألغام لأمنع الأولاد والكبار من الصعود عليها.. لتكون لى وحدى. وانتبهت إلى أن الألغام لا تتوافر فى السوق. كما أن الأولاد لن يأخذوا الموضوع بجدية، فتحدث كارثة.

★★

قلت له: حاول تنسى المصطبة. فلمعت عيناه بالغيظ ولم يرد، وتحدث فى شأن آخر. مرة ثانية قلت له: المصطبة باسمك.. هذا صحيح لكنها ملكية عامة.. إنها موقع عسكرى يملكه الجيش. فقام غاضباً. أمسكت بيده ليجلس وقلت له: لا تؤاخذنى.. فمصلحتك تهمنى.. لكنك تتعامل مع الموضوع بانفعال. عاد فجلس متفكراً كأنه يقلب كلامى على كل ناحية. واصلت: فكر بهدوء يا دسوقى.. المسألة لا تستأهل كل هذا التوتر. المصطبة شأن عسكرى.. وأنت الآن خارج الخدمة العسكرية.. ليس لك الحق فيما تقول. صرخ قائلا: إنها حياتى. فاجأتنى عصبيته. هل كان يقصد أن حياته تساوى المصطبة، أو أنه يقصد أن المصطبة شأن يخص حياته التى لا يجب أن أتدخل فيها.

قررت أن أدخل للموضوع من مدخل آخر. قلت له: ما رأيك فى أن تشترى قطعة أرض فى الشرق.. ضمن مشروعات التوسع الجديدة للمحافظة.. لتزرعها وتنشغل بها.. وتبنى فيها بيتا صغيراً. نظر لى بحدة وصاح مستنكراً: أنشغل بها عن المصطبة؟ اهمد يا متولى.. فلستُ مجنوناً. قلت له مُهونًا: أنت سيد العاقلين.. لكننى قلق عليك.. يكفينا ما حدث لنا. صمت قليلاً ثم قال متعجبًا: وكيف أطلع المصطبة كل صباح؟! هل تريدنى أن أعطى ظهرى للشرق وأمضى إلى الغرب فتتخبط حياتى وتتلخبط خيوط غزلى؟

مشكلتى الآن فى الشرق.. فمنه تأتى رئيفة.. وسيأتى منه الأوغاد. المصطبة هى مرصدى الذى أترقب منه المستقبل الآتى. هى التى حققت لنا النصر. منها صعدنا لنكشف مواقع العدو فرسمناها فى رؤوسنا.. وعلى الأرض بنينا مواقع مثلها تماما.. وتدربنا على اقتحامها آلاف المرات.. حتى صار اقتحامها ساعة الجد أيسر مما عانيناه فى التدريب.

لا أتخلى عنها.. ولن أسمح أن يهملها الوطن.. هى تذكارى المحفوظ فى صدرى حتى الموت. نطق دسوقى كلماته الأخيرة وكأنه ذاهل عن الزمان والمكان.. لا يرى أحداً.. ولا يشعر بأحد. حتى أننى قمت أتسحب من أمامه وخرجت فلم يشعر بى.

بعد يومين.. وقبل المغرب بقليل.. بحثت عن دسوقى فلم أجده فى البيت أو الغيط. تعجبت فهو لا يترك البيت أو الغيط إلا نادراً.. ولم أجد مناسبة تفسر غيابه. خطرت المصطبة ببالى فذهبت إليها. رأيته يجلس فى مكانه المعتاد على القمة ساكنًا سارحًا غائبًا عن كل شىء.. يمسك بعود حطب ينكت به الأرض. اقتربت منه وألقيت عليه سلامًا أخرجه من سكونه.. فتحول نحوى ببطء شديد.. ورد السلام بغير اهتمام. ساد الصمت حتى قلت له:

مالك؟ موعدك على المصطبة قبل الشروق.. ماذا حدث؟ بعد لحظة قال فى غموض: أصبح الموعد قبل الشروق وقبل الغروب.. الخطر أصبح قريباً، ويجب أن أنتظره صباحا ومساءً. المسألة لا تحتمل الإهمال أو التجاهل. لا شىء سيمنعهم من الهجوم؛ لا السفراء، ولا الاتفاقيات، ولا الأجهزة المتقدمة، ولا قوات المراقبة، ولا طائرات التفتيش والملاحظة. سيهجمون.. سيهجمون.. ونحن نائمون فى العسل. أنا مسئول عن المراقبة. مشكلتى عدم وجود جهاز لاسلكى يجعلنى أبلغ القيادة عن الهجوم. أنا خائف يا متولى على رئيفة عندما تأتى ومعها ابننا إبراهيم. أخشى أن يظنوهما من ضمن قوات العدو.. لذلك أنا هنا لأتابع الحشود القادمة، ولأنقذ رئيفة وإبراهيم قبل أن يفتك بهما رجالنا.. الذين لا يعرفونهما.

سمعت أذان المغرب فحمدت الله. قلت له: تعال يا دسوقى نصلى المغرب فى المسجد القريب. قام كممثل يمثل مشهداً بالبطىء. بعد عدة خطوات توقف وقال: أنا متوضىء.. سأصلى هنا. الموقف خطير.. ووجودى هنا وحدى لا يكفى. يجب أن أعين مراقبين يساعدوننى فى متابعة القادمين من الشرق. هذه الطريقة لن تفيد. اسمع يا متولى.. خذ أرضك وبيتك واتركنى هنا.. أبنى حجرة صغيرة وأراقب منها.. لم يعد هناك وقت لأضيعه فى الزراعة وفى النوم.

ظلال المساء كانت تكسو وجهه الخالى من التعبير. تأملت ملامحه فلاحظت أن ذقنه طالت قليلاً. لم أعرف ماذا أقول له. كلماته الصارمة العجيبة أسكتتنى. فكرت أن أناقشه وتراجعت. تصلب فى مكانه.. كمن يخشى مغادرة المكان فيحتله آخرون.

مضيت نحو السفح.. تتجاذبنى مشاعر متعارضة. تركت المصطبة ونظرت خلفى، فرأيته يفرد ذراعيه على اتساعهما، ويمضى بخطوات نشطة نحو القمة.. وبدا كمن قرر أن يطير.. نحو الشرق.

سرابيوم ٢٢ سبتمبر ٢٠٠٣

- كفر الزيات ٢٩ نوفمبر ٢٠١٣

سلسلة كتاب الهلال تقدم:

كتابات لم تنشر

د. محمد مندور

يصدر ٥ نوفمبر ٢٠١٥

ربما ينتهي القارئ من هذه الرواية، فيقول إن القضية أكبر من «سراب .. يوم» الحرب، وإنما هي سراب يؤرق من ضحوا بأنفسهم وعائلاتهم، ونجوا من قصف حصد زملاء لهم، وفاتهم الانضمام إلى سجل شهداء الحرب. حلموا بما بعد النصر العسكري واستيقظوا على كابوس كارثي في نهاية أيام الحرب، تنازلات مجانية، ثم بيع صريح لدماء الشهداء، وصفقات سياسية وتجارية مهينة، فلا تقوى ذاكرتهم على النسيان، ولا ضمائرهم على التحمل، فيكون الجنون مصيرا ينتظر «دسوقي» بطل هذه الرواية، وغيره من الجنود، وقود المعارك، الذين يقتلون في صمت، ولا يحظون بما يسطره المؤرخون.

«سرابيوم» نسيج إنساني ذو شجون، سيحتفظ لنفسه بمكانة في «أدب الحرب» الذي يتصارع فيه السلاح مع أشواق الإنسان إلى الحرية.

روائي وقاص مصري
شارك في حرب أكتوبر ١٩٧٣ كضابط احتياط في أحد التشكيلات القتالية المدرعة بالجيش الثاني.